بسم الله الرحمن الرحيم

أضواء على نهج البلاغة

الجزء الثاني

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق
وزارة الثقافة العراقية لسنة ٢٠١٥ - ٩١١

أضواء على نهج البلاغة

بشرح ابن أبي الحديد في استشهاداته الشعرية

الجزء الثاني

تأليف

الدكتور علي الفتال

إصدار

مؤسسة علوم نهج البلاغة

العتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

العراق: كربلاء المقدسة - العتبة الحسينية المقدسة
مؤسسة علوم نهج البلاغة
www.inahj.org
Email: inahj.org@gmail.com
موبايل: ٠٧٨١٥٠١٦٦٣٣

ترجمة الشريف الرضي (رحمه الله)

هو السيد أبو الحسن وأبو عدنان محمد بن الطاهر ذي المنقبتين أبي أحمد الحسين بن موسى الأبرش بن محمد الأعرج بن أبي سبحة موسى بن إبراهيم المرتضى المجاب بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين السجاد بن أبي عبد الله الحسين السبط الشهيد بن أبي الحسنين علي المرتضى الحيدر الكرار بن أبي طالب بن عبد مناف بن عبد المطلب شيبة الحمد سيد البطحاء بن هاشم الثريد عمرو.

أما نسبه من أمه: فاطمة بنت محمد يعود إلى هاشم الثريد عمرو أيضاً.

وأما ولادته فكانت سنة ٣٥٩هـ في بغداد وتوفي فيها بين سنتي ٤٠٤ ـ ٤٠٦ هـ. وكان يسكن في محلة الأمباريين وهي إحدى محلات الكاظمية. وقيل في دفنه وقبره أنه دفن في داره ثم نقل رفاته إلى كربلاء حيث كانت لأسرته مقبرة خاصة في كربلاء دفن فيها والده وشقيقه الشريف المرتضى علم الهدى وأختاه، وقيل أن قبره يقع بين ضريح الأمام الحسين عليه السلام وقبر إبراهيم المجاب.

أما مؤلفاته فقد بلغت ١٩ مؤلفاً هي :

١) كتاب أخبار القضاة.

٢) كتاب الأمثال.

٣) تعليق خلاف القضاة.

٤) كتاب تلخيص البيان في مجازات القرآن.

٥) كتاب الجيد من شعر أبي تمام.

٦) كتاب تعليقته على كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي.

٧) كتاب الحسن من شعر الحسين بن الحجاج.

٨) حقائق التأويل في متشابه التنزيل.

٩) خصائص الأئمة الإثنا عشر عليهم السلام.

١٠) كتاب رسائله المنثورة المسجوعة.

١١) كتاب الرسائل الشعرية التي دارت بينه وبين أبي إسحاق الصابي.

١٢) رسالة (ذكرها طارق الخالصي في مجلة الكتاب).

١٣) كتاب زيادات شعر أبي تمام الطائي.

١٤) كتاب زيادات شعر ابن الحجاج.

١٥) كتاب سيرة والده الطاهر أبي أحمد الحسن.

١٦) كتاب مجازات الآثار النبوية.

١٧) كتاب المختار من شعر أبي إسحاق الصابي [٢].

١٨) نهج البلاغة.

١٩) ديوان بجزأين.

ترجمة ابن أبي الحديد

هو عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني البغدادي الشيعي الشافعي المعتزلي (٥٦٨ ـ ٦٥٦ هـ).

ثمة مصادر تذكر: أنه ولد ونشأ في المدائن وتوفي ببغداد وأُخرى تذكر: أنه ولد في الكرخ ثم عاش في المدائن وهو القائل:

يا كرخ جاد عليك مدرار الهوى
وسقى ثراك من الرواعد مسبل

ما دمتُ بعدكَ بالمدائن سلوةً
إلاَّ ثنى الثاني هواك الأولُ

استغرق تأليف شرح نهج البلاغة أربع سنوات ونيف إذ كان من ٦٤٤ـ ٦٤٩ هـ كما صرح به في شرح النهج.

وتسنم وظائف عدة منها:

١. كاتب في دار التشريعات سنة ٦٢٩ هـ.

٢. كاتب في المخزن (دار الخراج) سنة ٦٣٠هـ.

٣. كاتب في ديوان الخلافة سنة٦٣١ ـ٦٢٣هـ

٤. نقل الى واسط سنة ٦٣١ هـ إلى وظيفة لم يذكرها أصحاب السِيَر.

٥. وفي سنة ٦٤٢هـ أسندت إليه وظيفة مشرف ولاية الحلة، أي الوالي أو المفتش المالي.

٦. سنة ٦٥٦هـ عين بوظيفة الأشراف على خزائن الكتب في بغداد.

٧. سنة ٦٥٦هـ عين كاتب السَّلَّة – بفتح السين المهملة وفتح المشددة اللام – أي ديوان الزمام، وهو رأس الدواوين وأعلاها. وأقربها إلى الخليفة، وبعد هذه الوظيفة توفي.

مؤلفاته

١) الاعتبار، وذكره في شرح النهج.

٢) انتقاء المتصفى، وقد ذكره الحاج خليفة في كشف الظنون والزركلي في أعلامه.

٣) تتمة نهج البلاغة، مطبوع وذكره في شرح النهج.

٤) تعليقات على بعض الكتب، غير مطبوع، ذكره في شرح النهج.

٥) تعليقات وحواش على المفصل، وذكره ابن شاكر في الفوات.

٦) تقرير الطريقتين في أصول الكلام، ذكره صاحب الكشكول.

٧) تلخيص نقض السفيانية، ذكره في شرح النهج.

٨) حول سيفيات المتنبي. ذكره بروكلمان في تأريخ الأدب العربي.

٩) رسائله الديوانية. ذكره أكثر من مصدر وذكره في شرح النهج.

١٠) شرح نهج البلاغة.

١١) الفلك الدائر على المثل السائر. مطبوع.

١٢) العلويات السبع. مطبوع.

وثمة كتب أخرى تربو على العدد الذي ذكرناه لم تطبع ولكنها ذكرت في لمصادر.

منهج الأضواء

لكل مؤلف أو محقق أو مُعِدٍّ منهجه في التأليف والتحقيق والإعداد، ولما كانت "الأضواء " على نهج البلاغة تأليفاً من خلال الجزء الأول منه خاصة، وتحقيقاً من خلال الهوامش وأعداداً من خلال تصنيف النصوص الشعرية. . لذلك كان لزاماً علي أن أتخذ لي منهجاً يجمع بين دفتيه الوظائف الثلاث (التأليف والتحقيق والإعداد).

وتأسيساً على ذلك يمكن أجمال المنهج الذي اعتمدته في "الأضواء" بالأمور الآتية:

١) ألحقت بعض الأبيات التي أشار إليها المحقق أبو الفضل في الهامش بما

أستشهد به ابن أبي الحديد من شعر لئلا أثقل على القارئ بالرجوع إلى الهامش وتجزيء النص الشعري.

٢) صرفت النظر عن بعض إحالات المحقق من اختلاف بالنقل والقراءة في مضان المصادر أو مخطوطات "النهج " لأن ذلك ليس من وظيفتي.

٣) اختصرت بعض الروايات بالنص بما لا يخل بعناصره الأساسية لينصب التركيز على الشعر، مع الاحتفاظ بارتباطه بالحدث الذي قيل من أجله.

٤) صرفت النظر عن بعض الشعر الذي لم أجد فيه قيمة فكرية، وهو قليل جداً.

٥) إذا وجدت شاهداً في قطعة شعرية أخذت البيت المستشهد به وأحلت الأبيات الأخرى إلى باب آخر، كمرثية الشريف الرضي (٢٣٤. ٧) فقد أخذت البيت الأخير منها وأحلت الأبيات الأخرى إلى الرثاء أو غيرها.

٦) صرفت النظر عن أبيات مكررة في أماكن بعيدة عن مكانها الأول.

٧) وضعت خطاً تحت الكلمة التي استشهد بها الشارح في (توضيح معنى مفردة) ليسهل على القارئ الربط بين الشاهد والمستشهد به.

٨) أضفت واو العطف (خاصة في بدايات) الأبيات المستشهد بها أما لسقوطها من الأصل في الطبع أو لعدم وجودها في الأصل، والمحقق لم يلتفت إليها، على الرغم من اختلال الوزن بدونها، (أي بدون الواو)، ووضعت الواو بين قوسين ().

٩) اختصرت بعض توضيحات الهوامش لوضوح المعنى بما ثبتُّ.

١٠) حاولت عدم ذكر ديوان الشاعر المعروف في الهامش، اعتماداً على معرفة القارئ إياه.

١١) قد يتكرر نص شعري، أو كلام للإمام علي عليه السلام فهو ما يقتضيه تقسيم فصول الأضواء.

١٢) اتبعت منهج الحياد في نقل الشعر والخبر، وللأمانة التأريخية وتركت الرأي للقارئ.

١٣) اتبعت منهج (المحطات) في النقل، إذ كنت بين كل معركة ومعركة (في معركة صفين مثلاً) أنقل ما يدور في مجلس الأمام علي عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان أو بعض الكتب المتبادلة بينهما لأريح القارئ من عناء رجز المعركة وأطلعه على ما يدور خلف الكواليس.

١٤) نقلت شعراً في هجاء الأمام علي عليه السلام الى جانب مدحه لاستكمال الجوانب التاريخية، كما في صفين خاصة، عندما هجاه يزيد بن الحجية (٨٤/٤).

١٥) وضعت شروحاتي أو إشاراتي، أو توضيحاتي، أو إبداء رأيٍ ما سواء في المتن أو في الهامش، بين قوسين ().

تصرفت بالنص النثري بما لا يضر.

١٦) في فصل (حرب صفين) كنت أكمل النص الشعري من كتاب صفين

لنصر بن مزاحم، تحقيق عبد السلام هارون، إتماماً للفائدة.

١٧) استبدلت علامة التعجب (!) بعلامة الاستفهام عندما تكون الجملة استفهامية ظناً مني بعدم وجود علامة استفهام طباعية في المطبعة (النسخة التي بين يدي) أو سهو الطباع كقوله عليه السلام لمعاوية: - ((فما أنت وعثمان؟ ٨٩/٣)).

١٨) لم أشر في الهامش كثيراً إلى كتاب (صفين) لئلا أثقل على القارئ الكريم إذ يمكن مراجعة كتاب صفين بعد كل نص إذا رغب القارئ بذاك

١٩) قسمت الأضواء على وفق الموضوعات إلى أجزاء وأضواء وذلك بجمع المتشابهات؛ فالجزء الأول تضمن بعد الإهداء والتقديم والمقدمة والتمهيد بفقراته المتعددة كما تضمن ثلاثة أضواء الأول: المشككون بنهج البلاغة، الثاني الرد على المشككين بنهج البلاغة فيما تضمن الضوء الثالث على بعض خصائص نهج البلاغة.

في حين تضمن الجزء الثاني ترجمة كل من الشريف الرضي وابن أبي الحديد وترجمة المؤلف. كما تضمن منهج أبن أبي الحديد في الشرح ومنهج المؤلف في الأضواء والهدف من الأضواء. وفي الجزء ثلاثة أضواء الأول بدايات الدعوة الإسلامية والثاني بيعة السقيفة والثالث الحروب الإسلامية سواء في عهد الرسول أو في عهد الأمام علي عليه السلام.

في حين تضمن الجزء الثالث الأغراض الشعرية، فيما تضمن الجزء الرابع

مطالب لغوية وأخيراً تضمن الجزء الخامس التمثيل والتراث الشعبي والمتفرقات وملحق بمختارات من حكم الإمام عليه السلام مع المصادر والفهارس.

الهدف من الأضواء

لعل ثمة من يسأل:

- ما قيمة جمع الشعر الذي استشهد به ابن أبي الحديد، وما إضافة المحقق في دفتي كتاب في حين أنه موجود في شرح"النهج"؟

- ما قيمته من حيث المنهج العلمي في الإعداد والتأليف؟

وهل يخدم القارئ والمكتبة العربية مثل هذا الكتاب؟

وأسئلة أخرى قد تثار.

وجواباً على ما قد يثار أقول:

إن الهدف الرئيس من وضع الكتاب هو تسهيل مهمة القارئ في تداول الشعر لتعذر ذلك عليه في ثنايا شرح"النهج"لسعته وعدم إمكانية الحصول عليه من لدن الجميع، وقد حصرت ذلك بين دفتي كتاب لهذا الغرض.

والهدف الثاني: هو ربط الشعر بالحدث لأنه مكمل له كالكتب المتبادلة بين الإمام علي عليه السلام وكل من عماله ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم؛ ووقعتي الجمل وصفين وقبلهما بدايات الدعوة الإسلامية وبيعة السقيفة وغزوات بدر وأُحد والخندق ومؤتة. . . الخ.

أما الهدف الثالث: فان أكثر ما استشهد به يدور على الألسن دون أن يعرف

القارئ أنه من استشهادات شرح"النهج "لسعة الشرح كما أشرنا في الهدف الأول. لذلك فانه سيجدها في "الأضواء"مسندة في الأغلب.

والهدف الرابع، توخي تقريب أحاديث الإمام عليه السلام إلى القارئ من خلال الشعر المستشهد به والمفصل في أجزاء وأضواء"الأضواء"لأنه وثيقة تاريخية لتلك الخطب والأحاديث.

والهدف الخامس هو: تسهيل مهمة القارئ في الوقوف على حوادث تاريخية مهمة للأمة العربية، خاصة في بدء الدعوة الإسلامية وما تلاها من حوادث ساخنة فتّت في عضد الأمة.

والهدف السادس: أن الشعر المستشهد به، وبالتالي، المجموع في هذا الكتاب يوجز ما في"النهج" ويقربه إلى ذهن القارئ ويغنيه عن الرجوع إليه في مواقع كثيرة، وإن لم يكن في الأعم الأغلب.

وأخيراً سلسلت الحوادث التاريخية حسب زمنها بما يسهل على القارئ الوقوف عليها عند التناول لأنها متناثرة هنا وهناك في أجزاء"النهج"العشرين كحرب صفين وتعقيداتها.

أرجو أن أكون قد اقتربت من القارئ الكريم وقرّبت له البعيد وسهلت له الصعب ووضعت بين يديه طبقاً شهياً لا يمل منه، بل يشتهيه في كل حين.

ليت!

الضوء الأول

بدايات الدعوة الإسلامية

قال أبو طالب يذكر ما اجتمعت عليه قريش من حربه لما قام بنصرة محمد صلى الله عليه وآله وسلَّم (١٤/٥٥):

والله لـــن يصـــلوا إليـــك بجمعهـــم ... حتـــى أوســـدَّ في الـــتراب دفينـــا
فأنفــذ لأمــرك مــا عليــك مخافــة ... وأبشـــر وقـــرَّ بـــذاك منـــه عيونـــا
ودعـــوتني وزعمـــت أنـــك ناصـــحي ... ولقـــد صـــدقت وكنـــت قبـــل أمينـــا
وعرضـــت دينـــاً قـــد علمـــت بأنـــه ... مـــن خـــير أديـــان البريـــة دينـــا

ولما تخلف أبو لهب عن نصرة محمد صلى الله عليه وآله وسلَّم كان أبو طالب يرسل إليه الأشعار ويناشده النصر، منها القطعة التي أولها (١٤/٥٦):

حـديثٌ عـن أبـي لهـب أتانـا ... وكانفـة علـى ذاكـم رجـالا

ومنها القطعة التي أولها (١٤/٥٦):

أظننـــت أنـــي قـــد خـــذلت وغـــالني ... منـــك الغوائـــل بعـــد شـــيب المكـــبر

ومنها القطعة التي أولها (٤/٥٦):

تســـــتعرض الأقـــــوام توســـــعهم ... عـــذراً ومـــا إن قلـــت مـــن عـــذر

وعندما استجار أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي بعبد المطلب من قومه، وهو ابن أخته، فأجاره وتوثب قومه على أبي طالب لأخذه منه قام أبو لهب ومنعهم وهددهم إن لم يمتنعوا أنظم إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلَّم فانصرفوا فطمع فيه أبو طالب حين سمعه قال ما قال، فقال يحرضه على نصرة محمد صلى الله عليه وآله وسلَّم (١٤/٥٧):

وإن امرأً أبو عتيبة عمّه ... لفي معزل من أن يسام المظالما
وتقبلن الدهر ما عشت خطةٌ ... تُسب به إما هبطت المواسما
أقول له وأين منه نصيحتي ... ثبِّت سوادك قائما
وولِّ سبيل العجز غيرك منهم ... فأنك لم تخلق على العجز لازما
فحارب فان الحرب نصف ولن ترى ... أخا الحرب يعطي الخسف حتى يسالما
كذبتم وبيت اللّه نبزي محمداً ... ولما تروا يوماً من الشعب قائما

وقال يخاطب أبا لهب أيضاً (١٤/٥٧-٥٨):

عجبت لحلم يا ابن شيبة عازب ... وأحلام أقوامٍ لديك سخاف
يقولون شايع من أراد محمداً ... بظلم وقم في أمره بخلاف
أضاميم أما حاسد ذو ضيانةٍ ... وأما قريب عنك غير مصاف
فلا تركبن الدهر منه ذمامة ... وأنت أمرؤ من خير عبد مناف
ولا تتركنه ما حييت لمعظِمٍ ... وكن رجلاً ذا نجدة وعفاف
يذود العدا عن ذروة هاشمية ... إلا فُهُمُ في الناس خير إيلاف

فـــإن لـــه قربـــى لـــديك قريبـــة ولـــيس بـــذي حلـــفٍ ولا بخصـــاف
ولكنـــه مـــن هاشـــم ذي صـــميمها إلى أبحـــر فـــوق البحـــور طـــواف
وزاحـــم جميـــع النـــاس عنـــه وكـــن لـــه وزيـــراً علـــى الأعـــداء غـــير مجـــاف
وإن غضـــبت منـــه قـــريش فقـــل لهـــا بـــني عمنـــا مـــا قـــومكم بضـــعاف
ومـــا بـــالكم تخشـــون منـــه ظلامـــة ومـــا بـــال أحقـــاد هنـــاك خـــواف
فمـــا قومنـــا بـــالقوم يخشـــون ظلمنـــا ومـــا نحـــن فيمـــا ســـاءهم بخفـــاف
ولكننـــا أهـــل الحفـــائظ والنهـــى وعـــز ببطحـــاء المشـــاعر واف

ولكن أبا لهب لم يعر أبا طالب أذناً فسدر في غيّه فتبت يداه.

وقال أبو طالب يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم وقيامه دونه (٦١/١٤):

أرقـــت وقـــد تصـــوبت النجـــوم وبـــت ولا تســـالمك الهمـــوم
لظلـــم عشـــيرة ظلمـــوا وعقـــوا وغـــب عقـــوقهم لهـــمُ وضـــيم
هـــمُ انتهكـــوا المحـــارم مـــن أخـــيهم وكـــل فعـــالهم دنـــس ذمـــيم
ورامـــوا خطـــةً جـــوراً وظلمـــا وبعـــض القـــول ذو جنـــف ملـــيم
لتخـــرج هاشمـــاً فتكـــون منهـــا بلاقـــع بطـــن مكـــة فـــالحطيم
فمهـــلاً قومنـــا لا تركبونـــا بمظلمـــة لهـــا خطـــب جســـيم
فينـــدم بعضـــكم ويُـــذلُّ بعـــض ولـــيس بمفلـــحٍ أبـــداً ظلـــوم
أرادوا قتـــل أحمـــد زاعميـــه ولـــيس بقتلـــه مـــنهم زعـــيم

ودون محمـــــدٍ منـــــا نـــــديٌّ   هـــم العـــرنين والعضـــو الصـــميم

ومن ذلك قوله (١٤/٦١-٦٢):

وقـــالوا لأحمـــد أنـــت أمـــرؤٌ   خلـوف الحـديث، ضـعيف السـبب
وإن كـــان أحمـــد قـــد جـــاءهم   بصـــدقٍ ولم يـــأتهم بالكـــذب
فأنـــا ومـــن حـــج مـــن راكـــب   وكعبـــة مكـــة ذات الحجـــب
تنـــالون أحمـــد أو تصـــطلوا   ظبـــات الرمـــاح وحـــدَّ القضـــب
ونغترفـــوا بـــين أبيـــاتكم   صـــدور العـــوالي وخـــيلاً شُـــزُب
تـــراهن مـــن بـــين ضـــافٍ السـبيب   قصـــير الحـــزام طويـــل اللبـــب
عليهـــا صـــناديد مـــن هاشـــم   هـــم الأنجبـــون مـــع المنتجـــب

ومن شعر أبي طالب قوله (١٤/٦٢-٦٣):

ألا أبلغـــا عـــني لؤيـــاً رســـالة   بحـــقٍ ومـــا تغـــني رســـالة مرســـل
بـــني عمنـــا الأدنـــين فيمـــا يخصـــهم   وإخواننـــا مـــن عبـــد شمـــس ونوفـــل
أظـــاهرتمُ قومـــاً علينـــا ســـفاهةً   وأمـــراً غويـــاً مـــن غـــواة وجهّـــل
يقولـــون لـــو إنـــا قتلنـــا محمـــداً   أقـــرّت نـــواحي هاشـــم بالتـــذلل
كـــذبتم ورب الهـــدى ترمـــى نحـــوره   بمكـــة والبيـــت العتيـــق المقبـــل
تنالونـــه، أوتصـــطلوا دون نيلـــه   صـــوارم تغـــري كـــل عضـــو ومفصـــل
فمهـــلاً ولمـــا تنـــتج الحـــرب بكرهـــا   نجيـــل تمـــام أو بـــآخر معجـــل
وتلقـــوا ربيـــع الأبطحـــين محمـــداً   علـــى ربـــوة في رأس عنقـــاء عيطـــل

وتـــأوي إليـــه هاشـــم أن هاشمـــاً　　عـــرانين كعـــب آخـــر بعـــد أول
فـــأن كنـــتم ترجـــون قتـــل محمـــدٍ　　فرومـــوا بمـــا جمعـــتم قتـــل يـــذبل
فأنـــا ســـنحميه بكـــل طمـــرّةٍ　　وذي مبعـــة نهـــدا المراكـــل هيكـــل
وكـــل رديـــني ظمـــاء كعوبـــه　　وعضـــب كأيمـــاض الغمامـــةِ مفصـــل

وقال علي بن يحيى البطريق (رحمه الله) لولا خاصة النبوة وسرها لما كان مثل أبي طالب يمدح ابن أخيه محمداً، وهو شاب قد رُبّي في حجره، وهو يتيمه ومكفوله، وجارٍ مجرى أولاده بمثل قوله (٦٣/١٤):

وأبـــيض يستســـقي الغمـــام بوجهـــه　　ثمـــال اليتـــامى عصـــمة للأرامـــل
يطيـــف بـــه الهـــلاك مـــن آل هاشـــم　　فهـــم عنـــده في نعمـــة وفواضـــل

ومن فرط حب أبي طالب محمداً صلى الله عليه وآله وسلّم كان يخاف عليه البيات إذا عرف مضجعه يقيمه ليلاً من منامه، ويضجع ابنه علياً مكانه، فقال له علي ليلة:

يا أبتِ، إني مقتول، فقال له (٦٤/١٤):

اصـــبرن يـــا بـــني فالصـــبر أهجـــى　　كـــل حـــيٍ مصـــيره لشـــعوب
قـــدر الله والـــبلاء شـــديد　　لفـــداء الحبيـــب وابـــن الحبيـــب
لفـــداء الأغـــر ذي الحـــب الثـــا　　قـــب والبـــاع والكـــريم النجيـــب
إن تصـــبك المنـــون فالنبـــل تـــبرى　　فمصـــيب منهـــا وغـــير مصـــيب
كـــل حـــي وأن تملّـــى بعمـــرٍ　　أخـــذ مـــن مـــذاقها بنصـــيب

فأجابه علي عليه السلام فقال له (١٤/٦٤):

أتــأمرني بالصــبر في نصــر أحمــدٍ وتعلــم أنـــي لم أزل لـــك طائعـــاً
ســألقى لوجــه الله في نصــر أحمــد نــبي الهــدى المحمــود طفــلاً ويافعــا

وأشعار أبي طالب كانت تدل على أنه كـان مسلماً، ولا فـرق بـين الكـلام المنظوم والمنثور إذا نظمنا إقراراً بالإسلام فمن ذلك أقوله (١٤/٧١-٧٢):

يرجّـــون منـــا خطـــة دون نيلـــها ضـــراب وطعـــن بالوشـــيج المقـــوم
كـــذبتم وبيـــت الله حتـــى تفلقَّـــوا جمـــاجم تلقـــى بـــالحطيم وزمـــزم
وتقطـــع أرحـــام وتنســـى حليلـــة حلـيلاً، ويُغشـى محـرم بعـد محـرم
علـى مـا مضـى مـن مقـتكم وعقـوقكم وغشـــينكم في أمـــركم كـــل مـــأثم
وظلـم نـبي جـاء يـدعوا إلى الهـدى وأمـرٌ أتـى مـن عنـد ذي العـرش قـيمٍ
فـــلا تحســـبونا مســـلميه فمثلـــه إذا كـــان في قـــوم فلـــيس بمســـلم

ومـن شـعر أبي طالـب في أمـر الصـحيفة الـتي كتبتهـا قـريش قـي قطيعـة بـني هاشم، وعلقتها على الكعبة قوله (١٤/٧٢):

ألا أبلغـــا عـــني علـــى ذات بينهـــا لؤيّـــاً وخصـــا مـــن لـــؤي بـــني كعـــب
ألم تعلمـــوا أنّـــا وجـــدنا محمـــداً رســولاً كموســى خــط في أول الكتــب
وأن عليـــــه في العبـــــاد محبـــــةً ولا حيــف فــيمن خصــه الله بالحــب
وأن الـــــذي رقّشـــــتمُ فيَ كتـــــابكم يكـــون لكـــم يومـــاً كراغيـــة الســـقم
أفيقـوا أفيقـوا قبـل أن تُحفـر الزُبـى ويصـبح مـن لم يجـنِ ذنبـاً كـذي ذنـب

ولا تتبعـوا أمـر الغـوات وتقطعـوا ... أواصـرنا بعـد المـودة والقـرب
وتسـتجلبوا حربـاً عوانـاً وربمـا ... أمـر علـى مـن ذاقـه حلـب الحـرب
فلسـنا وبيـت الله نسـلم أحمـداً ... لِعـزَاء مـن عضـن الزمـان ولا كـرب
ولمـا تـبن منـا ومـنكم سـوالف ... وأيـدٍ أثـرَّت بالمهنـدةِ الشـهب
بمعـترك ضَـيِّق تربـى قِصَـدَ القنـا ... بـه والضـباع العـرج تعكـف كالشـرب
كـأن مجـال الخيـل في حجراتـه ... وغمغمـة الأبطـال معركـة الحـرب
ألـيس أبونـا هاشـم شـد أزره ... وأوصـى بنيـه بالطعـان وبالضـرب
ولسـنا نمَـلَّ الحـرب حتـى تَملّنـا ... ولا نشـتكي ممـا ينـوب عـن النكـب
ولكننـا أهـل الحفـائظ والنهـى ... إذا طـار أرواح الكمـاة مـن الرعـب

ومن ذلك قوله (٧٣/١٤):

فـلا تسـفهوا أحلامكـم في محمـدٍ ... ولا تتبعـوا أمـر الغـوات الأشـائم
تمنيـتم أن تقتلـوه وإنمـا ... أمـانيكم هـذي كـأحلام نـائم
وإنكـم والله لا تقتلونـه ... ولمـا تـروا قطـع اللحـى والجمـاجم
زعمـتم بأنّـا مسـلّمون محمـداً ... ولمـا نقـاذف دونـه ونـزاحم
مـن القـوم مفضـال أبـيّ علـى العـدى ... تمكـن في الفـرعين مـن آل هاشـم
أمـين حبيـب في العبـاد مسـوّم ... بخـاتم رب قـاهر في الخـواتم
يـرى النـاس برهانـاً عليـه وهيبـة ... ومـا جاهـل في قومـه مثـل عـالم
نـبي أتـاه الـوحي مـن عنـد ربـه ... ومـن قـال لا يقـرع بهـا سـن نـادم

ومن ذلك قوله – وقد غضب لعثمان بن مظغون الجمحي، حين عذبته قريش ونالت منه (١٤/٧٣-٧٤):

أمن تذكر دهرٍ غير مأمون   أصبحت مكتئباً تبكي كمحزون
أم من تذكر أقوام ذوي سفهٍ   يغشون بالظلم من يدعو إلى الدين
ألا يرون – إذن الله جمعهمُ   إنّا غضبنا لعثمان بن مظغون
ونمنع الضيم أن يبغي مضامتنا   بكل مطرّدٍ في الكف مسنون
ومرهفات كأن اللح خالطها   يشفى بها الداء من هام المجانين
حتى تغرَّ رجال لا حلوم لها   بعد الصعوبة بالأسماع واللين
أو تؤمنوا بكتاب منزل عجب   على نبي كموسى أو كذي النون
يأتي بأمر جليٍ غير ذي عوج   كما تبين في آيات ياسين

وقد جاء في الخبر أن أبا جهل بن هشام جاء مرة إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلَّم وهو ساجد وبيده حجر يريد أن يرضخ به رأسه، فلصق الحجر بكفِّه فلم يستطيع ما أراد فقال أبو طالب في ذلك في جملة أبيات (١٤/٧٤):

أفيقوا بني عمنا وانتهوا   عن الغي من بعد ذا المنطق
وإلا فأني – إذن – خائف   بوائق في داركم تلتقي
تكونوا لغيركم عبرة   ورب المغارب والمشرق
كما ذاق من كان من قبلكم   ثمود وعاد وماذا بقي

ومنها:

وأعجـــب مــــن ذاك في أمـــركم | عجائـــب في الحجـــر الملصـــق
بكـــف الـــذي قـــام مـــن حينـــه | إلى الصـــابر الصـــادق المتقـــي
فأثبتـــــــه اللّه في كفــــــــه | علـــى رغمـــه الخـــائن الأحمـــق

وقد اشتهر عن عبد الله المأمون (رحمه الله) أنه كان يقول أسلم أبو طالب – والله – بقوله:

نصـــرت الرســـول رســـول المليـــك | ببـــيض تـــلالا كلمـــع الـــبروق
أذب وأحمــــي رســـــول الإلــــه | حمايـــة حـــامٍ عليـــه شـــفيق
ومـــــا أن أدبُّ لأعدائـــــــه | دبيـــب البكـــار حـــذار الفنيـــق
ولكـــن أزيـــر لهـــم ســـامياً | كمـــا زار ليـــث بغيـــلٍ مضـــيق

وقد جاء في السيرة أن عمرو بن العاص لما خرج إلى بلاد الحبشة ليكيد جعفر بن أبي طالب وأصحابه عند النجاشي قال:

تقـــول ابـــنتي أيـــن أيـــن الرحيـــل | ومـــا الـــبين مـــني بمســـتنكر
فقلـــت: دعـــيني فـــإني امـــرؤ | أريـــد النجاشـــي في جعفـــر
لاكويـــــةُ عنـــــده كيّـــــةً | أقـــيم بهـــا غـــوة الأصـــعر
ولـــن أنـــثني عـــن بـــني هاشـــم | بمـــا اسـطعت في الغيـب والمحضـر
وعـــن عائـــب الـــلات في قولـــه | ولـــولا رضـــى الـــلات لم تمطـــر
وإنـــي لأثـــني قريشـــاً لـــه | وإن كـــان كالـــذهب الأحمـــر

الله عليه وسلَّم بمكة يقول له:

- والله أني لأشنؤك.

وفيه انزل: " أن شانئك هو الأبتر".

فكتب أبو طالب إلى النجاشي شعراً يحرضه فيه على إكرام جعفر وأصحابه والإعراض عما يقوله عمرو فيه وفيهم، من جملته (١٤/٧٥):

ألا ليت شعري كيف في النارجعفر وعمرو وأعداء النبي الأقارب

وهل نال إحسان النجاشيّ جعفراً وأصحابه أم عاق عن ذاك شاغب

وروي عن علي عليه السلام أنه قال:

قال لي أبي: يا بني الزم ابن عمك، فإنك تسلم من كل بأس عاجل أو آجل.

ثم قال (١٤/٧٥):

إن الوثيقة في لزوم محمدٍ فاشدُدْ بصحبته على أيديكا

ومن شعره المناسب لهذا المعنى (١٤/٧٦):

إن علياً وجعفراً ثقتي عند ملِّمِ الزمان والنُوَب

لا تخذلا وانصرا ابن عمكما أخي لأُمي من بينهم وأبي

والله لا أخذل النبي ولا يخذله من بنيَّ ذو حسب

ومن شعر أبي طالب يخاطب أخاه حمزة، وكان يكنى أبا يعلى (١٤/٧٧):

فصبراً أبا يعلى على دين أحمدٍ وكن مظهراً للدين وفقت صابرا

وحُط من أتى بالحق من عند ربه بصدق وحزم لا تكن حمز كافرا

فقد سرني إذ قلت أنك مؤمن ... فكن لرسول الله في الله ناصرا
وبادٍ قريشاً بالذي قد أتيته ... جهاراً وقل ما كان أحمد كافرا

ومن شعره المشهور (١٤/٧٧):

أنت النبي محمد ... قرمٌ أعزَّ مسوَّد
لمسودين أكارمٍ ... طابوا وطاب المولد
نعم الأرومة أصلها ... عمرو الخضمُّ الأوحد
هشم الربيكة في الجفا ... ن وعيش مكة أنكد
فجرت بذلك سنّة ... فيها الخبيزة تثرد
ولنا السقاية للحجيـ ... ـج بها يحاث العُنجد
والمأْ زمان وما حوت ... عرفاتها والمسجد
أنى تضام ولم أمت ... وأنا الشجاع العِريد
وبطاح مكة لا يرى ... فيها نجيع أسود
وبنو أبيك كأنهم ... أسد العرين تَوقَّد
ولقد عهدتك صادقاً ... في القول لا تتزيد
ما زلت تنطق بالصوا ... ب وأنت طفل أمرد

ومن شعره المشهور أيضاً قوله يخاطب محمداً، ويُسَكِّنُ جأشه ويأمر بإظهار الدعوة (١٤/٧٧-٧٨):

لا يمنعنك من حق تقوم به ... أيدٍ تصول ولا سلقٌ بأصوات

فــإن كفــك كفــي إن بليــت بهــم ودون نفســك نفســي في الملمــات

ومن ذلك قوله، ويقال أنها لطالب بن أبي طالب (١٤/٧٨):

إذا قيــل مــن خــير الــورى قبــيلاً وأكــرمهم أســرة

أنــاف لعبــد منــاف أبٌ وفضــله هاشــم الغــرة

لقــد حــل مجــد بــني هاشــم مكــان الــذمائم والنــرّة

وخــير بــني هاشــم أحمــد رســول الإلــه علــى فــترة

ومن ذلك قوله (١٤/٧٨):

لقــد أكــرم الله الــنبي محمــداً فــأكرم خلــق الله في النــاس أحمــد

وشــق لــه مــن أسمــه ليجلّــه فــذو العــرش محمــود وهــذا محمــد

وقوله أيضاً، وقد يروى لعلي عليه السلام (١٤/٧٨):

يــا شــاهد الله علــيَّ فاشــهد أنــيٍّ علــى ديــن الــنبي أحمــد

من ضل في الدين فأني مهتدٍ

وقوله من قصيدة طويلة (١٤/٧٩):

أعــوذ بــرب البيــت مــن كــل طــاعنٍ علينــا بســوءٍ أو يلــوح بباطــل

ومــن فــاجرٍ يفتــا بنــا بمغيبــة ومــن ملحــقٍ بالــدين مــا لم نحــاول

كــذبتم وبيــت الله يبــزى محمــدٌ ولمــا نطــاعن دونــه ونناضــل

وننصــره حتــى نُصــرّع دونــه ونــذهل عــن أبنائنــا والحلائــل

وحتــى نــرى ذا الــردع يركــب روعــه مــن الطعــن فعــل النكــب المتحامــل

وينهض قوم في الحديث إليكم — نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
وأنّا وبيت اللّه من جدَّ جدنا — لتلتبسن أسيافنا بالأماثل
بكل فتىً مثل الشهاب سميدعٍ — أخي ثقة عند الحفيضة باسل
وما ترك قوم لا أبا لك سيداً — يحوط الذمار غير نكس مواكل
وأبيض يستسقي الغمام بوجهه — ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاّك من آل هاشم — فهم عنده في نعمةٍ وفواضل
وميزان صدق لا يخيس شعيرة — ووزّان صدق وزنه غير عائل
ألم تعلموا أن ابننا لا مكذبٌ — لدينا ولا يعبا بقول إلا باطل
لعمري لقد كلِّفت وجداً بأحمد — وأحببته حب الحبيب المواصل
وجُدتُ بنفسي دونه فحميته — ودافعت عنه بالذرى والكواهل
فلا زال للدنيا جمالاً لأهلها — وشيناً لمن عادى وزين المحافل
وايدّه رب العباد بنصره — وأظهر ديناً حقه غير باطل

وقد روي أن أعرابياً جاء إلى الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم في عام جدب فقال:

أتيناك يا رسول الله ولم يبق لنا صبي يرتضع ولا شارفٌ يجتر ثم أنشده (١٤/٨٠-٨١):

أتيناك والعذراء تدمي لبانها — وقد شغلت أم الرضيع عن الطفل
وألقى بكفيه الفتى لاستكانةٍ — من الجوع حتى ما يُمرُّ ولا يُحلي

ولا شــيء ممــا يأكــل النــاس عنــدنا   ســوى الحنظـل العـامي والعِلِهِز الفسـل
ولـــيس لنـــا إلا إليـــك فرارنـــا   وأيــن فــرار النــاس إلا إلى الرســل

فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم يجر رداءه حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

((اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً، مريئاً هنيئاً، مريعاً سحاً سجالاً، عذقاً طبقاً قاطباً دائماً دراً تحيي به الأرض، وتنبت به الزرع، وتدر به الضرع، وأجعله سقياً نافعاً عاجلاً غير رائث، فوالله مارد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم يده إلى نحره حتى ألقت السماء أوراقها، وجاء الناس يضجون:

العذق العذق يا رسول الله!

فقال:

- اللهم حوالينا ولا علينا.

- فانجاب السحاب عن المدينة حتى استدار حولها كالإكليل، فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه ثم قال.

- لله در أبي طالب!لو كان حياً لغَرّت عينه، من ينشدنا قوله؟

فقام عليٌ فقال:

- يا رسول الله لعلك أردت:

وابيض يستسقي الغمام بوجهه.

قال:

- أجل.

فأنشد أبياتاً من هذه القصيدة ورسول الله يستغفر لأبي طالب على المنبر.

ثم قام رجل من كنانة، فأنشده (٨١/١٤):

لـك الحمـد والحمـد ممـن شـكر ... سـقينا بوجـه الـنبي المطـر
دعـا اللّه خالقـه دعـوة ... إليـه، وأشـخِص منـه البصـر
فمـا كـان إلا كمـا سـاعةٍ ... أو اقصـر حتـى رأينـا الـدرر
دقـاق العـزالى وجـم البعـاق ... أغـاث بـه اللّه عليـا مضـر
فكـان كمـا قالـه عمّـه ... أبـو طالـب ذو رواءٍ غـرر
بـه يسّـر اللّه صـوب الغمـام ... فهـذا العيـان وذاك الخـير
فمـن يشـكر اللّه يلـق المزيـد ... ومـن يكفـر اللّه يلـق الغـير

فقال رسول الله:

- إن يكن شاعراً أحسن.

وكتب بن أبي الحديد على ظهر كتاب أهدي إليه وطلب منه تقريظه، والكتاب عن إسلام أبي طالب، كتب عليه هذه الأبيات (٨٣/١٤-٨٤):

ولـولا أبـو طالـب وابنـه ... لمـا مثـل الـدين شخصـاً فقامـا
فـذاك بمكـة آوى فحـامى ... وهـذا بيثـرب جـس الحمامـا
تكفـل عبـد منـافٍ بـأمرٍ ... وآوى فكـان علـى تمامـا
فقـل في ثـبير قضـى بعـدما ... قضـى مـا قضـاه وأبقـى شمامـا

فللـــــــه ذو فاتحــــــاً للهــــــدى ولله ذا للمعــــــــالي ختامــــــا
ومـــا ضـــرَّ مجـــد أبـــي طالـــب جهـــول لغـــا أو بصـــير تعـــامى
كمـــا لا يضـــر أيـــاه الصـــبا ح مـــن ظـــن ضـــوء النهـــار ظلامـــا

وقال أبو طالب لمطعم بن عدي بن نوفل في أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم لما تمالأت قريش عليه (١٥/٢٨٤):

جـزى الله عنـا عبـد شمـس ونـوفلاً جـزاء مسـيء عـاجلاً غـير آجـل
أمطعـم أمـا سـامني القـوم خطـةً فـإني متـى أوكـل فلسـت بأكمـل
أمطعـم لم أخـذلك في يـوم شـدةٍ ولا مشـهد عنـد الأمـور الجلائـل

ووفد الجارود على النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم في سنة تسع، وقيل في سنة عشر.... وكان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه فقال (١٨/٥٥):

شـهدت بـأن الله حـق وسـامحت بنـات فـؤادي بالشـهادة والـنهض
فـأبلغ رسـول الله مـني رسـالة فـإني حنيـف حيـث كنـت مـن الأرض

ولقوله عليه السلام من كتاب له إلى معاوية جواباً على كتابه (١٧/٢٥١):

((وقريب ما أشبهت من أعمام وأخوال؟ حملتهم الشقاوة وتمني الباطل، على الجحود بمحمد صلى الله عليه وآله وسلَّم فصرعوا مصارعهم حيث عَلمتَ، لم يدافعوا عظيماً ولم يمنعوا حريصاً، بوقع سيوف ما خلا منها الوغى، ولم تماشها الهوينى)) استشهد بالرواية التي تقول (١٧/٢٥٨):

بعد صلح الحديبية قال أنس بن زُنيم الدؤلي /من بني كنانة /يهجو محمداً

صلى الله عليه وآله وسلَّم فضربه غلام من خزاعة فعبلوا منهم عشرين رجلاً، فشخص قوم من خزاعة إلى المدينة مستصرخين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم فدخلوا عليه وهو في المسجد فقام عمرو بن سالم الخزاعي فانشد: -

لاهُـــمَّ أنـــي ناشـــد محمـــداً ... خلـــف أبينـــا وأبيـــه الأتلـــدا

لكنـــت والـــداً وكنـــا ولـــدا ... ثَمَّـــت أســـلمنا ولم ننـــزع يـــدا

أن قريشـــاً أخلفـــوك الموعـــدا ... ونقضـــوا ميثاقـــك المؤكـــدا

هـــم بيتونـــا بـــالوتير هجّـــدا ... نتلـــوا القـــرآن ركعـــاً وســـجّدا

وزعمـــوا أن لســـت تـــدعو أحـــدا ... وهـــم أذل وأقـــل عـــددا

فأنصـــر هـــداك الله نصـــراً أُيّـــدا ... وأدعُ عبـــاد الله يـــاتوا مـــددا

في فيلـــق كـــالبحر يجـــري مزبـــدا ... فـــيهم رســـول الله قـــد تجـــردا

❖ قوم لقوم من قروم أصيـــدا ❖

وبالرواية التي تقول (١٧/٢٦٧):

((عندما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم من المدينة إلى مكة عام الفتح جاء كعب بن مالك ليعلم أي جهة يقصد؟ فبرك بين يديه على ركبتيه ثم أنشد:

قضـــينا مـــن تهامـــة كـــل نحـــبٍ ... وخيـــبر ثـــم أحمينـــا الســـيوفا

فســـائلها فلـــو نطقـــت لقالـــت ... قواضـــبهن دوســـاً أو ثقيفـــا

فلســـت بحاضـــر إن لم تردهـــا ... بســـاحة داركـــم منهـــا ألوُفـــا

فننتـــــزع الخيـــــام بـــــبطن وجٍّ ونـــــترك دوركـــم منهـــا حُلُوفـــا

وبالرواية التي تقول (١٧/٢٧٤):

((عندما دخلت جيوش المسلمين مكة /عام الفتح/ وجعلت الخيل تعج بذي طوى كل وجه، ثم ثابت وسكنت، والتفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم إلى أسيد بن حُضير فقال: كيف قال حسان بن ثابت؟

فأنشده:

عـــــدمنا خيلنـــا أن لم تردهـــا تـــثير النقـــع موعـــدها كـــداء

تظـــــل جيادنـــــا متمطـــــراتٍ تُلَطِّمُهُـــــنَ بـــــالخُمُرِ النســـــاءُ

وبالرواية التي تقول (١٧/٢٧٦):

((لما دخل جيش الرسول مكة / في عام الفتح/قاتل من قاتل وانهزم من انهزم وممن انهزموا حماس بن خالد الدؤلي حتى أتى بيته وأغلق الباب خلفه، ولما صارت أمرأته تلومه وتسخر منه قال لها منشداً:

إنـــك لـــو شـــهدتنا بالخندمـــة إذ فـــرَّ صـــفوان وفـــرَّ عكرمـــة

وبـــو يزيـــد كـــالعجوز المؤتمـــة وضـــربنا هـــم بالســـيوف المسـلمة

يقطعـــن كـــل ســـاعد وجمجمـــة ضـــرباً فـــلا يســـمع إلا غمغمـــة

لهـــم زئـــير خلفنـــا وحمحمـــة لم تنطقـــي في اللـــوم أدنـــى كلمـــة

وبالرواية التي تقول (١٧/٢٨٢-٢٨٣):

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم قد هدر دم أنس بن زُنيم لأنه

هجاه بعد صلح الحديبية وقبل أن يفتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم مكة، قال شعراً يعتذر فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم فعفا عنه. ومما قال أنس بن زُنيم:

(و) أنت الذي تُهدي معدٌّ بأمره ... بك الله يهديها وقال لها أرشدي
فما حملت من ناقة فوق كُورها ... أبرَّ واوفى ذمة من محمد
أحث على خير وأوسع نائلاً ... إذا راح يهتز اهتزاز المهند
وأكسُ لبرٍّ الخال قبل ارتدائه ... وأعطى لرأس السابق المتجرد
تعلم رسول الله أنك مدركي ... وأن وعيداً منك كالأخذ باليد
تعلم رسول الله أنك قادر ... على كل حي من تهام ومنجد
ونبيٍّ رسول الله أني هجوته ... فلا رفعت سوطي إليَّ يدي
سوى أنني قد قلت يا ويح فتية ... أصيبوا بنحس يوم طلق وأسعد
أصابهم من لم يكن لدمائهم ... كفاء فعزت عبرتي وتلددي
ذؤيباً وكُلثوماً وسلمى تتابعوا ... جميعاً فالاّ تدمع العين أكمد
على أن سلمى ليس منهم كمثله ... وأخوته وهل ملوك كأعبد؟
فإني لا عرضاً خرقت ولا دماً ... هرقت ففكر عالم الحق وأقصدِ

ويقول عبد الله بن الزعبرى الذي اعتذر به إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلَّم حين قدم عليه (١٨/١٧):

منع الرقاد بلابل وهموم ... فالليل ممتد الرواق بهيم

ممـــا أتـــاني أن أحمــــد لامــــني فيــــه، فبـــت كـــأنني محمــــوم
يــا خــير مــن حملــت علــى أوصــالها عيرانـــة ســـرُحُ اليـــدين ســـعوم
إنـــي لمعتـــذر إليـــك مـــن الـــذي أســـديت إذ أنـــا في الضـــلال أهـــيم
أيـــان تـــأمرني بـــأغوى خطـــة ســـهم، وتـــأمرني بـــه مخـــزوم
وأمـــد أســـباب الـــروى ويقـــودني أمـــر الغـــوات وأمـــرهم مشـــؤوم
فـــاليوم آمـــن بـــالنبي محمـــد قلـــبي، ومخطـــئ هـــذه محـــروم
مضـــت العـــداوة وانقضـــت أســـبابها ودعـــت أواصـــل بيننـــا وحلـــوم
فـــاغفر فـــدى لـــك والـــديَّ كلاهمـــا زللـــي، فأنـــك راحـــم مرحـــوم
وعليـــك مـــن علـــم المليـــك علامـــة نـــور أغـــر وخـــاتم مختـــوم
أعطـــاك بعـــد محبـــة برهانـــه شـــرفاً وبرهـــان الإلـــه عظـــيم
ولقـــد شـــهدت بـــأن دينـــك صـــادق بـــرٌّ وشـــأنك في العبـــاد جســـيم
والله يشـــهد أن أحمـــد مصـــطفى متقبّـــل في الصـــالحين كـــريم
فـــرع عـــلاه بنانـــه مـــن هاشـــم دوح تمكـــن في العـــلا وأروم
ألا مـــن لهـــم آخـــر الليـــل معـــتم طـــواني، وأخـــرى الـــنجم لمـــا تفحـــم

الضوء الثاني

بيعة السقيفة

من خطبة له عليه السلام هي الخطبة المعروفة بـ (الشقشقية) قوله:

((أما والله لقد تقمصها أبن أبي قحافة وأنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى؛ ينحدر عني السيل، ولا يرقى إليَّ الطير، فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً، وطفقت أرتئي أن أصول بيد جذّاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه؛ فرأيت أن أصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا، أرى تراثي نهبا)).

فلقوله: "لقد تقمصّها " استشهد ابن أبي الحديد بقول حاتم (١/١٥١-١٥٤):

أماويّ ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

وقول النابغة:

تسربل سربالاً من النصر وارتدى ... عليه بغضب في الكريهة قاصر

ولقوله عليه السلام: "ينحدر عني السيل" استشهد بقول الهذلي:

وعيطاء يكثر فيها الذليل ... وينحدر السيل عنها انحدارا

ولقوله عليه السلام ((ولا يرقى إليَّ الطير)) استشهد بقول المتنبي :

فوق السماء وفوق ما طلبوا　　فإذا أرادوا غاية نزلوا

وقول حبيب :

مكارم سجّت في علوٍّ كأنما　　تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

ولقوله عليه السلام " أن محلي منها محل القطب من الرحا "

استشهد بقول جرير بن عطية :

على قلاص ومثل خيطان السلم　　قد طويت بطونها على الأدم

بعد انفضاج البدن واللحم الزِّيَم　　إذا قطعن علماً بدا علم

فهن بحثاً كمضلات الحذم　　حتى انخناها إلى باب الحكم

خليفة الحجاج غير المتهم　　في سرة المجد وبحبوح الكرم

وبقول أمية بن أبي الصلت لعبد الله بن جدعان : -

فحللت منها بالبطاح　　وحلّ غيرك بالظواهر

ولما كان الإمام علي عليه السلام وبعض بني هاشم منشغلين بأعداد جهاز وغسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم بعد أن رحل إلى اللطيف الخبير، قال العباس للأمام : امدد يدك أبايعك فيقول الناس : عم رسول الله بايع أبن عم رسول الله، فلا يختلف عليك اثنان فقال له : أيطمع - يا عم - فيها طامع غيري؟

قال : ستعلم.

فلما أن جاءهما الأخبار بان الأنصار أقعدت سعداً لتبايعه، وأن عمراً جاء

بابي بكر فبايعه، وسبق الأنصار بالبيعة، فأنشد العباس قول دريد (١/١٦١):

أمـــرتهم أمـــري بمنعـــرج اللـــوى فلـم يسـتبينوا النصـح إلا ضحى الغـد

ومن لم يبايعوا أبا بكر، سعد بن عبادة، رئيس الخزرج، وهو الذي حاولت الأنصار أقامته في الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم ولم يبايع أبا بكر حين بويع، وخرج إلى حوران، فمات بها، وقيل قتلته الجن لأنه بال قائماً في الصحراء ليلاً، ورووا بيتين من شعر، قيل أنهما سمعا ليلة قتله، ولم يُرَ قائلهما:

نحـــن قتلنـــا ســـيد الـــ خـــزرج ســـعد بـــن عبـــادة

ورمينـــــــاه بســـــــهمين فلـــم نخطـــــيء فـــؤاده

ويقول قوم: إن أمير الشام - يومئذ - كمن له من رماة ليلاً، وهو ضاج إلى الصحراء بسهمين، فقتله لخروجه عن طاعة الأمام، وقد قال بعض المتأخرين في ذلك (١٠/١١١):

يقولــون ســعد شــكّت الجــن قتلــه ألا ربمــا صــححت ذينــك بالغــدر

ومــا ذنــب ســعد أنــه بــال قائمــا ولكــن ســعداً لم يبــايع أبــا بكــر

وقــد صــبرت مــن لــذة العــيش أنفــسٌ ومـا صـبرت عـن لـذة النهـى والأمـر

ولما بايع بشير بن سعد أبا بكر، وأزدحم الناس على أبي بكر فبايعوه، مرَّ أبو سفيان بن حرب بالبيت الذي فيه عليٌّ بنِ أبي طالب عليه السلام فوقف فانشد:

بـني هاشـم لا تطمعـوا النـاس فـيكمُ ولاســيما تــيم أبــن مــرّة أو عــديّ

فمـــا الأمـــر إلا فـــيكم والـــيكمُ ولـــيس لهـــا إلا أبـــو حســـن علـــي

أبــا حســن فأشــدد بهــا كــف حــازمٍ   فانــك بــالأمر الــذي يرتجــى ملــي

فلما كان من الغد قام أبو بكر فخطب الناس وبعد انتهائه من خطبته قال أبن أبي عبرة القريشي (٥/٢٠-٢١): -

شـــكر لمـــن هـــو بالثنـــاء حقيـــق   ذهـــب اللجـــاح وبويـــع الصـــدِّيق

مـــن بعـــد مـــا زلـــت بســـعدٍ نعلـــه   ورجـــا رجـــاءً دونـــه الضـــيوٌّق

حفـت بــه الأنصــار عاصِــبَ رأســه   فاتـــاهم الصـــديق والفـــاروق

وأبـــو عبيـــدة والـــذين الـــيهمُ   نفـــس المؤمـــل للقـــاء تتـــوق

كنـــا نقـــول لهـــا: علـــي والرضـــا   عمـــر وأولاهـــم بـــذاك عتيـــق

فـــدعت قـــريش باســـمه فأجابهـــا   أن المنـــوّه بأســـمه الموثـــوق

قـــل لـــلاولى طلبـــوا الخلافـــة زلـــة   لم يخـــطُ مثـــل خطـــاهمُ مخلـــوق

أن الخلافـــة في قـــريش مـــا لكـــم   فيهـــا - ورب محمـــد- معـــروق

وقال أحد ولد أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم شعراً (٥/٢١): -

مـا كنـت أحسـب أن الأمـر منصـرف   عـن هاشـم ثـم منهـا عـن أبـي حسـن

ألـــيس أول مـــن صـــلى لقبلـــتكم   وأعلـم النـاس بـالقرآن والسـنن

وأقــرب النــاس عهــداً بــالنبي ومــن   جبريـل عـون لـه بالغسـل والكفـن

مـــا فيـــه مـــا فـــيهم لايمـــترون بـــه   ولـيس في القـوم مـا فيـه مـن الحسـن

مـــاذا الـــذي ردهـــم فيـــه فتعلمـــه   هـا ان ذا غبننـا مـن أعظـم الغـبن

وخطب خالد بن الوليد، وكان شيعة لأبي بكر، ومن المنحرفين عن علي:

فاشاد بابي بكر فعجب الناس من كلامه، ومدحه حَزن بن أبي وهب المخزومي، وهو جد سعيد بن المسيب الفقيه وقال (٥/٢٢-٢٣): -

وقامت رجال من قريش كثيرة ... فلم يك منهم في الرجال كخالد
ترقى فلم يزلق به صدر نعله ... وكفّ فلم يعرض لتلك الأوابد
فجاءبها غراء كالبدر ضوؤها ... فَسَيَّحَها في الحسن أم القلائد
أخالد لا تعدم لؤي بن غالب ... قيامك فيها عند قذف الجلامد
كساك الوليد بن المغيرة مجده ... وعلمك الأشياخ ضرب القماصد
تقارع في الأسلام عن صلب دينه ... وفي الشرك عن أحساب جد ووالد
وكنت لمخزوم بن يقظة جُنَّة ... يَعُدُّك فيها ماجداً وابن ماجد
إذا ما سما في حربها ألف فارسٍ ... عدلت بألفٍ عند تلك الشدائد
ومن يك في الحرب المثيرة واحد ... فما أنت في الحرب العوان بواحد
إذا ناب أمر في قريش مُخلَّجٌ ... تشيب له رؤس العذارى النواهد
توليت منه ما يخاف وأن تغب ... يقولوا جميعاً: حظنا غير شاهد

لما بويع أبو بكر وأستقر أمره، ندم قوم كثيراً من الأنصار على بيعته، ولام بعضهم بعضاً، وذكروا علي بن أبي طالب عليه السلام وهتفوا باسمه وأنه في داره لم يخرج إليهم، وجزع لذلك المهاجرون وكثر في ذلك الكلام.

وكان اشد قريش نفر فيهم؛ وهم سهيل بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي، والحارث بن هشام، وعكرمة بن جهل المخزوميان، وهؤلاء أشراف قريش الذين

حاربوا النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم ثم دخلوا الإسلام، وكلهم موتور قد وتره الأنصار.

فلما اعتزلت الأنصار تجمع هؤلاء؛ قام سهيل بن عمرو فخطب في قريش ثم تبعه الحارث بن هشام ثم عكرمة بن جهل ثم أبو سفيان بن حرب وقد أنكر كل الخطباء حق الأنصار وعلي بن أبي طالب عليه السلام بالخلافة. وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك (٦/٢٣ـ٢٥): ـ

تنادى سهيل وأبن حرب وحارث — وعكرمة الثاني لنا أبي جهل
قتلنا أباه وانتزعنا سلاحه — فأصبح في البطحا أذل من النعل
فاما سهيل فاحتواه ابن دخشمٍ — أسيراً ذليلاً لا يمر ولا يحلي
وصخر بن حرب قد قتلنا رجاله — غداة لوا بدر فمرجله يغلي
وراكَضَنا تحت العجاجة حارث — على ظهر جرداءٍ كباسقة النخل
يقبلها طوراً وطوراً يحشها — ويعدلها بالنفس والمال والأهل
أولئك رهط من قريش تبايعوا — على خطةٍ ليست من الخطط الفُضل
وأعجب منهم قابلوا ذاك منهمُ — كأنا اشتملنا من قريش على ذُحل
وكلهم ثان عن الحق عطفه — يقولوا: اقتلوا الأنصار يا بئس من فعل
نصرنا وآوينا النبي ولم نخف — صروف الليالي والبلاء على رَجل
بذلنا لهم أنصاف مال أكفنا — كقسمة ايسار الجذور من الفضل
ومن بعد ذاك المال أنصاف دورنا — وكنا اناساً لانُعيّر بالبخل

ونحمي ذمار الحي وهو أبن مالك ونوقد نار الحرب بالحطب الجزل
فكان جزاء الفضل منا عليهمُ جهالتهم حمقاً وما ذاك بالعدل

فبلغ شعر حسان قريشاً، فغضبوا فأمروا أبن أبي عزّة شاعرهم أن يجيبه فقال (٦/٢٤-٢٥):

معشر الأنصار خافوا ربكم ... واستجيروا الله من شر الفتن
أنني أرهب حرباً لاقحاً يشرق المرضع فيها باللبن
جرَّها سعد وسعد فتنة ليت سعد بن عباد لم يكن
خلف برهوت خفياً شخصه بين بصرى ذي رعين وجدن
ليس ما قدَّر سعد كائناً ما جرى البحر وما دام حضن
ليس بالقاطع منا شعرةً كيف يرجى خير أمر لم يحن
ليس بالمدرك منها ابداً غير أضغاث أمانيِّ الوسن

ولما اجتمع جمهور الناس لأبي بكر أكرمت قريش معن بن عدي وعويم بن ساعدة وكان لهما فضل قديم في الإسلام؛ فاجتمعت الأنصار لهما في مجلس ودعوهما، فلما أَحضر أقبلت الأنصار عليهما فعيَّروهما بانطلاقهما إلى المهاجرين، وأكبروا فعلهما في ذلك، فتكلم معن وتكلم عويم فأشادا بقريش فوثبت عليهما الأنصار، فاغلظوا لهما، وفحشوا عليهما، فقال معن في ذلك (٦/٢٧-٢٨):

وقالت لي الأنصار أنك لم تصب فقلت أما لي في الكلام نصيب؟
فقالوا: بلى قل ما بدا لك راشداً فقلت: ومثلي بالجواب طبيب

تـــــركتكم والله لمــــا رأيــــتكم ... تيوســـاً لهـــا بالحســـرتين نبيـــب
تتـادون بـالأمر الـذي الـنجم دونـه ... الا كــل شــيء مــا ســواه قريــب
فقلـت لكـم قـول الشـفيق علـيكم ... وللقلــب مــن قــول الــبلاء وصــيب
دعـوا الـركض وأثنـوا مـن أعنـة بغـيكم ... ودبـــوا فســـير القاصـــدين دبيـــب
وخلـــوا قريشـــاً والأمـــور وبـــايعوا ... لمـــن بـــايعوه ترشـــدوا وتصـــيبوا
أراكـــم أخـــذتم حقكـــم بـــأكفكم ... ومـــا النـــاس إلا مخطـــئ ومصـــيب
ولمـــا أبيـــتم زُلّـــتُ عـــنكم إلـــيهم ... وكنـــت كـــأني يـــوم ذاك غريـــب
فـان كـان هـذا الأمـر ذنـبي إلـيكم ... فلـــي فـــيكم بعـــد الـــذنوب ذنـــوب
فـــلا تبعثـــوا مـــني الكـــلام فـــأنني ... إذا شـــئت يومـــاً شـــاعر وخطيـــب
وانـــي لحلـــوٌ تعتريـــني مـــرارة ... وملـــح أجـــاج تـــارة وشَـــروب
لكـل أمـريء عنـدي الـذي هـو أهلـه ... أفـــانين شـــتى والرجـــال ضـــروب

وقال عويم بن ساعدة في ذلك : –

وقالـت لـي الأنصـار أضـعاف قـولهم ... لمعـنٍ، وذاك القـول جهـل مـن الجهـل
فقلـــت: دعـــوني لا أبـــا لأبـــيكم ... فـأني أخـوكم صـاحب الخطـر الفصـل
أنـا صـاحب القـول الـذي تعرفونـه ... اقطـعٌ أنفـاس الرجـال علـى مهـل
فـان تسكتواأسكت وفي الصمت راحـة ... وأن تنطقـوا أصـمت مقـالتكم تبلـى
ومـا لمـت نفسـي في الخـلاف علـيكم ... وان كنـتم مسـتجمعين علـى عـذلي
أريـــد بـــذاك الله لاشـــيء غـــيره ... ومـا عنـد بـر النـاس مـن درج الفضـل

وما لي رحمٌ في قريش قريبة ... ولا دارها داري ولا اصلها أصلي
ولكنهم قوم علينا أئمة ... أدين لهم ما أنفذت قدمي نعلي
وكانوا أحق الناس أن تقنعوا به ... ويحتملوا من جاء في قوله مثلي
لأني أخف الناس فيما يسركم ... وفيما بسوءُ لا أُمِرُّ ولا أحلي

وقال فروة بن عمرو – وكان ممن تخلف عن بيعة أبي بكر، وكان ممن جاهد مع رسول الله، وكان سيداً وهو من أصحاب علي عليه السلام، وممن شهد معه يوم الجمل، وفي قوله هذا ذكر معناً وعويماً وعاتبهما على قولهما: –

"خلفنا وراءنا قوماً قد حلت دماءهم بفتنتهم " (٢٩/٦): –

قل لمعنٍ إذا جئته ... وذاك الذي شيخه ساعده
بان المقال الذي قلتما ... خفيف علينا سوى واحدة
مقالكم: أن من خلفنا ... مراض قلوبهم فاسدة
حلال الدماء على فتنة ... فيا بئسما ربّت الوالدة
فلا تأخذا قدر أثمانها ... ولم تستفيدا بها فائدة
لقد كذّب الله ما قلتما ... وقد يكذب الرائد الواعدة

وبعد أن أصلح الأنصار بين هذين الرجلين وبين أصحابهما، اجتمعت جماعة من قريش يوماً وفيهم ناس من الأنصار وأخلاط من المهاجرين، وذلك بعد انصراف الأنصار عن رأيها وسكون الفتنة، فاتفق ذلك عند قدوم عمرو بن العاص من سفر كان فيه، فسمع بأمر السقيفة فألقى فيهم خطبته ذكر فيها فضل

قريش وأحقيتهم بالخلافة، فلم يجبه أحد، وانصرف إلى منزله وقد ظفر، فقال:

ألا قـــــل لأوسٍ إذا جئتهـــــا — وقـــل كلمـــا جئـــت للخـــزرج
تمنيـــتم الملـــك في يثـــرب — فأنزلـــت القـــدر لم تنضـــج
وآخـــرجتم الأمـــر قبـــل التمـــام — وأعجـــب بـــذا المعجـــل المحـــرج
تريـــدون نـــتج الحيـــال العشـــار — ولم تلقمـــــوه فلـــــم ينـــتج
عجبـــت لســـعد وأصـــحابه — ولـــو لم يهيجـــوه لم يهـــتج
رجـــا الخزرجـــي رجـــاء الســـراب — وقـــد يخلـــف المـــرء مـــا يرتجـــي
فكـــان كمـــنحٍ علـــى كفّـــه — بكـــفٍّ يقطعهـــا أهـــوج

فلما بلغ الأنصار مقالته وشعره، بعثوا إليه لسانهم وشاعرهم النعمان بن عجلان، فأتى عمرواً وهو في جماعة من قريش، فقال:

- أن كان النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم قال: "الأئمة من قريش" فقال: " لو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شِعباً، لسلكت شِعب الأنصار".

وبعد تذكيره بمواقفه المعادية للإسلام في بدء دعوته أنصرف وقال (٦/٣١):

فقـل لقـريش نحـن أصـحاب مكـة — ويـوم حـنين والفـوارس في بـدر
وأصـحاب أُحـدٍ والنضـير وخيـبر — ونحـن رجعنـا مـن فريضـة بالـذكر
ويـوم بـأرض الشـام أدخـل جعفـر — وزيـد وعبـد اللّه في علـق يجـري
وفي كـل يـوم ينكـر الكلـب أهلـه — فطـاعن فـيهم بالمثقفـة السـمر
ونضـرب في نقـع العجاجـة أرؤسـاً — ببـيض كأمثـال الـبروق إذا تسـري

نصــرنا وآوينــا الــنبي ولم نخــف   صـروف الليـالي والعظـيم مـن الأمـر
وقلنـا لقـوم هـاجروا قبـلُ: مرحبـاً   وأهـلاً وسـهلاً، قـد أمنـتم مـن الفقـر
نقـــاسمكم أموالنـــا وبيوتنـــا   كقسـمة أيسـار الجـزور علـى الشـطر
ونكفـيكم الأمـر الـذي تكرهونـه   وكنّـا أناسـاً نـذهب العسـر باليسـر
وقلـتم: حـرام نصـب سـعد ونصـبكم   عتيـق بـن عثمـان – حـلال – أبـا بكـر
وأهـل أبـي بكـر بهـا خـير قـائم   وان عليـاً كـان أخلـق بـالأمر
وكـان هوانـاً في علـي وانـه   لأهل لها يا عمرو من حيث لا تدري
فـذاك بعـون الله يـدعو إلى الهـدى   وينهـى عـن الفحشـاء والبغـي والنكـر
وصـي الـنبي المصـطفى وابـن عمّـه   وقاتـل فرسـان الضـلالة والكفـر
وهـذا بحمـد الله يهـدي مـن العمـى   ويفـتح آذانـاً ثقلـن مـن الـوقر
نجـي رسـول الله في الغـار وحـده   وصـاحبه الصـديق في سـالف الـدهر
فلـولا اتقـاء الله لم تـذهبوا بهـا   ولكـن هـذا الخـير أجمـع للصـبر
ولم نـرض إلا بالرضـا ولربمـا   ضـربنا بأيـدنا إلى أسـفل القـدر

ولما انتهى شعر النعمان وكلامه إلى قريش غضب كثير منها، وألقى ذلك قدوم خالد بن سعد بن العاص من اليمن، وكان رسول الله أستعمله عليها، فغضب للأنصار وأشاد بدورهم في نصرة الإسلام، وهو الذي امتنع عن بيعة أبي بكر وقال: لا أبايع إلا عليا.

ثم قال: –

تفـــوه عمـــرو بالـــذي لا نريـــده　　وصـرح للأنصـار عـن شـنأة الـبغض
فـــان تكـــن الأنصـــار زلـــت فأننـــا　　نقيـــل ولا نجـــزيهم بـــالقرض
فـلا تقطعـن يـا عمـرو مـا كـان بيننـا　　ولا تحملن يا عمرو بعضاً على بعض
أتنسـى لهـم يـا عمـرو مـا كـان مـنهم　　ليـالي جئنـاهم مـن النفـل والفـرض
وقســمتنا الأمــوال كــاللحم بالمــدى　　وقسـمتنا الأوطـان كـل بـه يقضـي
ليـــالي كـــل النـــاس بـــالكفر جهـــرة　　ثقـال، علينـا مجمعـون علـى الـبغض
فـــأووا وآمـــوا وانتهينـــا الى المنـــى　　وقـر قرارانـا مـن الأمـن والخفـض

وقال خزيمة بن ثابت الأنصاري يخاطب قريشاً (٦/ ٣٤):

أيـــال قـــريشٍ أصـــلحوا ذات بيننـــا　　وبيـــنكم قـــد طـــال حبـــل التماحـــك
فـلا خـير فـيكم بعـدنا فـارفقوا بنـا　　ولا خـير فينـا بعـد فهـر بـن مالـك
كلانـــا علـــى الأعـــداء كـــف طويلـــةٌ　　إذا كـــان يـــوم فيـــه جـــب الحـــوارك
فـلا تـذكروا مـا كـان منّـا ومـنكم　　ففي ذكر ما قد كان مشي التساوك

وقال علي عليه السلام للفضل: -

- يا فضل أنصر الأنصار بلسانك ويدك، فأنهم منك وانت منهم.

فقال الفضل (٦/ ٣٤-٣٥): -

قلـــت يـــا عمـــرو مقـــالاً فاحشـــاً　　أن تعـــد يـــا عمـــرو واللّه فلـــك
إنمـــا الأنصـــار ســـيف قـــاطع　　مـــن تصـــبه ضـــبة الســـيف هلـــك
وبســـيف قـــاطع يضـــر بهـــا　　وســـهام اللّه في يـــوم الحلـــك

نصـــــروا الـــــدين وآووا أهلـــــه		منـــــزل رحـــــب ورزق مشـــــترك

وإذا الحـــــرب تلظـــــت نارهـــــا		بركـــــوا فيهـــــا إذا المـــــوت بـــــرك

فأجابه حسان بن ثابت (٦/٣٥):

جـــزى الله عنـــا والجـــزاء بكفـــه		أبـــا حســـن عنـــا ومـــن كـــأبي حســـن

ســـبقت قريشـــاً بالـــذي أنـــت أهلـــه		فصـــدرك مشـــروح وقلبـــك ممـــتحن

تمنـــت رجـــال مـــن قـــريش أعـــزّة		مكانـــك هيهـــات الهـــزال مـــن الســـمن

وأنـــت مـــن الإســـلام في كـــل مـــوطن		بمنزلـــة الـــدلو الـــبطين مـــن الرســـن

غضـــبت لنـــا إذ قـــام عمـــرو بخطبـــة		أمـــات بهـــا التقـــوى وأحيـــا بهـــا الإحـــن

فكنـــت المرجـــى مـــن لـــؤي بـــن غالـــب		كمـــا كـــان مـــنهم، والـــذي كـــان لم يكـــن

حفظـــت رســـول الله فينـــا وعهـــده		اليـــك ومـــن أولـــى بـــه منـــك مـــن دمـــن!

الســـت أخـــاه في الهـــدى ووصـــيّه		وأعلـــم مـــنهم بالكتـــاب وبالســـنن

فحقـــك محفـــوظٌ بنجـــد وشـــيمةٌ		عظـــيم علينـــا ثـــم بعـــد علـــى الـــيمن

وقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط - وكان يبغض الأنصار لأنهم أسروا أباه يوم بدر، وضربوا عنقه بين يدي رسول الله - بعد خطبة شتم فيها الأنصار (٦/٣٦): -

تباذخـــت الأنصـــار في النـــاس بأسمهـــا		ونســـبتها في الأزد عمـــرو بـــن عـــامر

وقـــالوا: لنـــا حـــق عظـــيم ومنّـــة		علـــى كـــل بـــادٍ مـــن معـــرّ وحاضـــر

فـــأن يـــك للأنصـــار فضـــل فلـــم تنـــل		بحرمتـــه الأنصـــار فضـــل المهـــاجر

وأن تكــن الأنصـــار آوت وقاسمـــت — معايشــها مــن جــاء قســمة جــازر

فقــد أفســدت مــا كــان منهــا بمنّهــا — ومــا ذاك فعــل الأكــرمين الأكــابر

إذا قـــال حســـان وكعـــب قصـــيدة — بشـــتم قـــريش غُنيِّـــت في المعاشـــر

وســـار بهـــا الركبـــان في كـــل وجهـــةٍ — واعمـــل فيهـــا كـــل خـــفٍ وحـــافر

فهـــذا لنـــا مـــن كـــل صـــاحب خطبـــة — يقـــوم بهـــا مـــنكم ومـــن كـــل شـــاعر

وأهـــل بـــأن يُهجَـــو بكـــل قصـــيدة — وأهـــل بـــان يَرمَـــوا بنبـــل فـــواقر

ولما أكثر في تخلف علي عليه السلام عن البيعة وأشتد أبو بكر وعمر في ذلك خرجت أم مسطح بن أثاثة، فوقفت عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلّم ونادت: يا رسول الله! (٦/٤٣):

قـــد كـــان بعـــدك أنبـــاء وهينمـــةٌ — لـو كنـت شـاهدها لم تكثـر الخطـب

أنّـــا فقـــدناك فقـــد الأرض وابلـــها — فاختـلَّ قومـك فأشـهدهم ولا تغـب

قال أحد الطالبين يذكر غضب فاطمة الزهراء عليها السلام (٦/٤٩ـ٥٠):

يـــا أبـــا حفـــص الهوينـــا ومـــا كنـــت — مليـــاً بـــذاك لـــولا الحمـــام

أتمـــوت البتـــول غضـــبى ونرضـــى — مـــا كـــذا يصـــنع البنـــون الكـــرام

على أن المهاجرين لما اجتمعوا على بيعة أبي بكر، أقبل أبو سفيان وهو يقول: ـ

أما والله أني عجاجة لا يطفئها إلا الدم؛ يا لعبد مناف، فيم أبو بكر من أمركم؟ أين المستضعفان؟

ثم قال لعلي عليه السلام: ابسط يدك أبايعك، فو الله أن شئت لأملأنها على أبي فصيل – يعني أبا بكر – خيلاً ورجلاً.

فامتنع عليه علي عليه السلام؛ فلما يئس منه قام عنه وهو ينشد شعر المسلمين (١/٢٢١–٢٢٢):

ولا يقيم على ضيم يراد به　　　إلاّ الأذلان عَيّرُ الحي والوتد

هذا على الخسف مربوط بِرُمَّتهِ　　　وذا يُشَحُّ فلا يرثي له أحد

ويوم وُلِّيَ عمر بن الخطاب قال الأمام علي عليه السلام (١/١٦٢): –

"حتى مضى الأول لسبيله، فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده:

شتان ما يومي على كورها　　　ويوم حيان أخي جابر

فيا عجباً بينا يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته يا لشد ما تشطر ضرعها! فصيَّرها في الحوزة خشنا يغلظ كلمها، ويخشى مسّها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها فصاحبها كراكب الصعبة، أن أشنق لها حزم، وان اسلس لها تقحم، فمني الناس – لعمرالله – بخبط وشماس وتلون واعتراض، فصبرت على طول المدة وشدة المحنة"

فقال أحد شعراء الشيعة (١/١٧١):

حملوها يوم السقيفة أوزا　　　راً تخف الجبال وهي ثقال

ثم جاؤوا من بعدها يستقيلو　　　ن، وهيهات عثرة أثقال

الضوء الثالث

الحروب الإسلامية

١ - غزوة بدر

بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، إن عيرَ قريش قد فصلت من مكة تريد الشام، وقد جمعت قريش فيها أموالها فندب لها أصحابه، وخرج يعترضها على رأس ستة عشر شهراً من مهاجره عليه السلام، وخرج في خمسين ومئة – ويقال في مئتين – فلم يلق العير، وفاتته ذاهبة إلى الشام...وهذه غزاة ذي العشيرة، رجع منها إلى المدينة فلم يلق حرباً، فلما تحّين انصراف العير من قافلة ندب أصحابه لها، وبعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمر بن نفيل قبل خروجه من المدينة بعشر ليالٍ يتجسسان خبر العِير، ولما راحت العير بياتا حتى أصبحا ثم خرجا، وقدما إلى المدينة في اليوم الذي لقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم قريشاً ببدر، فخرجا يعترضان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، فلقياه بتربان – وتربان بين مكة والسَّالة على المحجة وكانت منزل عروة بن أذينة الشاعر وندب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم المسلمين، وقال:

– وهذه عير قريش، فيها أموالهم: لعل الله أن يغنِّمكموها فأسرع من

أسرع، حتى أن كان الرجل ليساهم أباه بالخروج، وأبطأ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم حتى انتهى إلى المكان المعروف بالبُقع، وهي بيوت السقيا وهي متصلة ببيوت المدينة فضرب عسكره هناك، وعرض المقاتلة، فعرض عليه نفر من أصحابه فردهم، فلما نزل عليه السلام بيوت السقيا أمر أصحابه أن يستقوا من بئرهم: وشرب عليه السلام منها، وكان أول من شرب وصلى عندها، ودعا، يومئذ لأهل المدينة، وقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم وأمامه بعض أصحابه، فراح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم من بيوت السقيا، لاثنتي عشرة ليلة مضت من رمضان، وخرج المسلمون معه ثلاث مئة وخمسة، وتخلف ثمانية، وضرب لهم بسهامهم وأجورهم، واستعمل رسول الله على المشاة قيس بن صعصعة وأمره صلى الله عليه وآله وسلَّم حين فصل من بيوت السقيا أن يعدَّ المسلمين ففعل، وخرج من بيوت السقيا فنزل تحت شجرة، وأصبح يوم الاثنين وهو هناك، ولحقت قريش بالشام في عيرها، واستقسمت عند هبل للخروج، وأقبل أبو سفيان بالعير، وخاف هو وأصحابه خوفاً شديداً حين دنوا من المدينة، فلما كانت الليلة التي يصبحون فيها على ماء بدر، جعلت العير تقبل بوجوهها إلى ماء بدر، وكان بسيس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء وردا على مجريّ بدراً يتجسسان الخبر وعرفا أن عير قريش ستنزل بعد يوم أو يومين فأتيا النبي (صلى اله عليه وأله) فاخبراه الخبر، وأصبح أبو سفيان ببدر، قد تقدم العير وهو خائف الرصد، ولما تأكد أبو سفيان من أن محمداً صلى الله عليه وآله عرف مكانهم بالرصد ضرب وجه عيره وسار بها نحو الساحل وترك بدراً يساراً وأنطلق سريعاً،

ولما أفلت أبو سفيان بالعير ورأى أن قد أحرزها وأمن عليها، أرسل إلى قريش يأمرهم بالرجوع، فأبت الرجوع، ولحق الرسول أبا سفيان فاخبره بمضي قريش ولم ترجع، وسار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم حتى أتى الروحاء ليلة الأربعاء للنصف من شهر رمضان؛ فمن يومئذ عقد رسول الله صلى الله عليه وآله الألوية وكانت ثلاثة، وأظهر السلاح، وأستخبر عن قريش فقيل له انهم بجنب الوادي، فبات الفريقان كل منهم لا يعلم بمنزل صاحبه، إذ تفصل بينهم كثبان، ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم وادي بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، ولما أصبحوا قال منبه بن الحجاج، وكان رجلاً يبصر الأثر:

هذا – والله – أثر سمية وابن أم عبد، أعرفهما.

لقد جاء محمد بسفهائنا وسفهاء أهل يثرب.

ثم قال (١٤/٨٤–١١٧):

لم يترك الجوع لنا مبيتا لابد أن نموت أو نميتا

ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم على القليب بُني له عريش من جريد، فقام معاذ على باب العريش متوشحاً سيفه، وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم أصحابه قبل أن تنزل قريش ودفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم رايته إلى مصعب بن عمير، فتقدم بها إلى الموضع الذي أمره أن يصفها، ووقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم ينظر إلى الصفوف وخطب فيهم، وبعث من يخبر قريشاً أن يمتنعوا عن القتال فأبوا على لسان أبي جهل،

وخطب عتبة بن ربيعة في قريش دعاهم إلى الامتناع عن الحرب.

ولكن أبا جهل قال:

-إن عتبة يشير عليكم بهذا لأن محمداً أبن عمه وهو يكره أن يقتل أبنه وابن عمه.

فغضب عتبة وشتم أبا جهل ووصفه بالجبن والإفساد وأنشد (١١٨/١٤-١٢٥):

هـذا هـدايَ وأمـرت أمـري   فبشـري بالثكـل أم عمـروِ

فذهب أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي وحرضه على عتبة وهيج فيه روح الحرب وهكذا حتى تقدم ابن الحضرمي فشد على القوم فنشبت الحرب، فخرج إليه فهجع مولى عمر بن الخطاب، فقتله عامر، وكان أول قتيل قتل من الأنصار حارثة بن سراقة، وقتله حيان بن العرقة، وتبارز القوم، وممن قام من قريش شيبة، فقام إليه عبيدة - وهو يومئذ اسن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فضرب رجل عبيدة بذباب السيف فاصاب عضلة ساقه، فقطعها، وكر حمزة وعلي على شيبة فقتلاه، وحملا عبيدة إلى الرسول، فقال عبيدة:

يا رسول الله الست شهيداً؟

قال:

- بلى

قال:

- أو والله لو كان أبو طالب حياً لعلم أني أحق بما قال حين يقول (١٤/١٢٦-١٣٠):

كذبتم وبيت الله نخلي محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل

وننصره حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وقد رثت هند بنت عتبة أباها (١٤/١٣١):

اعينيَّ جودا بدمع سرب على خير خندف لم ينقلب

تداعى له رهطه قُصْرةً بنو هاشم وبنو المطلب

يذيقونه حرَّ أسيافهم يعلونه بعد ما قد عُطِب

أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم نهى يوم بدر، عن قتل أبي البختري، واسمه الوليد بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، لأنه كان أكف الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم بمكة وكان فيمن قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم فلقيه المجذّر بن زياد البلوي حليف الأنصار فقال له: -

أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم نهانا عن قتلك.

ومع أبي البختري زميل له خرج معه من مكة يقال له جنادة بن مُلَيحة ولما رفض المذر العفو عن زميل أبي البختري أبى أبو البختري ترك زميله فنازل المجزر وأرجز فقال (١٤/١٣٤): -

لن يسلم ابن حرة زميله حتى يموت أو يرى سبيله

ثم اقتتلا فقتله المجزر.

وارتجز عدي بن أبي الزغباء يوم بدر فقال: -

أنـــا عـــدي والســـحل   أمشـي بهـا مشـي الفحـل

وكان عقبة بن أبي معيط قال بمكة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة (١٤/١٣٥): -

يـا راكـب الناقـة القصـواء هاجرنـا   عمـا قليـل تراني راكـب الفـرس
أعـــلُّ رمـــي فـــيكم ثـــم أنهلـــه   والسـيف يأخـذ مـنكم كـل ملتـبس

وقد روي أنه لما توجه المشركون الى بدر كان فتيان ممن تخلف عنهم بمكة سماراً يسمرون بذي طوى في القمر حتى يذهب الليل، يتناشدون الأشعار ويتحدثون، فبينما هم كذلك إذ سمعوا صوتاً قريباً منهم لا يرون القائل، رافعاً صوته يتغنى (١٤/١٥٠):

أزاد الحنيفيـــون بـــدراً مصـــيبة   سـينقض منهـا ركـن كسـرى وقيصـرا
أرانـت لهـا صـم الجبـال وأفزعـت   قبائـل مـا بـين الـوتير فخيـبرا
أجـازت جبـال الخشـبين وجُـرِّدتْ   حرائـر يضـربن الترائـب حُسَّـرًا

وكان الأسود بن المطلب أصيب له ثلاثة من ولده، زمعة وعقيل والحارث بن زمعة، فسمع أمة تبكي على بعيرها قد أضلته فقال الأسود (١٤/١٥٢): -

تبكـيِّ أن يضـل لهـا بعـير   ويمنعهـا مـن النـوم السـهود
فـلا تبكـي علـى بكـر ولكـن   علـى بكـر تصـاغرت الخـدود

فبكـــيّ أن بكيــت علـــى عقيــل | وبكـــيّ حارثـــاً أســـد الأســـود
فبكـــيّهم ولا تســـمي جميعـــاً | فمـــا لأبـــي حكيمـــة مـــن نديــد
علــى بــدر ســرات بــني حُصــيص | ومخـــزوم ورهـــط أبـــي الحديــد
ألا قـــد ســـاد بعـــدهم رجـــال | ولكـــن يـــوم بـــدر لم يســـودوا

وعرضت الأسرى على رسول الله صلى الله عليه وآله فرأى النضير بن الحارث، فقال:

اضربوا عنقه.

فقال المقداد:

أسيري يا رسول الله!

فقال:

اللهم اغنِ المقداد من فضلك، قم يا علي فاضرب عنقه.

فقام علي عليه السلام فضرب عنقه بالسيف صبراً، وذلك بالأثيل، فقالت أُخته وأسمها قتيله (١٤/١٧١-١٧٢):

ياراكبـــاً إن الأثيـــل مَظِنَّـــةٌ | مـــن صـــبح خامســـة وانـــت موفـــق
بلّـــغ بـــه ميتـــاً فـــان تحيـــة | مـــا أن تـــزال بـــه الركائـــب تخفـــق
مـــني اليـــه وعـــبرة مســـفوحة | جـــادت لمائحهـــا، وآخـــرى تخنـــق
فليســـمعن النضـــر إن ناديتـــه | أن كـــان يســـمع ميـــت أو ينطـــق
ظلـــت ســـيوف بـــني أبيـــه تنوشـــه | للّه ارحـــام هنـــاك تمـــزق

صـــبراً يقـــاد الى المدينـــة راغمـــاً   رســـف المقيـــد وهوعـــان موثـــق
أمحمـــد ولأنـــت نجـــل نجيبـــةٍ   في قومهـــا، والفحـــل فحـــل معـــرِق
مـــا كـــان ضـــرك لـــو فنـــت وربمـــا   مـــنَّ الفتـــى وهـــو المغـــيظ المحنـــق
والنضـــر أقـــرب مـــن قتلـــت وســـيلة   وأحقهـــم أن كـــان عتـــق يعتـــق

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم لما وصل إليه شعرها رق له، وقال:

- لو كنت سمعت شعرها قبل أن أقتله لما قتلته.

ومن أسرى بدر سهيل بن عمر والذي يكنى أبو يزيد وكان يطعم الخبز قال فيه أمية بن أبي الصلت الثقفي، وقد رآه مربوط اليدين إلى عنقه (١٤/١٨٧):

يابا يزيد رأيت سيبك واسعاً   وسماء جودك تستهل فتمطر

وقال فيه مالك بن الدخشم، وهو الذي أسره يوم بدر (١٤/١٨٨):

أســـرت ســـهيلاً فـــلا أبتغـــي   بـــه غـــيره مـــن جميـــع الأمـــم
وخنـــدف تعلـــم أن الفتـــى   ســـهيلاً فتاهـــا إذ تظلَّـــم
ضـــربت بـــذي الشـــفر حتـــى انثنـــى   وأكرهـــت نفســـي علـــى ذي العلـــم

أي على ذي العلم بسكون اللام، ولكنه حركه للضرورة.

وقال كعب بن الأشرف يرثي قتلى بدر من المشركين (١٤/١٩٧):

طحنـــت رحـــى بـــدر لمُهلـــك أهلـــه   ولمثـــل بـــدر يســـتهل ويُـــدمع
قتلـــت ســـراة النـــاس حـــول حياضـــة   لا تبعـــدوا أن الملـــوك تُضـــرَّع

ويقــــوم أقــــوام أذل بعـــــزهم | أنــا ابــن أشــرف ظــل كعبــاً يجــزع
صــدقوا فليــت الأرض ســاعة قتّلــوا | ظلـــت تشـــيخ بأهلـــها وتصـــدَّع
صـــار الـــذي اثـــر الحديـــد بطعنــه | أو ظـــل أعمـــى مرعشـــاً لا يســـمع
نبئـــت أن بـــني المغـــيرة كلـــهم | خشـعوا لقتـل ابـن الحكـيم وجُـدّعوا
وابنـــا ربيعـــة عنـــده ومنيّـــةٌ | مـــا نـــال مثـــل الهـــالكين وتبـــعّ
نبئـــت أن الحـــارث بـــن همـــامهم | في النـاس يـبني الصـالحات ويجمـع
ليـــزور يثـــرب بـــالجموع وإنمـــا | يســـعى إلى الحســـب القـــديم الأروع

وروي أن عمرو بن أبي سفيان أسره علي عليه السلام يوم بدر ولم يفتده أبو سفيان وبينا هو محبوس بالمدينة خرج سعد بن النعمان بن الحال أخو بني عمرو بن عوف معتمراً ومعه امرأة له فغدا عليه أبو سفيان فحبسه بمكة بابنه عمرو بن أبي سفيان، وأرسل إلى قوم بالمدينة هذا الشعر (٢٠١/١٤):

أرهــط ابــن الحــال أجيبــوا دعــاءه | تعاقـدتمو ألا تسـلموا السـيد الكهـلا
فـــان بـــني عمـــرو لئـــام أذلـــة | لأن لم يفكـوا عـن أسـيرهم الكـبلا

فذهب قوم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم فطلبوا منه فك عمرو ففكه فبعثوا به الى ابي سفيان فخلى عن سعد، وقال حسان بن ثابت يجيب أبا سفيان (٢٠١/١٤):

ولــو كــان ســعد يــوم مكــة مطلقــاً | لأكثـر فـيكم قبـل أن يؤسـر القتلـى
بعضـــب حســـام أو بصـــفراء نبعـــةٍ | تحـن إذا مـا أنبضـت تحفـز التـبلا

ومن أسرى بدر خالد بن الأعلم العقيلي، حليف لبني مخزوم، وهو الذي يقول (١٤/٢٠٣): –

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا   ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ومن قتلى بدر من المشركين؛ عقبة بن أبي معيط قتله عاصم بن ثابت صبراً بالسيف بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم. وأن رسول الله صلى الله عليه وآله صلبه بعد قتله فكان أول مصلوب في الإسلام. وفيه يقول ضرار بن الخطاب (١٤/٢٠٩): –

عين بكيّ لعقبة بن أبانِ   فرع فهر وفارس الفرسان

٢ - غزوة أُحد

لما رجع من حضر من المشركين إلى مكة وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة في دار الندوة. . . ومشت أشراف قريش إلى أبي سفيان فقالوا:

- يا أبا سفيان. . أنظر هذه العير التي قدمت بها فاحتبستها، فقد أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش، وهم طيبوا الأنفس، يجهزون بهذه العير جيشاً كثيفاً إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلَّم فقد ترى من قتل آباءنا وأبناءنا وعشائرنا.

فقال أبو سفيان:

- قد طابت أنفس قريش بذلك؟

قالوا:

- نعم ...!

قال:

فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي، فأوالله الموتور والثائر

وقد قتل أبني حنظلة ببدر وأشراف قومي، فلم تزل العير موقوفة حتى تجهزوا للخروج.

فباعوها فصارت ذهباً عينا. فلما أجمعوا على المسير قالوا:

ـ نسير في العرب فنستنصرهم.

وهكذا ساروا في العرب، فأجمعوا على أن يبعثوا أربعة من قريش في العرب، يدعوهم إلى نصرهم؛ فبعثوا عمرو بن العاص وهبيرة بن وهب الزِّبَعَري وأبا عزة الجمحي، فأبى أبو عزة أن يسيروقال:

ـ مَنَّ علي محمد يوم بدر، وحلفت أن لا أظاهر عليه عدوا.

ـ فمشى إليه صفوان بن أُمية يحاول معه ولكنه أبي وأنصرف عنه صفوان بن أُمية آيساً منه، فلما كان الغد جاءه صفوان وجبير بن مطعم فطلب منه صفوان ما طلبه أمس فأبى، فقال جبير:

ـ ما كنت أظن أني أعيش حتى يمشي اليك أبو وهب في أمر تأبى عليه، فأحفظه.

فقال:

ـ أنا أخرج.

فخرج الى العرب يجمعها ويقول (١٤/٢١٣ـ٢١٥):

إيه بني عبد مناف الرزام   أنتم حماة وأبوكمُ حام

لا تسلمون لا يحل السلام   لا يعدُوَنيِّ نصركم بعد العام

فخرج النفر مع أبي عزة فألبوا العرب وجمعوا، وبلغوا ثقيفاً فخرجوا ومعهم نساؤهم كل معه زوجته أو ابنته أو أخته أو أمه، وممن خرجن مع الرجال زوجة غراب بن سفيان بن عويف وهي عمرة بنت الحارث بن علقمة الكنانية، وهي التي رفعت لواء قريش حين سقط حتى تراجعت قريش الى لوائها، وفيها يقول حسان (١٤/٢١٦-٢١٧):

ولولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق بالثمن البخس

وخرجت قريش وهم ثلاثة الأف بمن ضَوي اليها من كنانة والأحابيش وغيرهم على لواء وأحد، يحمله طلحة بن أبي طلحة ...ولما أجمعوا المسير كتب العباس بن عبد المطلب كتاباً وختمه، وأستأجر رجلاً من بني غفار وسيَّره الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم يخبره أن قريشاً قد أجتمعت للسير إليه، ولما وصل الغفاري دفع الكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم فقرأه عليه أُبي بن كعب، واستكتم أُبياً ما فيه، وأخبر أُبي بن كعب سعد بن الربيع ما في الكتاب، فجعل سعد يقول:

- يا رسول الله، والله أني لأرجو أن يكون في ذلك خير.

وأرجعت يهود المدينة والمنافقون وقالوا:

- ما جاء محمد بشيء يحبه.

وأنصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم إلى المدينة وقد أستكتم سعد بن الربيع الخبر.

وشاع الخبر بين الناس بمسير قريش، وسارت قريش إلى بدر ثم خرجت إلى أُحد. وخرج النساء ومعهن الدفوف يحرضن الرجال ويذكرهم قتلى بدر في كل منزل.

وكانت قريش بذي الحُليفة يوم الخميس صبيحة عشر من مخرجهم من مكة وذلك لخمس مضين من شوال على رأس أثنين وثلاثين شهراً من الهجرة، ولما أصبحوا بذي الحُليفة خرج فرسان منهم فأنزلوهم الوطاء وبعث النبي صلى الله عليه وآله عينين له ليلة الخميس فاعترضا قريش بالعقيق، فسارا معهم حتى نزلا الوطاء ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم فأخبراه. وكان مقدم قريش يوم الخميس لخمسٍ خلون من شوال، وكانت الوقعة يوم السبت لسبع خلون من شوال. وحرست المدينة تلك الليلة ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم رؤيا ليلة الجمعة، فلما أصبح واجتمع المسلمون خطبهم، وقال:

- أشيروا عليَّ....

فأشاروا عليه بما يحصنهم ويمكنهم من المشركين فاخذ بما أشاروا عليه وهكذا بدأت الحرب، وصرن نساء المشركين يحرضن رجالهم على القتال ويقلن (١٤/٢٣٥):

نحـــن بنـــات طـــارق   نمشـــي علـــى النمـــارق
إن تقبلـــوا نعـــانق   أو تـــدبروا نفـــارق
فـــراق غيـــر وامـــق

وقد قتل طلحة بن أبي طلحة من جيش المشركين فحمل لواءهم أخوه

عثمان بن طلحة وهو أبو شيبة فارتجز وقال (١٥/٢٣٦):

ان علـــيّ رب اللـــواء حقـــا أن تخضب الصعدة أو تندقا

وبعد أن قتل عثمان حمل اللواء أخوهما أبو سعد بن أبي طلحة فرماه سعد بن أبي الوقاص فأصاب حنجرته فأدلع لسانه ادلاع الكلب، وكان النساء خلف أبي سعد يقلن (١٥/٢٣٧):

ضـــرباً بـــني عبـــد الـــدار ضـــرباً حمـــاة الأدبـــار

ضـربا بكل بتـــــار

وكان الإمام علي إذا برز لا يسلب كأن أبا تمام عناه بقوله (١٤/٢٣٨):

أن الأســـود أســـود الغـــاب همتهـــا يـــوم الكريهـــة في المسـلوب لا السـلب

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم لما فرَّ معظم أصحابه عنه يوم أُحد كثرت عليه كتائب المشركين، وقصدته كتيبة من بني كنانة، ثم من بني عبد مناة بن كنانة، فيها بنو سفيان بن عويف، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم:

- يا علي اكفني هذه الكتيبة.

فحمل عليها، وأنها لتقارب خمسين فارساً، وهو عليه السلام راجل، فما زال يضربها بالسيف تتفرق عنه ثم تجتمع عليه، هكذا مراراً حتى قتل بني سفيان بن عويف الأربعة، وتمام العشرة منها، وممن لا يعرف بأسمائهم. فقال جبرائيل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم:

يا محمد إن هذه المواساة، لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم

وما يمنعه وهو مني وأنا منه!

فقال جبرائيل عليه السلام:

وأنا منكما.

وسمع ذلك اليوم صوت من قبل السماء لا يرى شخص الصارخ به ينادي مراراً (١٥/٢٥١):

(لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي).

فسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم عنه فقال:

هذا جبرئيل.

كان حنظلة بن أبي عامر في معركة أُحد قد اعترض أبا سفيان بن حرب فضرب عرقوب فرسه فأكسدت الفرس، ووقع أبو سفيان على الأرض فجعل يصيح:

يا معشر قريش أنا أبو سفيان بن حرب.

وحنظلة يريد أن يذبحه بالسيف، فأسمع الصوت رجالاً لا يلتفتون إليه من الهزيمة، وحتى عاينه الأسود بن شعوب، فحمل على حنظلة بالرمح فأنقذه، ومشى إليه حنظلة بالرمح فضربه ثانية فقتله، وهرب أبو سفيان يعدو على قدميه، فلحق ببعض قريش فنزل عن صدر فرسه، وردف وراء أبا سفيان، فذلك قول أبي

سفيان يذكر صبره ووقوفه وأنه لم يفر، وذكره محمد بن إسحاق (٢٧٠/١٤):

ولو شئت نجتني كميت طِمِرَّةٌ ... ولم أحمل النعماء لأبن شعوب
وما زال مهري مزجر الكلب فيهم ... لدن غدوة حتى دنت لغروب
أقاتلهم وادّعي يا ل غالب ... وأدفعهم عني بركن صليب
فبكّي ولاترعي مقالة عاذلٍ ... ولاتسأمي من عبرة ونحيب
اياك وأخواناً لنا قد تتابعوا ... وحق لهم من حسرة بنصيب
وسلي الذي قد كان في التعن أنني ... قتلت من النجار كل نجيب
ومن هاشم قرماً كريماً ومصعباً ... وكان لدى الهيجاء غير هيوب
ولو أنني لم أشفِ نفسي منهمُ ... وكانت شجاً في الصدر ذات ندوب
فآبوا وقد أودى الجلابيب منهم ... بهم كمدٌ من واجب وكئيب
أصابهم من لم يكن لدمائهم ... كفاءً ولا في سنخهم بضريب

وفي يوم أُحد انتخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم فقال:

أنا ابن العواتك.

وقال أيضاً (٢٧٦/١٤):

أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

وقال عبد الله بن الزبعري يذكر يوم أُحد (٢٧٧/١٤-٢٧٨):

إلا ذرفت من مقلتيك دموع ... وقد بان في حبل الشباب قطوع
وشط بمن تهوى المزار وفرقت ... نوى الحرب دار بالحبيب فجوع

ولـــيس لمـــا ولى علىـــذي صـــبابةٍ	وأن طـــال تـــذراف الـــدموع رجـــوع
فـــدع ذا ولكـــن هـــل أتـــى أم مالـــك	أحاديـــث قـــومي والحـــديث يشـــيع!
ومُجنُبنـــا جـــرداً الى أهـــل يثـــرب	عنـــاجيج فيهـــا ضـــامر وبـــديع
عشـــية ســـرنا مـــن كـــداءٍ يقودهـــا	ضَـــروُر الأعـــادي للصـــديق نفـــوع
يشـــد علينـــا كـــل زحـــف كأنهـــا	عـــذبر نضـــوح الجـــانبين نقيـــع
فلمـــا رأونـــا خـــالطتهم مهابـــة	وخاصـــرهم رعـــب هنـــاك فظيـــع
فـــودوا لـــو أن الأرض ينشـــق ظهرهـــا	بهـــم، وصـــبور القـــوم ثـــم جـــزوع
وقـــد عُريَـــت بـــيض كـــأن وميضـــها	حريـــق وشـــيك في الأبـــاء ســـريع
بإيماننـــا نعلـــو بهـــا كـــل هامـــة	وفيهـــا سمـــام للعـــدو ذريـــع
فغـــادرن قتلـــى الأوس عاصـــبة بهـــم	ضـــياع وطـــير مـــوقهن وقـــوع
ومـــرَّ بنـــو النجـــار في كـــل تلعـــة	بـــأثوابهم مـــن وقعهـــن نجيـــع
ولـــولا علـــو الشِـــعب غـــادرن أحمـــد	ولكـــن عـــلا والســـمهري شـــروع
كمـــا غـــادرت في الكـــر حمـــزة ثاويـــاً	وفي صـــدره ماضـــي الشـــباة وقيـــع

وقال ابن الزبعري أيضاً من قصيدة مشهورة وهي (٢٧٩/١٤):

يا غراب البين أسمعت فقلْ	أنمـا ننـدب أمـراً قـد فُعِـلْ
أن للخـــير وللشـــر مـــدىً	وســـواء قـــبر مثـــرٍ ومقـــل
أبلغـــا حســـان عـــني آيـــةً	فقـريض يشـفي ذيـاك الغُلـل
كم ترى بالجسر من جمجمة	وأكفـــاً قـــد أثـــرّت ورجـــل

وسـرابيل حسـان شـققت — عن كماةٍ غودروا في المنتزل

كم قتلنا من كريم سيدٍ — ماجد الجدين مقدام بطل

صادق النجدة قرم بارع — غير ملطاة لدى دمع الأسل

فسل المهراس من ساكنه؟ — من كراديس وهام كالحجر

ليت أشياخي ببدر شهدوا — جزع الخزرج من وقع الأسل

حين حطت بقباء بركها — واستحر القتل في عبد

ثم خفوا عند ذاكم رُقَّصاً — رقص الحفان تعدو في

فقتلنا النصف من ساداتهم — وعدلنا ميل بدرٍ فأعتدل

لاالوم النفس إلا أننا — لو كررنا لفعلنا المفتعل

بسيوف الهند تعلو هامهم — تبرد الغيظ ويشفين الغلل

وقال حسان وهو بذكر كسر عتبة بن أبي وقاص سن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم يوم أُحد وكلم شفتيه وشجَّ وجههِ فجعل يمسح الدم عن وجهة ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا نبيهم بالدم، وهو يدعوهم الى ربهم

فأنزل الله عز وجل:

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾.

قال حسان بن ثابت في ذلك اليوم (٦/٥٥):

إذا الله حيا معشراً بفعالهم — ونصرهم الرحمن رب المشارق

فهدّك ربي يا عتيب بن مالك — ولقاك، قبل الموت، أحدى الصواعق

بسطت يميناً للنبي محمدٍ فدميت فاه قطعت بالبوارق

فهلاّ ذكرت اللّه والمنزل الذي تصير اليه عند احدى الصعائق

فمن عاذري من عبد عذرة بعدها هوى في دجوجيٍّ شديد المضايق

وأورث عاراً في الحياة لأهله وفي النار يوم البعث أم البوائق

ولما قتل حمزة بن عبد المطلب علت هند بنت عتبة، يومئذ، صخرة مشرفة، وصرخت بأعلى صوتها (١٣/١٥): -

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان عن عتبة لي من صبر ولا أخي وعمه وبكري

شفيت نفسي وقضيت نذري شفيتَ وحشي غليل صدري

فشكر وحشيٍّ عليَّ عمري حتى تُرمَّ أعظمي في قبري

فاجابتها هند بنت أثاثة بن عبد المطلب بن عبد مناف (١٤/١٥): -

خزيت في بدرٍ وغير بدر يا بنت عذاّر عظيم الكفر

أفحمك اللّه غداة الفجر بالهاشميين الطوال الزهر

بكل قطاع حسام يغري حمزة ليثي وعليٌّ صقري

إذ رام شيب وأبوك قهري فَخَضّبا منه ضواحي النحر

ومن الشعر الذي ارتجزت به هند بنت عتبة يوم أُحد (١٤/١٥):

شفيت، من حمزة نفسي بأُحد حين بقرت بطنه عن الكبد

أذهب عنيّ ذاك ما كنت أجد من لوعة الحزن الشديد المعتمد

والحـــرب تعلـــوكم بشـــؤبوب بَـــرِد　　　تُقْـــدِم أقـــداماً عليكم، كالأســـد

فقال حسان بن ثابت يهجوها (١٥/١٤):

أشـرتِ لكـاع وكـان عادتهـا　　　لؤمـاً إذا أشـرتِ مـع الكفـر
أخرجـتِ مرقصـة الى أُحـدٍ　　　في القـوم مقتبـة علـى بكـر
بكــر ثفــال لا حــراك بــه　　　لا عــن معاتبــة ولا زجــر
أُخرجــت ثــائره محاربــةً　　　بابيـك وابنـك بعـد في بـدر
وبعمــك المــتروك منجــدلاً　　　وأخيـك منعفـرين في الجفـر
فرجعـت صـاغرة بـلا تـرةٍ　　　منّـا ظفـرت بهـا ولا وتـر

وقال أيضاً يهجوها (١٥/١٥):

لمـــن ســـواقط ولـــدانٍ مطرحـــة　　　باتـــت تفحـــص في بطحـــاء اجيـــاد
باتـــت تمخّـــض لم تشـــهد قوابلـــها　　　الى الوحـــوش وإلا جنـــة الـــوادي
يظـــل يرجمهـــا الصـــبيان منعفـــراً　　　وخالـــه وأبـــوه ســـيد الـــوادي

وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول يوم أُحد: -

ما فعل عمّي، ما فعل عمّي؟

فخرج الحارث بن الصّمة يطلبه فأبطأ، فخرج عليه السلام يطلبه ويقول (١٥/١٦): -

يـارب إن الحـارث بـن الصّمّة　　　كـان رفيقـاً وبنـا ذا ذمّـة
قـد ظـل في مهامـةٍ مهمّـة　　　يلـتمس الجنـة فيهـا ثمّـة

حتى انتهى إلى الحارث، ووجد حمزة مقتولاً، فجاء فأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم فأقبل يمشي حتى وقف عليه فقال: –

– ما وقفت موقفاً قط أغيظ اليَّ من هذا الموقف. وخرجت فاطمةمع نساء وقد رأت الذي بوجه أبيها صلى الله عليه وآله وسلَّم فاعتنقته، وجعلت تمسح الدم عن وجهه، وذهب علي عليه السلام فأتى بماء من المهراس وقال لفاطمة: امسكي هذا السيف غير ذميم وقال (١٥/٣٥): –

أفاطم هاك السيف غير ذميم　　فلست برعديد ولا بلئيم

لعمري لقد جاهدت في نصر أحمد　　وطاعة رب بالعباد رحيم

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم: –

– لئن كنت صدقت القتال اليوم لقد صدق معك سماك بن خرشبة، وسهل بن حُنيف.

ولما كان بين الحارث بن سويد الصامت والمجذَّر بن زياد البلوي ثأر، إذ قتل المجذر أبا الحارث قبل الأسلام، فضمرها الحارث ، فلما كان يوم أُحد وجال المسلمون تلك الجولة، أتاه الحارث (وكان قد أسلم أيضاً) من خلفه فضرب عنقه، وقد أتى جبرئيل النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم فأخبره أن الحارث بن سويد قتل المجذَّر غيلة، وأمر بقتله، ولما رآه الرسول صلى الله عليه وآله وسلَّم دعا عويم بن ساعدة فقال له: –

قدم الحارث بن سويد إلى باب المسجد فاضرب عنقه بمجذر بن زياد فإنه قتله يوم أحد، فضرب عويم عنقه، ففي ذلك قال حسان (١٥/٥٠)

يــا حــارٍ في ســنةٍ مــن قــوم أولكــم — أم كنــت ويحــك مفــتراً بجبريــل
أم كنــت يــا ابــن زيــاد حــين تقتلــه — بغـــرّة في فضـــاء اللّه مجهـــول
وقلــتمُ لــن نــرى واللّه مبصــركم — وفــيكم محكــم الآيــات والقيــل
محمـــد والعزيـــز اللّه يخـــبره — بمـــا يكـــن ســـريرات الأقاويـــل

وكان سويد بن الصامت حين ضربه المجذر و بقي قليلاً ثم مات، فقال قبل أن يموت يخاطب أولاده (١٥/٥٠ـ٥١): ـ

أبلـــغ جلاســـاً وعبـــد اللّه مالكـــة — وان دعيـــت فـــلا تخـــذلهما حـــار
أقتــل جــذارة إذ مــا كنــت لاقــيهم — والحــي عوفــاً علــى عــرف وأنكــار

بعد أن زار معبد بن معبد الخزاعي ـ وهو مشرك ـ محمداً صلى الله عليه وآله وسلَّم وجيش المسلمين وعاد إلى قريش أخبرهم عما ينوي من أخذ ثارهم في أحد، وقد حملني ما رأيت منهم أن قلت أبياتاً، قالوا: ـ وما هي؟

فأنشدهم هذا الشعر (١٥/٥٩):

كــادت تهــد مــن الأصــوات راحلــتي — إذ ســـالت الأرض بـــالجرد الأبابيـــل
تعـــدو بأســـدٍ ضـــراب لا تنابلـــةٍ — عنـــد اللقـــاء ولا ميـــل معازيـــل
فقلــت ويــل ابــن حــربٍ مــن لقــائهمُ — إذا تقطمطـــت البطحـــاء بالجيـــل
أنــي نــذرت لأهــل البســل ضــاحية — لكـــل ذي إربـــة مـــنهم ومعقـــول
مــن جــيش أحمــد لا وحــش قنابلــه — ولــيس يوصــف مــا أنــذرت بالقيــل

٣ - غزوة الخندق

قال الواقدي وابن إسحاق: خرج عمرو بن عبدِ ودٍّ يوم الخندق شاهراً سيفه معلماً مدلاً بشجاعته وباسه، وخرج معه ضرار بن الخطاب الفهري؛ وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة ابن أبي وهب ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميون، فطافوا بخيولهم على العبور فعبرت، وصاروا مع المسلمين على أرض واحدة ورسول الله صلى الله عليه وآله جالس وأصحابه قيام على رأسه، فتقدم عمرو بن عبد ود فدعا إلى البراز مراراً، فلم يقم إليه أحد، فلما أكثر قام علي عليه السلام فقال: -

- أنا أبارزه يا رسول الله.

فأمره بالجلوس، وأعاد عمرو النداء والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير، فقال عمرو: -

أيها الناس أنكم تزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار أفما يحب أحدكم أن يقدم على الجنة؟ وأن يقدم عدواً له على النار؟

فلم يقم إليه أحد، فقام علي عليه السلام دفعة ثانية:

ـ أنا له يا رسول الله.

فأمره بالجلوس فجال عمرو بفرسه مقبلاً ومدبراً، وجاءت عظماء الأحزاب، فوقفت من وراء الخندق ومدت أعناقها تنظر، فلما رأى عمرو أن أحداً لايجيبه قال (١٩/٦٢ـ٦٣): ـ

ولقد عجزتُ من النداء بجمعهم هل من مبارز
ووقفت مذ جبن المشيّع موقف القرنِ المناجز
أني كذلك لم أزل متسرعاً قبل الهزاهز
أن الشجاعة في الفتى والجود من غير الغرائز

فقام علي عليه السلام فقال: ـ

يا رسول، إإذن لي في مبارزته.

فقال: ـ

إدنُ، فدنى فقلده سيفه، وعممّه بعمامته، وقال: ـ

امضي لشأنك.

فلما انصرف قال: ـ

اللهم أعنه عليه.

ولما قرب منه قال مجيباً إياه عن شعره (١٩/٦٣):

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نيـــــــــة وبصـــــــــيرةٍ　　　يرجــو بــذاك نجــاة فــائز

أنـــــي لأمــــل أن أُقيـــــ　　　ـــم عليــك نائحــة الجنــائز

مـــن ضـــربة فوهـــاء يبـــ　　　ـقى ذكرهــا عنــد الهزاهــز

فقال عمرو: -

من أنت؟

وكان عمرو شيخاً كبيراً قد جاوز الثمانين، وكـان نـديم أبي طالـب بـن عبـد المطلب في الجاهلية، فانتسب علي عليه السلام له وقال: -

أنا علي بن أبي طالب.

فقال: -

- أجل، لقد كان أبوك نديماً لي، وصديقاً، فأرجع فإني لا أحب أن أقتلك.

فقال له علي عليه السلام: -

لكني أحب أن أقتلك.

فقال: -

- يا ابن أخي: - إني لأكره أن أقتل الرجـل الكـريم مثلـك، فـأرجع وراءك خير لك.

فقال علي عليه السلام: -

أن قريشاً تتحدث عنك أنك قلت: -لا يدعوني أحد إلى ثلاث إلا أجبـت، ولو واحدة منها.

قال: –

أجل.

فقال علي عليه السلام.

فإني أدعوك إلى الإسلام.

قال:

دع عنك هذه.

فقال:

فإني أدعوك إلى أن ترجع من تبعك من قريش إلى مكة.

قال:

– إذن تتحدث نساء قريش عني أن غلاماً خدعني.

قال:

فإني أدعوك إلى البراز.

فحمي عمرو، وقال:

ما كنت أظن أن أحداً من العرب يرومها مني.

ثم نزل فعقر فرسه، وقيل ضرب وجهه ففر وتجاولا، فثارت لهما غبرة وارتهما عن العيون، إلى أن سمع الناس التكبير عالياً من تحت الغبرة، فعلموا أن علياً قتله، وانجلت الغبرة عنها، وعلي عليه السلام راكب صدره يحز رأسه، وفر

أصحابه ليعبروا الخندق، فطفرت بهم خيلهم إلا نوفل بن عبد الله فأقصر فرسه، فوقع في الخندق فرماه المسلمون بالحجارة فقال: –

يا معشر الناس، قتلة أكرم من هذه.

فنزل إليه علي عليه السلام فقتله.

ولما انتشر خبر مقتل عمرو بن عبد ود رثاه شعراء من قريش منهم: –

مسافع بن عبد مناف بن زهرة بن حذافة بن جُمَح يبكي عمرو بن عبد الله بن عبدِ ودٍّ قال (٢٨٨/١٣):

عمرو بن عبدٍ كان أول فارسٍ	جزع المذاد وكان فارس ملْيَل
سمح الخلائق ما جد ذو مِرَّةٍ	يبقى القتال بشكّةٍلم ينكُلِ
ولقد علمتم حين ولوا عنكمُ	ان ابن عبد منهم لم يعجل
حتى تكنّفهالكماة وكلهم	يبغي القتال له وليس بمؤثل
ولقد تكنّفت الفوارس فارساً	بجنوب سلع غير نكس أميل
فاذهب عليّ ما ظفرت بمثلها	فخراً ولو لاقيت مثل المعضل
سأل النزال هناك فارس غالبٍ	لاقى حمام الموت لم يتحلحل
أعني الذي جزع المذاد ولم يكن	فشلاً وليس لدى الحروب بزُمَّل

وقال هبيرة بن أبي وهب المخزومي، يعتذر من فراره عن علي بن أبي طالب عليه السلام وتركه عمرواً يوم الخندق ويبكيه (٢٨٩/١٩):

لعمرك ما وليت ظهري محمداً	وأصحابه جبناً ولا خيفة القتل

ولكــنني قلبّــت أمــري فلــم أجــد — لســيفي غنــاء إن وقفــت ولا نبلــي
وقفــت ولمــا لم أجــد لــي مقــدماً — صــدرت كضــرغام هزبــر إلى شــبل
ثنـى عِطفـه عـن قرنـه حـين لم يجـد — مجـالاً وكـان الحـزم والـرأي مـن فعلـي
فـلا تبعـدن يـا عمـرو حيـاً وهالكـاً — فقـدمت محمـود الثنـا ماجـد الفعـل
ولا تبعـدن يـا عمـرو حيـاً وهالكـاً — فقد كنت في حرب العدا مرهف النصل
فمــن لطــراد تقــدع الخيــل بالقنــا — وللبــذل يومــاً عنــد قرقــرة البــذل
هنالـك لـولا كـان ابـن عمـرو لزارهـا — وفرجهـا عـنهم فتـى غـير مـا وغـل
كفتـك علـيّ مـن تـرى مثـل موقـف — وقفــت علــى شــلو المقــدم كالفحــل
فمــا ظفــرت كفــاك يومــاً بمثلــها — أمنـت بهـا مـا عشـت مـن زلّـة النعـل

وقال هبيرة بن أبي وهب أيضاً يرثي عمرواً ويبكيه (١٩/٢٨٩-٢٩٠):

لقـد علمـت عليـا لـؤي بـن غالـب — لفارســها عمــرو إذا نــاب نائــب
وفارســـها عمـــرو إذا يســـوقه — علــي، وأن المــوت لاشــك طالــب
(و) عيشـــة يـــدعوه علـــي وإنـــه — كفارســها إذ خــام عنــه الكتائــب
فيـا لهـف نفسـي أن عمـرواً لكـائن — بيثــرب لازالــت هنــاك المصــائب
لقــد أحــرز العليــا علــي بقتلــه — وللخــير يومــاً لا محالــة جالــب

وقال حسان بن ثابت الأنصاري يذكر عمرواً (١٩/٢٩٠):

أمسـى الفتـى عمـرو بـن عبـدٍ نـاظراً — كيــف العبــور وليتــه لم يعــبر
ولقــد وجــدت ســيوفنا مشــهورة — ولقــد وجــدت جيادنــا لم تقصــر

ولقـــد لقيـــت غـــداة بـــدرٍ عصـــبة ضـــربوك ضـــرباً غـــير ضـــرب الحسّـــر
أصـــبحت لا تـــدعى ليـــوم عظيمـــة يـــا عمـــرو أو لجســـيم أمـــرٍ منكـــر

وقال حسان أيضاً (٢٩٠/١٩):

لقـــد شـــقيتْ بنـــو جُمـــح بـــن عمـــروٍ ومخـــــزوم وتـــــيم مـــــا تُقيـــــل
وعمـــــرو كالحســـــام فتـــــى قـــــريش كـــــأن جبينـــــه ســـــف صـــــقيل
فتـــى مـــن نســـل عـــامر أريحـــيٌّ تطاولـــــه الأســـــنة والنصـــــول
دعـــــاه الفـــــارس المقـــــدام لمّـــــا تكشـــــفت المقانـــــب والخيـــــول
أبـــو حســـنٍ فقنّعـــه حســـاماً جـــــرازاً لا أفـــــلّ ولا نكـــــول
فغـــــادره مكبـــــاً مُســـــلَحَبّاً علـــــى عفـــــراء لا بَعِـــــدَ القتيـــــل

٤ - غزوة مؤته

بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم الحارث بن عمير الأزدي في سنة ثمانٍ إلى ملك بُصرى بكتاب، فلما نزل مؤته عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقال: –

أين تريد؟

قال: –

الشام.

قال: –

لعلك من رسل محمد؟

قال: –

نعم.

فأمر به فأُوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم رسول غيره، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم،

فاشتد عليه، وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث، فأسرعوا وخرجوا، فعسكروا بالجرف، فلما صلى صلى الله عليه وآله وسلَّم الظهر جلس وجلس أصحابه حوله، وجاء النعمان بن مهض اليهودي فوقف مع الناس فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم: –

زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قتل زيد بن حارثة، فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب ابن رواحة فليرتضِ المسلمون من بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم، فقال النعمان بن مهيض: –

يا أبا القاسم، إن كنت نبياً فسيصلب من سمّيت قليلاً كانوا أو كثيراً إن الأنبياء في بني إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا إن أصيب فلان، فلوا سموا مئة أصيبوا جميعاً، ثم جعل اليهودي يقول لزيد بن حارثة: –

إعهد فلا ترجع إلى محمد أبداً إن كان نبياً.

قال زيد: –

أشهد أنه نبي صادق.

فلما أجمعوا المسير عقد رسول الله صلى الله عليه وآله لهم اللواء بيده دفعه إلى زيد بن حارثة، وهو لواء أبيض ومشى الناس إلى أمراء رسول الله صلى الله عليه وآله يودعونهم ويدعون لهم وكانوا ثلاثة آلاف فلما ساروا في معسكرهم ناداهم المسلمون: –

دفع الله عنكم وردّكم سالمين صالحين غانمين.

فقال عبد الله بن رواحة (١٥/٦١-٦٢):

لكـــنني أســـأل الـــرحمن مغفـــرة ... وضـــربة ذات فـــرعٍ تقـــذف الزبـــدا
أو طعنـــة بيـــدي حـــران مجهـــزة ... بحربـــة تنفـــذ الأحشـــاء والكبـــدا
حتـــى يقولـــوا إذا مـــروا علـــى جـــدثي ... يـــا أرشـــد الله مـــن غـــاز إذا رشـــدا

وقد اختلف الرواة فيمن كان الأمير الأول، ومن خلال قصيدة حسان بن ثابت يظهر أن جعفر بن أبي طالب كان هو الأمير الأول ثم زيد بن حارثة فعبد الله بن رواحة، وهو ما يقول به الشيعة. قال حسان (١٥/٦٢-٦٣):

تـــأوبني ليـــل بيثـــرب أعســـر ... وهـــمٌّ إذا مـــا نُـــوِّم النـــاس مُســـهِر
لـــذكرى حبيـــب هيّمـــت لـــي عـــبرة ... ســـفوحاً وأســـباب البكـــاء التـــذكر
بلـــى إن فقـــدان الحبيـــب بليّـــة ... وكـــم مـــن كـــريم يبتلـــى ثـــم يصـــبر
فـــلا يبعـــدن الله قتلـــى تتـــابعوا ... بمؤتـــه مـــنهم ذو الجنـــاحين جعفـــر
وزيـــد وعبـــد الله حـــين تتـــابعوا ... جميعـــاً وأســـياف المنيـــة تخطـــر
رأيـــت خيـــار المـــؤمنين تـــواردوا ... شـــعوبَ وخلـــق بعـــدهم يتـــأخر
غـــداة غـــدوا بـــالمؤمنين يقـــودهم ... الى المـــوت ميمـــون النقيبـــة أزهـــر
أغـــرَّ كضـــوء البـــدر مـــن آل هاشـــم ... أبـــيٌّ إذا ســـيم الظلامـــة أصـــعر
فطـــاعن حتـــى مـــال غـــير موســـدٍ ... بمعـــترك فيـــه القنـــا منكســـر
فصـــار مـــع المستشـــهدين ثوابـــه ... جنـــان وملتـــف الحـــدائق أخضـــر
فكنـــا نـــرى في جعفـــر مـــن محمـــدٍ ... وقـــاراً وأمـــراً حازمـــاً حـــين يـــأمر

وما زال في الإسلام من آل هاشمٍ	دعائم صدق لا ترام ومفخر
همُ جبل الإسلام والناس حولهم	رضام إلى طول يطول ويقهر
بهاليل منهم جعفر وابن أُمِّه	علي ومنهم أحمد المتخير
وحمزة والعباس منهم ومنهم	عقيل وماء العود من حيث يعصر
بهم تفرج الغماء من كل مأزق	عماس إذا ما ضاق بالناس مصدر
همو أولياء الله أنزل حكمه	عليهم وفيهم والطناب المطهّر

ومنها قول كعب بن مالك الأنصاري من قصيدة أولها (١٥/٦٣ ـ ٦٤):

نام العيون ودمع عينك يهمل	سحّاً كما وكف الرباب المسبل
وجداً على النفر الذين تتابعوا	قتلا بمؤته اسندوا لم ينقلوا
ساروا إمام المسلمين كأنهم	طود يقودهم الهزبر المشبل
إذ يهتدون بجعفرٍ ولوائه	قدام أولهم ونعم الأول
حتى تقوضت الصفوف وجعفر	حيث التقى جمع الغواة مجدَّل
فتغير القمر المنير لفقده	والشمس قد كسفت وكادت تأفل
قوم علا بنيانهم من هاشمٍ	فرع أشم وسؤدد متأثل
قوم بهم عصم الإله عباده	وعليهم نزل الكتاب المنزل
فضلوا المعاشر عفةً وتكرماً	وتعمدت أخلاقهم من يجهل

وأن عبد الله بن رواحة ودع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم بشعر منه (١٥/٦٥):

فثبــت اللّه مـــا آتـــاك مـــن حســـنٍ   تثبيـت موسـى ونصـراً كالـذي نصـروا
أنـــى تفرســـت فيـــك الخيـــل نـــافرة   فراســـة خـــالفتهم في الـــذي نظـــروا
أنـــت الرســـول فمـــن يحـــرم نوافلـــه   والبشـــر منـــه فقـــد أودى بـــه القـــدر

وكان زيد بن أرقم يحدث، قال: -

كنت يتيماً في حجر عبد الله بن رواحة، فلم أر واليَ يتيم كان خيراً لي منه، خرجت معه في وجهة إلى مؤتة، وصبَّ بي وصببت به، فكان يردفني خلف رحله، فقال ذات ليلة، وهو على راحلته بين شعبتي رحله (١٥/٦٦):

إذا بلَّغـتني وحملـت رحلـي   مسـافة أربـع بعـد الحسـاء
فشـأنك فـانعمي وخـلاك ذم   ولا أرجـع إلى أهلـي ورائـي
وآب المســلمون وخلفــوني   بـأرض الشـام مشـتهر الثـواء
وزودنـي الأقـارب مـن دعـاءٍ   الى الرحمـان وانقطـع الأخـاء
هنالـك لا أبـالي طلـع نخـلٍ   ولا نخـــل أســـافلها رواء

ولما قتل جعفر بن أبي طالب وتسلم الراية عبد الله بـن رواحـة جعـل يـتردد بعض التردد، ويستقدم نفسه يستنزلها وقال:

أقسـمت يـا نفـس لتُنْزِلِنَّـه   طوعـاً وإلاّ سـوف تكرِهِنّـه
مـالي أراك تكـربن الجنّـة   إذا جلـى النـاس وشـدوا الرنّـه
قـد طالمـا قـد كنـت مطمئنّـة   هـل أنـت إلا نطفـة في شـنّه

ثم ارتجز فقال (١٥/٦٩-٧٠):

يـا نفـس إلا تقتلـي تمـوتي　　　هـذا حمـام المـوت قـد حليـتِ
ومـا تمنيـت فقـد أُعطيـتِ　　　إن تفعلـي فعلـهما هـديتِ
وان تـأخرت فقـد شـقيتِ

٥ - وقعة الجمل - مقتل عثمان

مقتل عثمان

قبل ذكر وقعة الجمل لابد من التمهيد لها في ذكر بعض ما قيل في مقتل عثمان من شعر؛ فلقوله عليه السلام من كلام له فيما ردّه إلى المسلمين من قطائع عثمان (١/٢٦٩):

((والله لو وجدته قد تُزُوِّجَ به النساء، ومُلِك به الماء، لرددته فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أهون)).

استشهد ابن أبي الحديد بالرواية التي تقول (١/٢٧٠):

إنه عليه السلام أمر بكل سلاح وُجد لعثمان في دار ه، مما تقوى به على المسلمين فقبضت، وأمر بقبض سيفه ودرعه، وأمر أن لا يعرض لسلاح وجد له لم يقاتل به المسلمين، وبالكف عن جميع أمواله التي وجدت في داره وفي غير داره، وأمر أن ترتجع الأموال التي أجاز بها عثمان حيث أصيب أو أصيب أصحابها.

ثم أستشهد بقول الوليد بن عقبة – وهو أخو عثمان من أُمه يذكر قبض علي عليه السلام نجائب عثمان وسيفه وسلاحه (١/٢٧٠-٢٧١):

بـني هاشـمٍ ردوا السـلاح ابـن أخـتكم ... ولا تنهبـــوه لا تحـــل مناهبــــه
بـــني هاشـــم كيـــف الهـــوادة بيننـــا ... وعنـــد علـــيٍّ درعـــه ونجائبـــه؟
بـــني هاشـــم كيـــف التـــودد مـــنكم ... وبـــزين أروى فـــيكمُ وصـــرائبه؟
بـــني هاشـــم إلا تـــردّوا فإننـــا ... ســـواء علينـــا قـــاتلاه وســـالبه
بـــني هاشـــم إنـــا ومـــا كـــان مـــنكم ... كصدع الصفا لا يشعب الصدع شاعبه
قتلـــتم أخـــي كيمـــا تكونـــوا مكانـــه ... كمـــا غـــدرت يومـــاً بكســـرى مرازبـــه

فأجابه عبد الله بن أبي سفيان الحارث بـن عبـد المطلـب بأبيـات طويلـة مـن جملتها:

فـــلا تســـألونا ســـيفكم إن ســـيفكم ... أضـــيع وألقـــاه لـــدى الـــروع صـــاحبه
وشـــبهته كســـرى وقـــد كـــان مثلـــه ... شـــبيهاً بكســـرى هديـــه وضـــرائبه

أي كان كافراً كما كان كسرى كافراً.

ولقوله عليه السلام: ((والله ما معاوية بـأدهى مـني، ولكنـه يغـدر ويفجـر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غُدَرةٍ فُجَرةٍ كُفَـرة؛ ولكـل غادر لواء يعرف به يوم القيامة، والله ما أُستغْفَلِ بالمكية ولا أُستُفِزَّ بالشديدة)).

أستشهد ابنُ أبي الحديدِ بالرواية التي تقول (١٠/٢٣٤):

((لما حصر عثمان أبرد مروان بـن الحكـم بخبره بريـدين، أحـدها إلى الشـام والآخر إلى اليمن - وبها، يومئذ يعلى بن منبه - ومع كل واحد منها كتاب وكتب في آخره:

وما بلغت عثمان حتى تخطمت — رجال ودانت للصغار رجال

لقد رجعت عوداً على بدء كونها — وان لم تجرّا فالمصير زوال

سيبديء مكنون الظمائر قولُهم — ويظهر منهم بعد ذاك فعال

فان تقعدا لا تطلبا ما ورثتما — فليس لنا طول الحياة مقال

نعيش بدار الذل في كل بلدةٍ — وتظهر منا كادة وهزال

وبعد ورود كتاب مروان بن الحكم على معاوية كتب إلى رؤوس قريش ومن كتب إليهم سعيد بن العاص، وكتب في آخر كتابه (١٠/٢٣٧-٢٣٨):

تالله لا يذهب شيخي باطلا — حتى أبير مالكاً وكاهلا

القاتلين الملك الحلاحلا — خير معدٍّ حسباً ونائلا

وكتب في أسفل الكتاب، الذي بعثه إلى عبد الله بن عامر (١٠/٢٣٩):

عليك سلام اللّه قيس بن عاصم — ورحمته ما شاء أن يترحما

تحية من أهدى السلام لأهله — إذا شط داراً عن مزارك سلما

فما كان قيس هلكة هلك واحدٍ — ولكنه بنيان قوم تهدما

وكتب في آخر الكتاب الذي بعثه إلى الوليد بن عقبة (١٠/٢٣٩):

أخترت نومك أن هبّت شآمية — عند الهجير وثرباً بالعشيات

على طلاب ثأراً من بني حكم — هيهات من راقد طلاب ثارات

وكتب في آخر الكتاب إلى يعلى بن أُمية (١٠/٢٤٠):

واعلم يا ابن أمية أن القوم قاصدوك بادئ بدء لاستنطاف ما حوته يداك

من المال، فاعلم ذلك واعمل على حَسَبه إن شاء الله وكتب في أسفل الكتاب:

ظل الخليفة محصوراً يناشدهم ... بالله طوراً وبالقرآن أحيانا
وقد تآلف أقوام على حنقٍ ... عن غير جرم وقالوا فيه بهتانا
وقام يُذكرهم وعد الرسول له ... وقوله فيه إسراراً وإعلانا
فقال كفوا فإني معتب لكم ... وصارفٌ عنكم يعلى ومروانا
فكذبوا ذاك منه ثم ساوره ... من حاض لبته ظلماً وعدوانا

وكتب إليه مروان جواباً عن كتابه وكتب في أسفل الكتاب (٢٤٢/١٠):

أيقتل عثمانٌ وترقى دموعنا ... ونرقد هذا الليل لا نتفزع
ونشرب برد الماء ريّاً وقد مضى ... على ظمأ يتلو القُران ويركع
فإني ومن صبح الملبوّن بيته ... وطافوا به سعياً، وذو العرش يسمع
سأمنع نفسي كل ما فيه لذةٍ ... من العيش حتى لا يرى فيه مطمع
وأقتل بالمظلوم من كان ظالماً ... وذلك حكم الله ما عنه مدفع

وكتب إليه عبد الله بن عامر، وكتب في أسفل الكتاب (٢٤٢/١٠): -

لا خير في العيش في ذل ومنقصةٍ ... والموت أحسن من ضيم ومن عار
إنا بنو عبد شمس معشر أنف ... نحرٌّ جماجمة طلاب أوتار
والله لو كان ذمياً مجاورنا ... ليطلب العز لم نقعد عن الجار
فكيف عثمان لم يدفن بمزبلةٍ ... على القمامة مطروحاً بها عار
فازحف إليَّ فإني زاحف لهمُ ... بكل أبيض ماضي الحد بتّار

وكتب إليه الوليد بن عقبة، وكتب في أسفل الكتاب (٢٤٣/١٠):

نـــومي علـــيّ محَـــرم إن لم أقـــم ... بـــدم ابـــن أمـــي مـــن دم العَـــلاّت

قامـــت علـــيّ إذا فقـــدت ولم أقـــم ... بطـــلاب ذاك مناحـــة الأمـــوات

عـذبت حيـاض المـوت عنـدي بعـدما ... كانـــت كريهـــة مـــورد الـــنهلات

وكتب إليه يعلى بن أمية، وكتب في أسفل الكتاب (٢٤٤/١٠):

لمثل هذا اليوم أوصى الناس ... لا تعطِ ضيماً أو يخر الرأس

٦ - وقعة الجمل

لما نزل علي عليه السلام ذا قار كتبت عائشة إلى حفصة بنت عمر: -

أما بعد، فأني أخبركِ أن علياً قد نزل ذا قار، وأقام بها مرعوباً خائفاً لما بلغه من عدتنا وجماعتنا، فهو بمنزلة الأشعر، إن تقدم عُقِر، وإن تأخر نحر.

فدعت حفصة جواري لها يتغنين ويضربن بالدفوف، فأمرتهن أن يقلن في غنائهن:

ما الخبرُ ما الخبرْ   عليٌّ في السفرْ

كالفرس الأشقرْ   إن تقدم عُقِرْ

وان تأخر نُحِرْ

وجعلت بنات الطلقاء يدخلن على حفصة، ويجتمعن لسماع ذلك الغناء، فبلغ أم كلثوم بنت علي عليه السلام فلبست جلابيبها، ودخلت عليهن في نسوة متنكرات، ثم أسفرت عن وجهها، فلما عرفتها حفصة خجلت واسترجعت، فقالت أم كلثوم: -

لئن تظاهرتما عليه منذ اليوم، لقد تظاهرتما على أخيه من قبل فأنزل الله فيكما ما أنزل.

فقالت حفصة: -

كفى رحمك الله.

فأمرت بالكتاب فخُرِق، واستغفرت الله.

فقال سهل بن حنيف في ذلك هذه الأشعار (١٤/١٣-١٤):

عذرنا الرجال بحرب الرجال ... فما للنساء وما للسباب؟

أما حسبنا ما أتينا به ... لكِ الخير من هتك ذاك الحجاب

ومخرجها اليوم من بيتها ... يعرفها الذنب نبح الكلاب

إلى أن أتانا كتاب لها ... مشوم فيا قبح ذاك الكتاب

وقالت أخت علي بن عدي، من بني عبد العزى بن عبد شمس وكان أخوها علي بن عدي من شيعة علي عليه السلام في جملة عسكره (١٧/١٤):

لاهُمَّ فاعقر بعليٍّ جمله ... ولا تبارك في بعير حمله

ألا علي بن عديّ ليس له

ثم أجمع علي عليه السلام على المسير من الربذة إلى البصرة، فقام إليه رفاعة بن رافع فقال: -

يا أمير المؤمنين؛ أي شيء تريد؟ وأين تذهب بنا؟

قال عليه السلام:

أما الذي نريد وننوي فإصلاح، إن قبلوا منا وأجابوا إليه.

قال: -

فإن لم يرضوا؟

قال عليه السلام:

ندعهم ما تركونا.

قال: -

فإن لم يتركونا؟

قال عليه السلام:

نمتنع عنهم.

قال:

فنعم إذاً.

وقام الحجاج بن غزية الأنصاري، فقال: والله يا أمير المؤمنين لأرضينك بالفعل، كما أرضيتني منذ اليوم بالقول، ثم قال: -

دراكها دراكها قبل الفوت فانفر بنا وأسمُ بنا نحو الصوت

لا وألت نفسي أن خفت الموت

والله لننصرن الله - عز وجل - كما سمانا أنصارا.

وقد ذكر أبو مخنف لوط بن يحيى في كتاب وقعة الجمل، جملة أشعار وأراجيز في هذه الوقعة، منها (١/١٤٣-١٤٧):

قول عبد الله بن سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

ومنّا عليٌّ ذاك صاحب خيبر وصاحب بدرٍ يوم سالت كتائبه
وصيٌّ النبي المصطفى وابن عمّه فمن ذا يدانيه ومن ذا يقاربه؟

وقول عبد الرحمن بن جعيل: –

لعمري لقد بايعتمُ ذا حفيظةٍ على الدين معروف العفاف موفقا
علياً وصيَّ المصطفى وابن عمّه وأول من صلى أخا الدين والتقى

وقول ابن الهيثم بن تيهان، كان بدرياً: –

قل للزبير وقل لطلحة إننا نحن الذين شعارنا الأنصار
نحن الذين رأت قريش فعلنا يوم القليب أولئك الكفار
كنا شعار نبينا ودثاره يفديه منا الروح والأبصار
إن الوصي أمامنا ودليلنا برح الخفاء وباحت الأسرار

وقول عمرو بن حارثة الأنصاري، وكان مع محمد بن الحنفية يوم الجمل، وقد لامه أبوه عليه السلام لما أمره بالحملة فتقاعس:

أبا حسن أنت فصل الأمور بين بك الحل و المحرم
جمعت الرجال على رايةٍ بها أبنك يوم الوغى مقحم
ولم ينكص المرء من خيفةٍ ولكن توالت له أسهم
فقال رويداً فلا تعجلوا فإني إذا رشقوا مقدم
فأعجلته والفتى مجمع بما يكره الوجل المحجم

سميُّ النبي وشبه الوصي ورايته لونها العندم

وقول رجل من الأزد:

هذا عليٌّ وهو الوصيُّ أخاه يوم النجوى النبيُّ

وقال هذا بعدي الوليُّ وعاه واعٍ ونسي الشقي

وخرج يوم الجمل غلام من بني ضبة شاب معلم من عسكر عائشة، وهو يقول:

نحن بني ضبة أعداء علي ذاك الذي يعرف قدماً بالوصي

وفارس الخيل على عهد النبي ما أنا من فضل عليّ بالعمي

لكنني أنعى ابن عفان التقي أن الولي طالب ثأر الولي

وقول سعيد بن قيس الهمداني - وكان من عسكر علي عليه السلام:

أية حربُ ظهرت نيرانها وكسّرت يوم الوغى مُرّانها

قل للوصي أقبلت قحطانها فادعُ بها تكفيكها همدانها

همُ بنوها وهمُ إخوانها

وقول زياد بن لبيد الأنصاري - من عسكر الأمام علي عليها السلام:

كيف ترى الأنصار في يوم الطلب إنّا أناسٌ لا نبالي من عطب

ولا نبالي في الوصي من غضب وإنما الأنصار جدٌّ لا لعب

هذا علي وابن عبد المطلب ننصره اليوم على من قد كذب

من يكسب البغي فبئسما اكتسب

وقول حجر بن عدي الكندي :

يــا ربنــا ســلم لنــا عليــا ... ســلم لنــا المبــارك المضّــيا
المــؤمن الموحــد التقيــا ... لا خطــل الــرأي ولا غويــا
بــل هاديــاً موفقــاً مهــديا ... واحفظه ربي واحفظ النبيا
فيــه فقــد كــان لــه وليــا ... ثــم ارتضــاه بعــده وصــيا

وقول خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين، وكان بدرياً :

لـيس بـين الأنصـار في حجـة الحـرب ... وبـــين العـــداة إلا الطعـــان
وقــراع الكمــاة بالقضــب البــيض ... إذا مــــا تحطــــم المُـــرّان
فأدعهــا تســتجب فلــيس مــن الخــز ... رج والأوس يــــا علــــي جبــــان
يــا وصــي الــنبي قــد أجلــت الحــرب ... الأعـــادي وســـادت الأضـــعان
واســـتقامت لـــك الأمـــور ســـوى ... الشــام وفي الشــام يظهــر الإذعــان
حســـبهم مـــا رأوا وحســـبك منـــا ... هكـــذا نحـــن حيـــث كنـــا وكـــانوا

وقوله أيضاً :

أعـــائش خلـــي عـــن علـــي وعيبـــه ... بمــا لــيس فيــه إنمــا أنــت والــده
وصـــي رســـول الله مـــن دون أهلـــه ... وأنـتِ علـى مـا كـان مـن ذاك شـاهده
وحبـــك منـــه بعـــض مـــا تعلمينـــه ... ويكفيـك لـو لم تعلمـي غـير واحـده
إذا قيـــل مـــاذا عبـــتِ رميتـــه ... بخـذل ابـن عفـان ومـا تلـك آبـده
ولـــيس ســمـــاء الله قـــاطرة ومـــا ... لـذاك ومـا الأرض الفضـاء بمائـده

وقول ابن بديل بن ورقاء الخزاعي:

يا قوم للحظة العظمى التي حدثت   حرب الوصي وما للحرب من آسي
الفاصل الحكم بالتقوى إذا ضربت   تلك القبائل أخماساً لأسداس

وقول عمرو بن أميمة يوم الجمل في خطبة الحسن بن علي عليه السلام بعد خطبة عبد الله بن الزبير:

حسن الخير يا شبيه أبيه   قمت فينا مقام خير خطيب
قمت بالخطبة التي صدع الله   بها عن أبيك أهل العيوب
وكشفت القناع فأفتضح الأمر   واصلحت فاسدات القلوب
لست كابن الزبير لجج في القول   وطاطا عنان فسل مريب
وأبى الله أن يقوم بما قام   به ابن الوصي وابن النجيب
أن شخصاً بين النبي - لك الخير   وبين الوصي غير مشوب

وقول زهير بن قيس الجعفي:

أضربكم حتى تقري لعلي   خير قريش كلها بعد النبي
من زانه الله وسماه الوصي   إن الولي حافظ ظهر الولي
كما القوي تابع أمر القوي

كتب الإمام علي عليه السلام إلى عامله في البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري بقدوم طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ليطالبوا بدم عثمان، وطلب منه أن يستوضح منهم سبب قدومهم وأن يدعوهم إلى الطاعة والرجوع إلى

الوفاء بالعهد والميثاق، فبعث عثمان أبا الأسود الدؤلي وعمران بن الحصين الخزاعي إلى عائشة ورهطها فكلماها وكلما طلحة والزبير ولما لم ينفع معهم النصح والإرشاد قال أبو الأسود الدؤلي لعثمان بن حنيف (٣١٣/٩ـ٣١٤):

يا ابن حنيف قد أتيت فانفرِ وطاعن القوم وجالد وأصبرِ

وأبــرز لهــا مســتلئماً وشمّــرِ

فقال ابن حنيف: اي والحرمين لأفعلن، وأمر مناديه فنادى في الناس:

-السلاح السلاح!

فاجتمعوا إليه وقال أبو الأسود الدؤلي:

أتينا الزبير فداني الكلام وطلحة كالنجم أو أبعد

وأحسن قوليهما فادح يطيق به الخطب مستنكد

وقد وعدونا بجهد الوعيد فأهون علينا بما أوعدوا

فأن تلقموا الحرب بين فملقمها حدها الأنكد

وأن علياً لكم مصحرٌ ألا أنه الأسد الأسود

أما أنه ثالث العابدين بمكة والله لا يُعبد

فرخّوا الخناق ولا تعجلوا فأن غداً لكم موعد

برز علي عليه السلام يوم الجمل، فنادى بالزبير:

يا أبا عبد الله، مراراً، فخرج الزبير، فتقاربا حتى اختلفت أعناق خيلهما، فقال له علي عليه السلام:

ـ إنما دعوتك لأذكرك حديثاً قاله لي ولك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، أتذكر يوم رآك وأنت معتنقي فقال لك: ـأتحبه؟ قلت: ومالي لا أُحبه وهو أخي وابن خالي!

فقال (أما أنك ستحاربه وأنت ظالم له).

فاسترجع الزبير وقال:

اذكرتني ما أنسانيه الدهر.

ورجع إلى صفوفه، فقال له عبد الله ابنه،

لقد رجعت إلينا بغير الوجه الذي فارقتنا به!

فقال:

أذكرني عليّ حديثاً أنسانيه الدهر فلا أحاربه أبداً، وإني لراجع وتارككم منذ اليوم.

فقال له عبد الله:

ما أراك إلا جبنت عن سيوف بني عبد المطلب، إنها لسيوف حداد تحملها فتية أنجاد.

فقال الزبير:

ـ ويلك اهجني على حربه؟ أما أني حلفت أن لا أحاربه.

قال:

كفرّ عن يمينك؛ لا تتحدث نساء قريش أنك جبنت، وما كنت جباناً.

فقال الزبير:

غلامي مكحول حرٌ كفارة عن يميني،

ثم أنصل سنان رمحه وحمل على عسكر علي عليه السلام برمح لاسنان له فقال علي عليه السلام:

أفرجوا له فانه محرج.

ثم عاد إلى أصحابه، ثم حمل ثانية، ثم ثالثة، ثم قال لابنه:

أجبناً ويلك ترى.

فقال:

لقد أعذرت (١/١٣٣ـ١٣٤).

لما أذكر علي عليه السلام الزبير بما ذكره به ورجع الزبير، قال:

نادى عليٌ بأمر لست أنكره ... وكان عمر أبيك الخير مذ حين

فقلت حسبك من عذلٍ أبا حسنٍ ... بعض الذي قلت منذ اليوم يكفين

تلك الأمور التي تخشى مغبتها ... والله أمثل في الدنيا وفي الدين

فاخترت عاراً على نارٍ مؤججة ... أنى يقوم لها خلق من الطين

ولما أنصرف الزبير عن حرب علي عليه السلام، مرَّ بوادي السباع فاتبعه عمر بن جرموز، وكان فاتكاً، فسار ابن جرموز معه، فلما حضرت الصلاة وقام الزبير إليها شد ابن جرموز عليه فقتله، وأخذ رأسه وخاتمه وسيفه، وجاء إلى علي عليه السلام، ولما علم الإمام أنه هو الذي قتله قال:

– والله ما كان ابن صفية جباناً ولا لئيماً، ولكن الحين ومصارع السوء، ثم قال:

ناولني سيفه فناوله فهزه، وقال: –

سيف طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم

فقال ابن جرموز: –

الجائزة يا أمير المؤمنين.

فقال:

أما أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم يقول ((بشر قاتل ابن صفية بالنار)) فخرج ابن جرموز خائباً وقال (١/١٣٥–١٣٦): –

أتيت علياً برأس الزبير	أبغي به عنده الزلفه
فبشر بالنار يوم الحساب	فبئست بشارة ذي التحفه
فقلت له أن قتل الزبير	لولا رضاك من الكلفه
فان ترض ذاك فمنك الرضا	وإلا فدونك لي حلفه
ورب المحلين والمحرمين	ورب الجماعة والألفه
لسيان عندي قتل الزبير	وضرطة عنز بذي الجحفة

ثم خرج ابن جرموز على علي عليه السلام مع أهل النهروان، فقتله معهم فيمن قتل، وكان الزبير وطلحة قد قاما في الناس، فقالا: –

إن علياً إن يظفر فهو فناؤكم يا أهل البصرة فاجمعوا حقيقتكم، فأنه لا

يبقى حرمة إلا انتهكها، ولا حريماً إلا حكته، ولا ذرية إلا قتلها ولا ذوات خدر إلا سباهن، فقاتلوا مقاتلة من يحمي عن حريمه ويختار الموت على الفضيحة يراها في أهله.

فخرج من أهل البصرة شيخ صبيح الوجه، نبيل، عليه جبّة وشيءٍ، يحض الناس على الحرب، ويقول (١/٢٥٥-٢٥٦):

يا معشر الأزد عليكم أمكم	فأنها صلاتكم وصومكم
والحرمة العظمى التي تعمكم	فاحضروها جدكم وحزمكم

وقال أبو مخنف: -

لم يقل أحد من رجاز البصرة قولاً كان أحب إلى أهل الجمل من قول هذا الشيخ، استقتل الناس عند قوله، وثبتوا حول الجمل، وانتدبوا فخرج عوف بن قطن الضبي؛ وهو ينادي:

ليس لثمان ثأر إلا علي بن أبي طالب وولده.

فاخذ خطام الجمل وقال:

يا أم يا أم خلا مني الوطن	لا أبتغي القبر ولا أبغي الكفن
من ها هنا معشر عوف بن قطن	أن فاتنا اليوم عليٌّ فالغبن
أو فاتنا ابناه حسين وحسن	إذاً أمت بطول همٍّ وحزن

ثم تقدم فضرب بسيفه حتى قتل، وتناول عبد الله بن أبزي خطام الجمل، وكان من أراد الجد في الحرب وقاتل قتال مستميت يتقدم إلى الجمل فيأخذ بخطامه،

ثم شد على عسكر علي عليه السلام وقال:

أضربهم ولا أرى أبا حسن ها إن هذا حزن من الحزن

فشد عليه علي أمير المؤمنين عليه السلام بالرمح فطعنه فقتله وقال: –

قد رأيت أبا حسن، فكيف رأيته؟

وترك الرمح فيه.

وكان عمرو بن يثرب الضبي أخذ بخطام الجمل فدفعه إلى ابنه ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه علباء بن هيثم السدوسي فقتله عمرو، ثم دعا إلى البراز فخرج إليه هند بن عمر الجملي فقتله عمرو، ثم دعا إلى البراز، فقال زيد بن صوحان العبدي لعلي عليه السلام:

يا أمير المؤمنين، إني رأيت يداً أشرفت علي من السماء وهي تقول: هلم إلينا، وأنا خارج إلى ابن يثرب، فإذا قتلني فادفني بدمي ولا تغسلني فإني مخاصم عند ربي، ثم خرج فقتله عمرو، ثم رجع إلى خطام الجمل مرتجزاً يقول (١/٢٥٨-٢٥٩):

أرديت علباء وهندا في طلق ثم ابن صوصان خضيباً في علق

قد سبق اليوم لنا ما قد سبق والوتر منا في عدي ذا الفرق

والأشتر الغاوي وعمرو بن الحمق والفارس المعلم في الحرب الحنق

ذاك الذي في الحادثات لم يطق أعني علياً ليته فينا مزق

وأن عمرواً لما قتل من قتل وأراد أن يخرج لطلب البراز، قال للأزد:

- يا معشر الأزد إنكم قوم لكم حياء وبأس، وأني قد وترت القوم، وهم قاتلي، وهذه أمكم نصرها دين، وخذلانها عقوق ولست أخشى أن أقتل حتى أصرع، فإن صرعت فاستنقذوني.

فقال له الأزد:

ما في الجمع أحد نخافه عليك إلا الأشتر.

قال:

فإياه أخاف.

فقيضه الله له، فقد علما جميعاً فارتجز الأشتر:

أني إذا ما الحرب أبدت وأغلقت يوم الوغى أبوابها

ومزقت من حنقٍ أثوابها كنا قداماها ولا أذنابها

ليس العدو دوننا أصحابها من هابها اليوم فلن أهابها

لاطعنها أخشى ولا ضرَّابها

ثم حمل عليه فطعنه فصرعه فحامت عنه الأزد فاستنقذوه فوثب وهو وقيد ثقيل فلم يستطع أن يدفع عن نفسه واستعرضه عبد الرحمن بن طود البكري، فطعنه فصرعه ثانية، ووثب عليه رجل من سدوس فأخذه مسحوباً برجله حتى أتى به علياً عليه السلام فناشده الله فقال:

يا أمير المؤمنين أعفُ عني فإن العرب لم تزل قائلة عنك إنك لم تجهز على جريح قط، فأطلقه، وقال:

إذهب حيث شئت، فجاء إلى أصحابه وهو لما به، ولما انكشفت الحرب شكرت أبنة عمرو بن يثربي الأزد وعابت قومها، فقالت:

يا ضب إنك قد فجعت بفارسٍ حامي الحقيقة قاتل الأقران
عمرو بن يثربٍ الذي فجعت به كل القبائل من بني عدنان
لم يحمه وسط العجاجة قومه وحنت عليه الأزد أزد عمان
فلهم عليّ بذاك حادث نعمةٍ ولحبهم احببت كل يماني
لوكان يدفع عن منية هالكٍ طول الأكف بذابل المُرّان
أو معشر وصلوا الخطا بسيوفهم وسط العجاجة والحتوف دوان
ما نيل عمروٌ والحوادث جمة حتى ينال النجم والقمران
لوغير الأشتر ناله لندبته وبكيته ما دام هضب أبان
لكنه من لا يعاب بقتله أسد الأسود وفارس الفرسان

وخرج عبد الله بن خلف الخزاعي، وهو رئيس البصرة وأكثر أهلها مالاً وضياعاً، فطلب البراز، وسأل أن لا يخرج إليه إلا علي عليه السلام، وارتجز فقال:

أبا تراب أدنُ مني فترا فإنني وأن إليك بشرا
وأن في صدري عليك عمرا

فخرج علي عليه السلام فلم يمهله أن ضربه ففلق هامته.

وروي أن شعاره عليه السلام كان في ذلك اليوم ((قسم لا ينصرون اللهم

انصرنا على القوم الناكثين)).

وفي اليوم الثالث خرج أول الناس عبد الله بن الزبير ودعا إلى المبارزة فبرز إليه الأشتر، فقالت عائشة:

من برز إلى عبد الله؟

قالوا:

-الأشتر.

فقالت:

وا ثكل أسماء.

فضرب كل منهما الآخرفجرحه، ثم اعتنقا فصرع الأشتر عبد الله وقعد على صدره، واختلط الفريقان، هؤلاء لينقذوا عبد الله وهؤلاء ليعينوا الأشتر.

وكان الأشتر طاوياً ثلاثة أيام لم يطعم، وهذه عادته في الحرب، وكان أيضاً شيخاً عالي السن، فجعل عبد الله ينادي:

أقتلوني ومالكاً ... واقتلوا مالكاً معي

وأفلت ابن الزبير من تحته ولم يكد، فذلك قول الأشتر (١/٢٦٢-٢٦٣):

أعائش لولا أنني كنت طاوياً ... ثلاثاً لألفيت ابن أختك هالكا

غداة ينادي والرجال تحوزه ... بأضعف صوت اقتلوني ومالكا

فلم يعرفوه إذ دعاهم وغمّه ... خدَبٌّ عليه في العجاجة باركا

فنجاه مني أكله وشبابه ... وأني شيخ لم أكن متماسكا

وقالــت علــى أي الخصــال جرعتــه بقتــلٍ أتــى أم ردة لا أبــا لكــا
أم المحصــن الزانــي الــذي حـل قتلـه فقلـت لهـا لابـد مـن بعـض ذلكـا

والبيتان الأخيران جواب على سؤال عائشة من مالك بن الحارث الأشتر بعد انقضاء أمر الجمل، هو أنه هو الذي صنع بابن أختها ابن الزبير ما صنع فأجابها:

- نعم، ولولا أنني كنت طاوياً ثلاثة أيام لا رحت أمة محمد منه، فذكرته بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله إذ قال: ((لا يحل دم مسلم إلا بأحد ثلاثة أمور: كفر بعد أيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير حق))

فقال الأشتر:

على بعض هذه الثلاثة قاتلناه يا أم المؤمنين.

وقال ذلك الشعر.

وانتهى الحارث بن زهير الأزدي من أصحاب علي عليه السلام إلى الجمل ورجل آخذ بخطامه لا يدنوا منه أحد إلا قتله، فلما رآه الحارث بن زهير مشى إليه بالسيف وارتجز فقال لعائشة (٢٦٤/١):

يــا أمنــا أحــقَّ أمٍ نعلــم والأم تغـذو ولـدها وتـرحم
أمـا تـرين كـم شـجاع يكلـم وتُختلـى هامتـه والمعصـم

فاختلف هو والرجل ضربتين فكلاهما أثخن صاحبه.

فخرج خباب بن عمرو الراسبي، وهو من عسكر أهل البصرة (٢٦٤/١):

أضــربهم ولــو أرى عليــا عممتــه أبــيض مشــرفيا

أربـــح منـــه معشـــراً غويـــا

فصمد عليه الأشتر فقتله.

ثم تقدم عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد العاص بن أمية بن عبد شمس، وهو من أشراف قريش – وكان اسم سيفه (وَلْوَل) فارتجز فقال (١/٢٦٥):

أنـا ابـن عتـاب وسـيفي ولـول   والمـوت دون الجمـل المجلّـل

طاف علي عليه السلام على أصحابه وهو يقرأ آيات من القرآن ما تشد من عزيمتهم ثم رفع مصحفاً بيده فقال: –

من يأخذ هذا المصحف فيدعوهم إلى ما فيه، وله الجنة؟ ، فقام غـلام اسمه (مسلم) عليه قباء أبيض، فقال:

أنا آخذه.

فنظر إليه علي عليه السلام وقال:

إن أخذته فيدك اليمنى تقطع فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع ثم تضرب بالسيف حتى تقتل.

فقال:

لا صبر لي على ذلك.

فنادى علي ثانية، فقام الغلام، أعاد عليه القول، أعاد الغلام القول مـراراً، حتى قال الغلام:

أنا آخذه، وهذا الذي ذكرت في الله قليل.

فأخذه وانطلق، فلما خالطهم ناداهم: -

هذا كتاب الله بيننا وبينكم فضربه رجل فقطع يده اليمنى فتناوله باليسرى فضربه آخر فقطع اليسرى فاحتضنه فضربوه بأسيافهم حتى قتل، فقالت أم ذريح العبدية في ذلك (٩/١١٢):

يا رب إن مسلماً أتاهم — بمصحف أرسله مولاهم
للعدل والأيمان قد دعاهم — يتلو كتاب الله لا يخشاهم
فخضبوا من دمه ضباهم — وأمهم واقفة تراهم
تأمرهم بالغي لا تنهاهم

وكان الإمام علي عليه السلام قد مر بطلحة وهو يكبد بنفسه، فوقف عليه فقال: -

أما والله إن كنت لأبغض أن أراكم مصرعين في البلاد، ولكن ما حتم واقع ثم تمثل (٩/١١٣-١١٤):

وما تدري إذا أزمعت أمراً — بأي الأرض يدركك المقيل
وما يدري الفقير متى غناه — ولا يدري الغني متى يعيل
وما تدري إذا ألحقت شولاً — أتنتج بعد ذلك أم تحيل

وقيل أن حكيم بن جبلة - ويعد أشجع العرب - أنه قطعت رجله يوم الجمل فأخذها بيده، وزحف على قاتله فضربه بها حتى قتله وهو يقول (١٨/٥٦):

يـــا نفــــس لا تراعــــي إن قطعــــــت كراعــــي

إن معــــــــي ذراعــــــــي

فلا يعرف في العرب أحد صنع صنيعه.

دفع أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل رايته إلى محمد ابنه وقد استوت الصفوف وقال له:

احمل.

فتوقف قليلاً، فقال له:

احمل.

فقال:

يا أمير المؤمنين أما ترى السهام كأنها شآبيب المطر؟

فدفع في صدره فقال:

أدركك عرق من أمك.

ثم أخذ الراية فهزها، ثم قال:

اطعـن بهـا طعـن أبيـك تحمـدِ لا خير في الحرب إذا لم توقد

ثم حمل وحمل الناس خلفه فطحن عسكر البصرة، وبعد أن ضعضع أركان عسكر الجمل، دفع إلى محمد الراية وقال:

امسح الأولى بالأخرى، وهذه الأنصار معك، وضم إليه خزيمة بن ثابت ذا

الشهادتين، في جمع من الأنصار، كثر منهم من أهل بدر، فحمل حملات كثيرة أزال بها القوم عن مواقعهم وأبلى بلاءً حسنا، فقال الأنصار:

يا أمير المؤمنين، لولا ما جعل الله - تعالى - للحسن والحسين لما قدمنا على محمد أحداً من العرب.

فقال خزيمة بن ثابت فيه (١/٢٤٣-٢٤٥):

محمد ما في عودك اليوم وصمة ... ولا كنت في الحرب الضروس معرِّدا
أبوك الذي لم يركب الخيل مثله ... عليٌّ، وسماك النبي محمدا
فلو كان حقاً من أبيك خليفة ... لكنت، ولكن ذاك ما لا يرى بدا
وأنت بحمد الله أطول غالب ... لساناً، وأنداها بما ملكت يدا
وأقربها من كل خيرٍ تريده ... قريش وأوفاها بما قال موعدا
وأطعنهم صدر الكمي برمحه ... وأكساهمُ للهام عضباً مهندا
سوى أخويك السيدين كلاهما ... من الأرض أو في الأوج مرقى ومصعدا

ومن الأراجيز المحفوظة يوم الجمل لعسكر البصرة قول بعضهم (١٢٥٤-٢٥٥):

نحن بني ضبة أصحاب الجمل ... ننازل الموت إذا الموت نزل
ننعى ابن عفان بأطراف الأسل ... ردوا علينا شيخنا ثم بَجَل
الموت أحلى عندنا من العسل ... لا عار في الموت إذا حان الأجل
إن علياً هو من شر البدل ... إن تعدلوا بشيخنا لا يعتدل

أيـــــن الـــــو هـــــاد وشمـــــاريخ القلـــــل

فأجابه رجل من عسكر الكوفة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام

نحـــن قتلنـــا نعـــثلاً فـــيمن قُتـــل   أكثـــر مـــن أكثـــر فيـــه أو أقـــل

أنـــى يُـــرَد نعثـــل وقـــد قحـــل   نحـــن ضـــربنا وســـطه حتـــى انجـــدل

لحكْمِـــه حكـــم الطواغيـــت الأول   آثـــر في الفـــيء وجـــافى في العمـــل

فأبـــدل اللّه بـــه خـــير بـــدل   أنـــي أمـــرؤ مســـتقدم غـــير وكـــل

مشـــمر للحـــرب معـــروف بطـــل

ومن أراجيز أهل البصرة:

يـــا أيهـــا الجنـــد الصـــليب الإيمـــان   قومـــوا قيامـــاً واســـتغيثوا الـــرحمن

أنـــي أتـــاني خـــبر ذو ألـــوان   أن عليـــاً قتـــل ابـــن عفـــان

ردوا إلينـــا شـــيخنا كمـــا كـــان   يـــا رب وأبعـــث ناصـــراً لعثمـــان

يقتلـــــهم بقـــــوة وســـــلطان

فأجابه رجل من عسكر الكوفة:

أبـــت بيـــوت مـــذحج وهمـــدان   بـــأن تـــرد نعـــثلاً كمـــا كـــان

خلقـــاً ســـوياً بعـــد خلـــق الـــرحمن   وقـــد قضـــى بـــالحكم حكـــم الشـــيطان

وفـــارق الحـــق ونـــور الفرقـــان   فـــذاق كـــأس المـــوت شـــرب الظمـــآن

ومن الرجز المشهور المقول يوم الجمل، قاله أهل البصرة:

يـــا أُمنـــا عـــاش لا تراعـــي   كـــل بنيـــك بطـــل المِصـــاع

وحولــــك اليــــوم رجـــال شـــنوه   وحـــي همـــدان رجـــال الهبـــوه
والمـــالكيون القليلـــو الكبـــوه   والأزد حـــي لـــيس فـــيهم نبـــوه

ونختتم فقرة (وقعة الجمل) بقوله عليه السلام: (دماؤكم زعاق)، أي ملح.

وهذا وإن لم يكن من أفعالهم إلا أنه مما تذم به المدينة، ولا ذنب لأهلها في أنها بلاد الحمى والسباع، كما قال الشاعر (١/٢٥٢):

بـــلاد بهـــا الحمـــى وأســـد عرينـــة   وفيهـــا المعلـــى يعتـــدي ويجـــور
فـــأني لمـــن قـــد حـــل فيهـــا لـــراحم   وانـــي لمـــن لم يأتهـــا لنـــذير

ولقوله عليه السلام عند خروجه لقتال أهل البصرة (٢/١٨٥):

((ما لي ولقريش؟ والله لقد قاتلتهم كافرين، وأقاتلهم مفتونين)).

استشهد بقول هاشم بن عتبة المرقال، يذكر نفور أهل الكوفة إلى علي عليه السلام (٢/١٨٨):

وســـرنا إلى خـــير البريـــة كلـــها   علـــى علمنـــا إنّـــا إلى الله نرجـــع
نـــوقّره في فضـــله ونجلّـــه   وفي الله مـــا نرجـــو ومـــا نتوقـــع
ونخصـف إخفـاق المطـي علـى الوجـا   وفي الله مـــا نرجـــو وفي الله نرجـــع
دلفنـــا بجمـــع آثـــروا الحـــق والهـــدى   إلى ذي تقـــى في نصـــره نتســـرع
نكـــافح عنـــه والســـيوف شـــهيرة   تصـــافح اعنـــاق الرجـــال فتقطـــع

٧ - وقعة صفين

١ - الوصي : - قبل الخوض في واقعة صفين أرى أن أذكر بعض الشعر الذي ذكر الإمام علي عليه السلام بعدِّهِ وصياً بعدَ الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلَّم وهو واحد من الأدلة على أحقية الإمام بخلافة المسلمين.

ذكر نصر بن مزاحم بن يسار المنقري في كتابه (صفين) جملة من الأشعار تتضمن تسميته عليه السلام بالوصي، وقال نصر بن مزاحم، قال زهير بن قيس الجعفي (١/١٤٧) :

فصلى الإله على أحمد　　رسول المليك تمام النعمْ
رسول المليك ومن بعده　　خليفتنا القائم المُدَّعَمْ
علياً عنيت وصي النبي　　بجالد عنه غواة الأممْ

ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث بن قيس :

أتانا الرسول رسول الإمام　　فسرَّ بمقدمه المسلمونا
رسول الوصي وصي النبي　　له الفضل والسبق في المؤمنينا
بما نصح الله والمصطفى　　رسول الإله النبي الأمينا

يجاهـــد في الحـــق لا ينـــثني　　جميـــع الطغـــاة مـــع الجاحـــدينا
وصــــي الـــنبي وذو صـــهره　　وســـيف المنيـــة في الظالمينـــا
وكـــم بطـــل ماجـــد قـــد أذاق　　منيـــة حتـــفٍ مـــن الكافرينـــا
وكـــم فـــارسٍ كـــان ســـال النـــزال　　فـــآب الى النـــار في الآيبينـــا
فـــذاك علـــيٌّ إمـــام الهـــدى　　وغيـــث البريـــة والمقحمينـــا
وكـــان إذا مـــا دعـــا للنـــزال　　كليـــث عـــرين يـــزين العرينـــا

ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث أيضاً (١/١٤٨) :

أتانـــا الرســـول رســـول الوصـــي　　علـــيٍّ المهـــذب مـــن هاشـــمِ
رســـول الوصـــي وصـــي الـــنبي　　وخـــير البريـــة في العـــالمِ
وزيـــر الـــنبي وذو صـــهره　　وخـــير البريـــة مـــن قـــائمِ
لـــه الفضـــل والسبق في الصـــالحات　　لهـــدي الـــنبي بـــه يـــأتمي
محمـــداً أعـــني رســـول الإلـــه　　وغيـــث البريـــة والخـــاتمِ
أجبنـــا عليـــاً بفضـــل لـــه　　وطاعـــة نصـــح لـــه دائـــمِ
فقيـــهٌ حلـــيمٌ لـــه صـــولة　　كليـــث عـــرين بهـــا ســـائمِ
حلـــيم عفيـــف وذو نجـــدةٍ　　بعيـــد مـــن الغـــدر والمـــأثمِ

١ - الوقعة : - بعد أن انتهى الإمام عليه السلام من وقعة الجمل قدم إلى الكوفة يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة مضت من رجب سنة ست وثلاثين. . . ومعه أشراف الناس وأهل البصرة، استقبله أهل الكوفة وفيهم قراؤهم وأشرافهم فنزل

الرحبة وأقبل حتى دخل المسجد الأعظم فصلى فيه ركعتين ثم صعد المنبر وخطب وان علياً عليه السلام حين قدم من البصرة نزع جريراً همدان، فجاء حتى نزل الكوفة؛ فأراد علي عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولاً فقال له جرير:

ابعثني إلى معاوية فإنه لم يزل مستنصحاً وودا فآتيه فأدعوه على أن يسلم لك هذا الأمر، ويجامعك على الحق، على أن يكون أميراً من أمرائك وعاملاً من عمالك.

وعلى الرغم من معارضة الأشتر بعثهُ عليه السلام وقال له حين أراد أن يبعثه:

-إن حولي من أصحاب رسول الله عليه السلام من أهل الدين والرأي من رأيت، وقد اخترتك عليهم لقول رسول الله عليه السلام فيك: ((إنك من خير ذي يمن، أيت معاوية بكتابي، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلا فانبذ إليه وأعلمه أني لا أرضى به أميراً. وأن العامة لا ترضى به خليفة.

فانطلق جرير إلى الشام وسلم معاوية كتاب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بعد أن ألقى كلمة موجزة دعا إلى مبايعة الإمام علي عليه السلام.

فقرأه وأغتم بما فيه، وذهبت به أفكاره كل مذهب، وطاول صبراً بالجواب عن الكتاب، حتى كلَّم قوماً من أهل الشام في الطلب بدم عثمان فأجابوه ووثّقوا له. واستشار أخاه عتبة بن أبي سفيان، فقال له: -

استعن بعمرو بن العاص.

فكتب إليه معاوية يستقدمه ليستشيره، ولما قدم كتاب معاوية إلى عمرو استشار ابنيه عبد الله ومحمد، فأشار عليه عبد الله بعدم الذهاب فيما أشار محمد عليه بالذهاب، فقال عمرو:

أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني، وأنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي، وأنا ناظر.

فلما جنّه الليل رفع صوته وأهله يسمعون فقال (٢/٦٢-٦٣):

تطاول ليلي بالهموم الطوارقِ ... وخوف التي تجلو وجوه العوائق
وإن ابن هند سالني أن أزوره ... وتلك التي فيها بنات البوائق
أتاه جرير من عليٍ بخطةٍ ... أمرّت عليه العيش ذات مضائق
فإن نال مني ما يؤمل ردّه ... وان لم ينله ذلّ ذُلَّ المطابق
فو الله ما أدري وماكنت هكذا ... أكون ومهما قادني فهو سابق
أخادعه أن الخداع دنية ... أم أعطيه من نفسي نصيحة وامق
أم أقعد في بيتي وفي ذاك راحة ... لشيخ يخاف الموت في كل شارق
وقد قال عبد الله قولاً تعلقت ... به النفس إن لم تقتطعني عوائق
وخالفه فيه أخوه محمد ... وإني لصُلب العود عند الحقائق

على الرغم من نصيحة غلامه وردان بلزوم بيته بقوله:

فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك.

أقول، على الرغم من ذلك رحل إلى معاوية وهو يقول (٢/٣٦):

ياقاتل الله وردانـاً وقدحته ... أبدى لعمرك ما في النفس وردان

لما تعرضت الدنيا عرضت لها ... بحرص نفسي وفي الأطباع أدهان

نفسي تعف وأخرى الحرص يغلبها ... والمرء يأكل تبناً وهو غرثان

أما عليٌّ فدين ليس يَشَرِكُه ... دنيا وذاك له دنيا وسلطان

فاخترت من طريف دنياً على بصرٍ ... وما معي بالذي أختار برهان

أني لأعرف ما فيها وأبصره ... وفيَّ أيضاً لما أهواه ألوان

لكن نفسي تحب العيش في شرف ... وليس يرضى بذل العيش إنسان

عندما التقى معاوية في الشام قال له:

-أبا عبد الله طرقتنا في ليلتنا ثلاثة أخبار ليس فيها ورد ولا صدر

قال عمرو:

وما ذاك؟

قال معاوية:

منها أن محمداً بن حذيفة كسر سجن مصر فخرج هو وأصحابه، وهو من آفات هذا الدين، ومنها أن قيصراً زحف بجماعة الروم ليغلب على الشام، ومنها أن علياً نزل الكوفة وتهيأ للمسير إلينا.

فقال عمرو:

ليس كل ما ذكرت عظيماً؛ أما ابن أبي حذيفة، فما يتعاظمك من رجل

خرج في أشياعه أن تبعث اليه رجلاً يقتله، أو يأتيك به، وإن قاتل لم يضرك وأما قيصر فاهدِ له الوصائف وآنية الذهب والفضة، وسيلة الموادعة، فإنه إليها سريع، وأما علي والله يا معاوية ما يسوى العرب بينك وبينه في شيء من الأشياء، وان له في الحرب لحظاً ما هو لأحدٍ من قريش، وإنه لصاحب ما هو فيه إلا أن تظلمه.

قال معاوية لعمرو:

- يا أبا عبد الله: إني أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله وشق عصا المسلمين، وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرق الجماعة وقطع الرحم.

فقال عمرو:

من هو؟

قال:

علي ...

قال:

والله يا معاوية ما أنت وعلي بحملي بعير، ليس لك هجرته ولا سابقته، ولا صحبته ولا جهاده، ولا فقهه ولا علمه، والله أن له - مع ذلك - لحظاً في الحرب ليس لأحدٍ غيره، ولكن قد تعودت من الله تعالى إحساناً وبلاءً جميلاً؛ فما تجعل لي إن شايعتك على حربه، وأنت تعلم ما فيه من الغَرر والخطر؟

قال:

حكمَك .

فقال:

مصر طعمة.

فتلكأ عليه معاوية وقال له: ـ

- يا أبا عبد الله إني أكره لك أن تتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا.

قال عمرو:

لا، لعمر الله ما مثلي يخدع، لأنا أكيس من ذلك.

قال معاوية:

إدنُ مني أسارك.

فدنا منه عمرو ليساره، فعض معاوية أذنه وقال:

هذه خدعة! هل ترى في البيت أحداً؟ ليس غيري وغيرك.

فأنشأ عمرو يقول (٢/٦٤ـ٦٦):

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل ... به منك دينا فانظرن كيف تصنع

فان تعطني مصراً فأربح بصفقةٍ ... أخذت بها شيخاً يضر وينفع

وما الدين والدنيا سواء وإنني ... لآخذ ما تعطي ورأسي مقنَّع

ولكنني أغضي الجفون وأنني ... لآخد، كلا، والمخادع يخدع

وأعطيك أمراً فيه للملك قوةٌ ... وأكفي أن زلت النعل أصرع

وتمنعني مصراً وليست برغبةٍ ... وأني بذا الممنوع قدماً لمولع

فقال معاوية:

يا أبا عبد الله، أما تعلم أن مصر مثل العراق؟

قال:

بلى، ولكنها إنما تكون لي إذا كانت لك، إنما تكون لك، إذا غلبت علياً على العراق.

وقد كان أهل مصر بعثوا بطاعتهم إلى علي عليه السلام.

فلما حضر عتبة بن أبي سفيان، قال لمعاوية:

-أما ترضى أن تشتري عمرواً بمصر إن هي صفت لك؟ ليتك لا تغلب على الشام.

فقال معاوية:

-يا عتبة بِتْ عندنا الليلة.

فلما جنَّ الليل على عتبة رفع صوته ليسمع معاوية، وقال (٢/٦٦-٦٧):

أيها المانع سيفاً لم يُهز ... إنما ملت على خزٍّ وقز

إنما أنت خروف ماثلٌ ... بين ضرعين وصوف لم يُجز

اعطِ عمرواً إن عمرواً تارك ... دينه اليوم لدنيا لم تُحز

يا لك الخير فزن من درّةٍ ... شخبة الأول وابعد ما غرز

واسحب الذيل وبادر فوقها ... وانتهزها إن عمرواً ينتهز

اعطه مصراً وزده مثلها ... إنما مصر لمن عزَّ فبز

واتـــرك الحـــرص عليهـــا ضـّـــلةً   واشـــبب النـــار لمقـــرور يُكـــز
إن مصــــــراً لعلـــــيٍ أو لنـــــا   يغلـــب اليـــوم عليهـــا مـــن عجـــز

فلما سمع معاوية قول عتبة، أرسل إلى عمرو فأعطاه مصر.

وكان لعمرو بن العاص عمٌّ من بني سهم، وهو فتىً شاب، وكان داهية حليماً، وجاءه من مصر فلما جاء عمرو بالكتاب مسروراً عجب الفتى، وقال:

ألا تخبرني يا عمرو بأي رأي نعيش في قريش؟ أعطيت دينك وعفيت ديناً غيرك! أتري أهل مصر - وهم قتلة عثمان - يدفعوها إلى معاوية وعليٌّ حي؟ وأتراها إن صارت لمعاوية لأخذها بالحرف الذي قدمه في الكتاب؟

فقال عمرو:

- يا ابن أخي إن الأمر لله دون علي ومعاوية. فقال الفتى (٢/٦٨-٦٩):

ألا يـــا هنـــد أخـــت بـــني زيـــاد   رُمـــي عمـــرو بداهيـــة الـــبلاد
رمـــي عمـــرو بـــأعور عبشـــميٍ   بعيـــد القعـــر مغشـــي الكبـــاد
لـــه خُـــدع يحـــار العقـــل منهـــا   مزخرفــــة صــــوائد للفــــؤاد
فشـــرَّط في الكتـــاب عليـــه صـــرفاً   يناديــــه بخدعتــــه المنــــادي
وأثبـــت مثلـــه عمـــرو عليـــه   كـــلا المـــرأين حيـــة بطـــن واد
ألا يـــا عمـــرو مـــا أحـــرزت مصـــراً   ولا ملـــتَ الغـــداة إلى الرشـــاد
وفـــدتَ إلى معاويـــة بـــن حـــربٍ   فكنـــت بهـــا كوافـــد قـــوم عـــاد
وأعطيـــت الـــذي أعطيـــت منهـــا   بطـــرسٍ فيـــه نصـــح مـــن مـــداد

ألم تعــــرف أبــــا حســــنٍ عليـــــاً ... ومـــا نالـــت يـــداه مـــن الأعـــادي
عـــدلت بـــه معاويـــة بـــن حـــربٍ ... ويـــا بُعـــد البيـــاض مـــن الســـواد!
ويـــا بُعـــد الأصـــابع مـــن ســـهيلٍ ... ويـــا بُعـــد الصـــلاح مـــن الفســـاد!
أتـــأمن أن تـــذال علـــى خِـــدَبٍّ ... يحـــث الخيـــل بالأســـل الحـــداد
ينـــادي بـــالنزال وأنـــت منـــه ... قريـــب فـــأنظرن مَـــن ذا تعـــادي

فقال عمرو:

يا ابن أخي، لو كنت عند علي لوسعني، ولكني الآن عند معاوية.

قال الفتى:

انك لو لم تُرد معاوية لم يردك؛ ولكنك تريد دنياه وهو يريد دينك.

وبلغ معاوية قول الفتى فطلبه فهرب فلحق بعلي عليه السلام فحدَّثـهُ أمره فسُرَّ به وقرّبه، فغضب مروان وقال:

ما بالي لا أُشترى كما أشتري عمرو؟

فقال معاوية:

إنما يشترى الرجال لك.

فلما بلغ علياً ما صنع معاوية قال (٢/٦٩ـ٧٠):

يـــا عجبـــاً لقـــد سمعـــت منكـــرا ... كـــذبا علـــى الله يشـــين الشـــعرا
يشـــرق الســـمع ويعشـــي البصـــرا ... مـــا كـــان يرضـــى أحمـــداً لـــو أُخـــبرا
أن يقرنـــوا وصـــيّه والأبـــترا ... شـــاني الرســـول والوصـــي الأخـــزرا

كلاهمـــا في جنــده قــد عســكرا ... قـــد بـــاع هـــذا دينـــه فـــأفجرا
مـــن ذا بـــدنيا بيعـــه قـــد خســـرا ... يملـــك مصـــر إن أصـــاب الظفـــرا
أنـــي إذا المـــوت دنـــا أو أحضـــرا ... شمـــرت ثـــوبي أو دعـــوت قنـــبرا
قـــدم لـــوائي لا تـــؤخر حـــذرا ... لايـــدفع الحـــذار مـــا قـــد قُـــدِّرا
لمـــا رأيـــت المـــوت موتـــاً أحمـــرا ... عبـــأت همـــدان وعبّـــوا حمـــيرا
حـــيٌّ يمـــانٍ يعظـــون الخطـــرا ... قِـــرن إذا نـــاطح قرنـــاً كســـرا
قـــل لأبـــن حـــرب لا تـــدب الخمـــرا ... ارود قلـــيلاً أبـــدِ منـــك الضـــجرا
لا تحســـبن يـــا ابـــن هنـــد غمـــرا ... وســـل بنـــا بـــدراً بنـــا وخيـــبرا
يـــوم جعلنـــاكم ببـــدرٍ جـــزرا ... إذ وردوا المـــر فـــذموا الصَّـــدَرا
لـــو ان عنـــدي يـــا ابـــن هنـــد جعفـــرا ... أوحمـــزة القـــرم الســـهام الأزهـــرا

رأت قـــريش نجـــم ليـــل أظهـــرا

ودعا معاوية بعض أصحابه وخاصته من رؤوس قحطان واليمن وبني عم شرحبيل بن السمط، فأمرهم أن يلقوه ويخبروه أن علياً قتل عثمان، فلما قدم كتاب معاوية على شرحبيل، وهو بحمص، استشار أهل اليمن فاختلفوا عليه، فقام إليه عبد الرحمن بن غنم الأزدي، وهو صاحب معاذ بن جبلة وختنه، وكان أفقه أهل الشام، ودعا شرحبيل أن يسير إلى علي عليه السلام فيبايعه عن الشام وقومه شرحبيل إلا أن يسير إلى معاوية، فكتب إليه عياض الثمالي، وكان ناسكاً (٧٢-٧١/٢):

يـا شـرح يـا ابـن السـمط إنـك بـالغ بـود علـيٍّ مـا تريـد مـن الأمـر
وشـرح أن الشـام شـامك مـا بهـا سـواك فـدع عنـك المضلل مـن فهـر
فـإن ابـن هنـد ناصـب لـك خدعـة تكـون علينـا مثـل راغيـة البكـر
فـان نـال مـا يرجـو بنـا كـان ملكنـا هنيئـاً لـه، والحـرب قاصـمة الظهـر
فـلا تـبغين حـرب العـراق فإنهـا تحـرِّم أطهـار النسـاء مـن الزهـر
وإن عليـاً خـير مـن وطـئ الثـرى مـن الهـاشميين المـدارك للـوتر
لـه في رقـاب النـاس عهـد وذمـة كعهـد أبـي حفـصٍ وعهـد أبـي بكـر
فبـايع ولا ترجـع علـى العقـب كـافراً أعيـذك بـالله العزيـز مـن الكفـر
ولا تسـمعن قـول الطغـاة فـإنهم يريـدون أن يلقـوك في لجـة البحـر
ومـاذا علـيهم أن تطـاعن دونهـم وكنـا بحمـد الله مـن وَلَـد الطهـر
وإن غُلبـوا لم يصـل بالخطـب غيرنـا وكـان علـيٌّ حربنـا آخـر الـدهر
يهـون علـى عليـا لـؤي بـن غالـب دمـاء بـني قحطـان في ملككـم تجـري
فـدع عنـك عثمـان بـن عفـان إنمـا لـك الخـير لا تـدري بأنـك لا تـدري
علـى أي حـال كـان مصـرع جنبـه فـلا تسـمعن قـول الأعيـور أو عمـرو

ولما أبطأ جرير عند معاوية على الإمام كتب إلى جرير بعد ذلك:

"أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل معاوية على الفصل، وخذه بالأمر الجزم، ثم خيره بين حرب مُجْلية أو سلم مُحظية فإن اختار الحرب فانبذ له، وإن اختار السلم فخذ بيعته".

فلما انتهى الكتاب إلى جرير أتى معاوية فأقرأه الكتاب، فقال له: يا معاوية أنه لا يطبع على قلب إلا بذنب، ولا يشرح صدر إلا بتوبة، ولا أظن قلبك إلا مطبوعاً، أراك وقفت بين الحق والباطل كأنك تنتظر شيئاً في يدي غيرك.

فلما بايع أهل الشام وذاقهم قال معاوية:

يا جرير الحق بصاحبك.

وكتب إليه وكتب أسفل كتابه بقول كعب بن جعيل شاعر أهل الشام (١٢٧/٢ ـ ١٢٨):

أرى الشام تكره أهل العراق	وأهل العراق لهم كارهونا
وكل لصاحبه مبغض	يرى كل ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهمو	ودنّاهمو مثلما يقرضونا
وقالوا عليٌّ إمام لنا	فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لنا	فقلنا ألا لا نرى أن ندينا
ومن دون ذلك خرط القتاد	وطعن وضرب يقر العيونا
وكلٌّ يُسُرُّ بما عنده	يرى غث ما في يديه سمينا
وما في عليّ لمستعتب	مقال سوى ضمِّهِ المحدثينا
وإيثاره اليوم أهل الذنوب	ورفع القصاص من القاتلينا
إذا سيل عنه حذا شبهةً	وعمى الجواب على السائلينا
فليس براضٍ ولا ساخطٍ	ولا في النهاة ولا الآمرينا

ولا هـــــو ســـــاء ولا ســـــرَّهُ   ولابــد مــن بعــض ذا أن يكونــا

وكان مع الإمام علي عليه السلام رجل من طي، ابن أخت لجرير، فحمَّل زهير بن قيس (حامل كتاب الإمام إلى جرير) شعراً له إلى خاله جرير وهو (٣/٧١-٧٢):

جرير بن عبد الله لا تردد الهدى   وبايع علياً إنني لك ناصح

فإن علياً خير من وطئ الحصا   سوى أحمد، والموت غادٍ ورائح

ودع عنك قول الناكثين فإنما   أولاك - أبا عمرو - كلاب نوابح

وبايع إذا بايعته بنصيحةٍ   ولا يك منها في ضميرك قادح

فإنك إن تطلب به الدين يقضهِ   وإن تطلب الدنيا فإنك رابح

وان قلت عثمان بن عفان حُقَّه   علي عظيم والشكور مناصح

وحق علياً إذ وليك كحقه   وشكرك ما أوليت في الناس صالح

وإن قلت لا أرضى علياً إمامنا   فدع عنك بحراً ضل فيه السوابح

أبى الله إلا أنه خير دهره   وأفضل من ضمّت عليه الأباطح

وكان جرير بن عبد الله البَجَلي قد خطب في أهل همدان فأخبرهم أن الولاية تمّت لعلي عليه السلام غير أن (طلحة والزبير نقضا بيعته...) وألّبا عليه الناس ثم لم يرضيا حتى نصبا له الحرب، ثم قال (٣/٧٢-٧٣):

أتانا كتاب عليٍّ فلم   نرد الكتاب بأرض العجم

ولم نعصِ ما فيه لمّا أتى   ولّما نذم ولّما نلم

ونحـــــن ولاة علـــــى ثغرنـــــا نضـــيم العزيـــز ونحمـــي الـــذمم
نســـاقيهم المـــوت عنـــد اللقـــاء بكـــأس المنايـــا ونشـــفي القـــرم
طحنَّـــاهمُ طحنـــةً بالقنـــا وضـــرب ســـيوف تطـــير اللمـــم
مضـــينا يقينـــاً علـــى ديننـــا وديـــن الـــنبي مجلِّـــي الظلـــم
أمـــين الإلـــه وبرهانـــه وعـــدل البريـــة والمعتصـــم
رســـول المليـــك ومـــن بعـــده خليفتنـــا القـــائم المُـــدَّعَمْ
علـــي عَنَيْـــتُ وحُيِّـــي الـــنبي نجالـــد عنـــه غـــواة الأمـــمْ
لـــه الفضـــل والســـبق والمكرمـــات وبيـــت النبـــوة لا يُهْتَضَـــمْ

فسُرَّ الناس بخطبة جرير وشعره.

وقال ابن الأزور القسري في جرير يمدحه في ذلك (٧٣/٣):

لعمـــر أبيـــك والأنبـــاء تُنمـــى لقـــد جلّـــى بخطبتـــه جريـــر
وقـــال مقالـــة جـــدعت رجـــالاً مـــن الحـــيين خطـــبهم كـــبير
بـــدابك قبـــل أمتـــه علـــيٌّ وفخّـــك أن أردت الحـــق ريـــر
أتـــاك بـــأمره زحـــر بـــن قـــيسٍ وزحـــر بـــالتي حـــدثت خـــبير
فكنـــت بمـــا أتـــاك بـــه سميعـــاً وكـــدت إليـــه مـــن فـــرح تطـــير
فأنـــت بمـــا ســـعدت بـــه وزيـــر ونعـــم المـــرء أنـــت لـــه أمـــير
فـــأحرزت الثـــواب، ورب حـــادٍ حـــدا بالركـــب لـــيس لـــه بعـــير
ليهنـــك مـــا ســـقيت بـــه رجـــال مـــن العليـــاء والفضـــل الكـــبير

وبعد أيام من خطبته جرير ودعوته أهل الشام ومعاوية إلى مبايعة علي عليه السلام خطب معاوية في أهل الشام ودعاهم إلى الأخذ بثأر عثمان والى مبايعته، فقام أهل الشام فأجابوه إلى الطلب بدم عثمان، فلما أمسى معاوية أغتم بما هو فيه وجنّه الليل وعنده أهل بيته، فقال (٣/٧٣):

تطاول ليلي واعترتني وساوسي ... لآتٍ أتى بالترهات البسابس

أتانا جرير والحوادث جمّة ... بتلك التي فيها أجتداع المعاطس

أكابده والسيف بيني وبينه ... ولست بأثواب الدنيِّ بلابس

إنِ الشام أعطت طاعة يمنية ... تواضعها أشياخنا في المجالس

فان يجمعوا أصدمْ علياً بجبهة ... تفُتُّ عليها كل رطب ويابس

وأني لأرجو خير ما نال نائل ... وما أنا من ملك العراق بآيس

وألا يكون عند ظني بنصرهم ... وأن يخلفوا ظني كف عابس

اجتمع شرحبيل بجرير بن عبد الله البجلي عند حصين بن نمير بناء على طلب الأول فقال شرحبيل:

يا جرير. أتيتنا بأمر ملفّف لتلقنا في لهوات الأسد، واردت أن تخلط الشام بالعراق، وأطريت علياً، وهو قاتل عثمان، والله سائلك عما قلت يوم القيامة.

فقال جرير: -

يا شرحبيل، أما قولك أني جئت بأمر ملفّف، فكيف يكون ملفّفاً وقد أجتمع عليه المهاجرون والأنصار، وقوتل على ردّه طلحة والزبير! وأما قولك أني

القيك في لهوات الأسد، ففي لهواتها ألقيت نفسك، وأما خلط أهل الشام بالعراق فخلطهما على حقٍ خير من فرقتهما على باطل.

فبلغ ما قالاه إلى معاوية فبعث إلى جرير فزجره. . . فكتب جرير كتاباً إلى شرحبيل قال فيه (٣/٨٠-٨١):

شرحبيل يا ابن السمط لا تتبع الهوى — فما لك في الدنيا من الدين من بدل
لاتك كالمجُري إلى شر غاية — فقد خُرِّق السربال واستنوق الجمل
وقل لأبن حرب مالك اليوم خَلّة — تروم بها ما رمت وأقطع بها الأمل
شرحبيل أن الحق قد جدَّ جدُّه — فكن فيه مأمون النديم من النفل
وأرود ولا تفرط بشيءٍ نخافه — عليك، ولا تعجل، فلا خير في العجل
مقال ابن هند في علي عضيهة — ولله في صدر ابن أبي طالب أجل
وما من علي في ابن عفان سقطة — بقول، ولا مالاً عليه ولا قتل
وما كان إلا لازماً نصر بيته — إلى أن أتى عثمان في داره الأجل
فمن قال قولاً غير هذا فحسبه — من الزور والبهتان يعض الذي أحتمل
وصي رسول الله من دون أهله — ومن باسمه في أهله يضرب المثل

ولما قرأ شرحبيل الكتاب ذعر وفكر، وقال:

هذه نصيحة لي في ديني ودنياي، ولا والله لا أعجِّل في هذا الأمر بشيء في نفسي منه حاجة، فاستتشر له القوم.

ولفّف له معاوية الرجال يدخلون إليه ويخرجون، ويعظون عنده قتل عثمان

ويرمون به علياً، ويقيمون الشهادة الباطلة، والكتب المختلقة حتى أعادوا رأيه وشحذوا عزمه، وبلغ ذلك قومه فبعث ابن أخت له من بارق، وكان يرى رأي علي بن أبي طالب عليه السلام فبايعه بعد، وكان ممن لحق من أهل الشام، وكان ناسكاً، فقال (٣/٨١-٨٢):

لعمر أبي الأشقى ابن هند لقد رمى ... شرحبيل بالسهم الذي هو قاتله
ولفّق قوماً يسحبون ذيولهم ... جميعاً وأوى الناس بالذنب فاعله
فألفى يمانياً ضعيفاً نخاعه ... إلى كل ما يهوى تحدى رواحله
فطأطأ لها لما رموه بثقلها ... ولا يرزق التقوى من الله خاذله
ليأكل دنيا لأبن هند بدينه ... ألا وابن هند قبل ذلك آكله
وقالوا عليٌّ في ابن عفان خدعةً ... ودبت إليه في الشنان غوائله
ولا والذي آوى ثبيراً مكانه ... لقد كَفَّ عنه كفّه ووسائله
وما كان إلا من صحاب محمدٍ ... وكلهم تغلي عليه مراجله

[ومع هذا كله]جعل شرحبيل يستنهض مدائن الشام حتى أستفرغها لا يأتي على قوم إلا قبلوا ما أتاهم به، فبعث إليه النجاشي بن الحارث وهو الذي حدّه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لشربه الخمر، وكان صديقاً له (أي للنجاشي) فقال (٣/٨٣):

شرحبيل ما للدين فارقت أمرنا ... ولكن لبغض المالكي جرير
وشحناء دبت بين سعد وبينه ... فأصبحت كالحادي بغير بعير
وما أنت إذ كانت بجيلة عاقبت ... قريشاً فيا لله بُعدَ نصير

أتفضل أمراً عبت عنه بشبهةٍ وقد صار فيها عقل كل بصير
يقول رجال لم يكونوا أئمة ولا للتي لفُّو لها بحضور
وما قول قوم غائبين تقاذفوا من الغيب ما ولاهمُ بغرور
ونترك أن الناس أعطوا عهودهم علياً على أُنسٍ به وسرور
إذا قيل هاتوا واحداً تقتدونه نظيراً له لم يفصحوا بنظير
لعلك أن تشقى الغداة بحربةٍ شرحبيل ما ما جئته بصغير

ودخل شرحبيل بن السمط الأسود بن جبلة الكندي على معاوية وطالبه أن يعلن طلباً بدم عثمان، فنصحه جرير بن عبد الله -وكان حاضراً - بالتمهل ولكنه يئس من معاوية ومن عوام أهل الشام وكان معاوية قد أتي جريراً قبل ذلك في منزله فقال له: -

يا جرير، أني قد رأيت رأياً.

قال: -

- هاته.

قال: -

أكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ومصر جباية، فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده في عنقي بيعة وأسلم له هذا الأمر؛ وأكتب إليه بالخلافة.

فقال جرير: -

أكتب ما أردت أكتب معك.

فكتب علي عليه السلام إلى جرير: -

- أما بعد فإنما أراد معاوية أن لا يكون في عنقه بيعة، وأن يختار من أمره ما أحب، وأراد أن يريثك ويبطئك حتى يذوق أهل الشام، وأن المغيرة بن شعبة قد كان أشار عليَّ أن أستعمل معاوية على الشام، وأنا حينئذ بالمدينة، فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله أن يراني أتخذ المضلين عضداً، فأن بايعك الرجل؛ وإلا فاقبل والسلام.

وفشا كتاب معاوية في العرب، فبعث إليه الوليد بن عقبة (٣/٨٤-٨٥):

معاويَ إن الشام شامك فاعتصم ... بشامك لا تُدخِل عليك الأفاعيا
وحامِ عليها بالصوارم والقنا ... ولاتك موهون الذراعين واهيا
وأن علياً ناظر ما تجيبه ... فأهدِ له حرباً تشيب النواصيا
وإلا فسلم أن في السلم راحة ... لمن لا يريد الحرب فاختر معاويا
وأن كتاباً يا ابن حرب كتبته ... على طمع؛ يزجي اليك الدواهيا
سألت علياً فيه ما لن تناله ... ولو نلته لم يبق إلا لياليا
وسوف ترى منه التي ليس بعدها ... بقاء فلا تكثر عليك الأمانيا
أمثل علي تعتريه بخدعةٍ ... وقد كان ما جربت من قبل كافيا؟

وكتب الوليد بن عقبة إلى معاوية أيضاً يوقظه ويشير عليه بالحرب، وألاّ يكتب جواب جرير (٣/٨٥-٨٦):

معاويَ أن الملك قد جب غاربة ... وأنت بما في كفك اليوم صاحبه

أتـــاك كتـــاب مـــن علـــيٍّ بخطـــه | هـــي الفصـل فـأختر سـلمه أو تحاربـه
فـــلا تـــرجُ عنـــد الـــواترين مـــودة | ولا تـــأمن اليـــوم الـــذي أنـــت راهبـــه
وحاربـه أن حاربـت حـرب ابـن حـرة | وإلاّ فســـــلم لا تـــــدب عقاربـــــه
فـــأن عليـــاً غـــير ســـاحب ذيلـــه | علـــى خدعـــة مـــا ســـوّغ المـــاء شـــاربه
وإلا مـــــا مـــــا يريـــــد وهـــــذه | يقـــوم بهـــا يومـــاً عليـــه نوادبـــه
فـــلا تـــدعنَّ الملـــك والأمـــر مقبـــل | وتطلـــب مـــا أعيـــت عليـــك مذاهبـــه
فـــان كنـــت تنـــوي أن تجيـــب كتابـــه | فقُـــبَّح ممليـــه وقُـــبِّح كاتبـــه
وأن كنـــت تنـــوي أن تـــردَّ كتابـــه | وأنـــت بـــأمرٍ لامحالـــة راكبـــه
فـــالقِ إلى الحـــي اليمـــانيِّ كلمـــة | تنـــال بهـــا الأمـــر الـــذي أنـــت طالبـــه
تقـــول: أمـــير المـــؤمنين أصـــابه | عـــدوٌّ ومـــالاه عليـــه أقاربـــه
أفـــانين مـــنهم قاتـــل ومحـــرض | بـــلا تـــرة كانـــت وآخـــر ســـاحبه
وكنـــت أمـــيراً قبـــل بالشـــام فـــيكمُ | فحســـبي وإيـــاكم مـــن الحـــق واجبـــه
فجيئـــوا، ومـــن أرســـى ثـــبيراً مكانـــه | نـــدافع بحـــراً لا تُـــرد غواربـــه
فأقلـل وأكثـر مالهـا اليـوم صـاحب | سـواك، فصـرح لسـت ممـن تواريـه

وخرج جرير يوماً يتجسس الأخبار؛ فإذا هو بغلام يتفلّى على قعود له، وهو يقول (٨٦/٣):

حكـــيم وعمّـــار الشـــجا ومحمـــد | وأشـــتر والمكشـــع جـــروا الـــد واهيـــا
وقـــد كـــان فيهـــا للـــزبير عجاجـــة | وصـــاحبة الأدنـــى أثـــاروا الـــد واهيـــا

فأمـــا علـــيٌّ فاســـتجار ببيتـــه ... فـــلا آمـــرٌ فيهـــا ولم يـــك ناهيـــا
فقل في جميع الناس ما شئت بعده ... فلو قلت أخطا الناس لم تك خاطيا
وأن قلـــت عـــمَّ القـــوم فيـــه بفتنـــةٍ ... فحسـبك مـن ذاك الـذي كـان كافيـا
فقـــولاً لأصـــحاب الـــنبي محمـــد : - ... وخصـا الرجـال الأقـر بـين الأدانيـا
أيقتـــل عثمـــان بـــن عفـــان بيـــنكم ... علـــى غـــير شـــيء لـــيس إلا تعاميـــا
فـــلا نـــوم حتـــى نســـتبيح حـــريمكم ... ونخضـــبَ مـــن أهـــل الشـــنان العواليـــا

فقال جرير :

يا ابن أخي من أنت؟

فقال : -غلام من قريش، وأصلي من ثقيف، إن ابن المغيرة بن الأخنس بن شُرَيق، قتل مع عثمان يوم الدار.

فعجب جرير من شعره وقوله. وكتب بذلك إلى علي عليه السلام فقال علي عليه السلام :

والله ما أخطأ الغلام شيئاً.

وقد سبق أن نقلنا أنه لما بايع معاوية أهل الشام، وبعد أن ذاقهم قال :

يا جرير الحق بصاحبك.

وكتب إليه بالحرب وكتب في أسفل الكتاب شعر كعب بن جعيل :

أرى الشـــام تكـــره أهـــل العـــراق ... وأهـــل العـــراق لهـــم كـــار هونـــا

وكتب مع جرير إلى علي جواباً عن كتابه إليه، مما قال فيه :

ولعمري ليس حججك عليَّ كحججك على طلحة والزبير، لأنهما بايعاك ولم أبايعك، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، لأن أهل البصرة أطاعوك ولم يطعك أهل الشام، فأما شرفك في الإسلام، وقرابتك من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وموضعك من قريش فلست أدفعه.

ثم كتب في آخر الكتاب شعر كعب بن جعيل الذي أوله (٣/٨٧–٨٨):

أرى الشام تكره أهل العراق — وأهل العراق لهم كار هونا

فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام جواباً عن كتابه، ومما قال فيه:

وبعد، فما أنت وعثمان؟ إنما أنت رجل من بني أُمية، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه، فأن زعمت أنك أقوى على ذلك فأدخل فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكم القوم اليَّ. وأما تمييزك بينك وبين طلحة والزبير، وبين أهل الشام وأهل البصرة، فلعمري ما الأمر فيما هناك إلا سواء، لأنها بيعة شاملة لا يستثني فيها الخيار، ولا يستأنف فيها النظر، وأما شرفي في الإسلام وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وموضعي من قريش، فلعمري لو استطعت دفعه لدفعته.

ثم دعا النجاشي، أحد بني الحارث بن كعب، أن يرد على ابن جعيل، شاعر أهل الشام، فقال النجاشي يجيبه (٣/٨٩):

دعاً يا معاويَ ما لم يكونا — فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم عليٌّ بأهل العراق — وأهل الحجاز فما تصنعونا
على كل جرداء خيفانةٍ — وأشعث نهد يسر العيونا

عليهـــــا فـــــوارس مخشـــــيةً كأســـد العـــرين جمـــين العرينـــا
يـــرون الطعـــان خـــلال العجـــاج وضـــرب الفـــوارس في النقـــع دينـــا
همـــو هزمـــوا الجمـــع جمـــع الـــزبير وطلحـــــة والمعشـــــر الناكثينـــــا
وأكـــوا يمينـــــاً علـــــى حلفـــــةٍ لنهـــدي إلى الشـــام حربـــاً زبونـــا
تشـــيب النواهـــد قبـــل المشـــيب وتلقـــي الحوامـــل منهـــا الجنينـــا
فـــان تكرهـــوا الملـــك ملـــك العـــراق فقـــد رضـــي القـــوم مـــا تكرهونـــا
فقـــــل للمضـــــل مـــــن وائـــــلٍ ومـــن جعـــل الغـــث يومـــاً سمينـــا
جعلـــــتم عليـــــاً وإشـــــباعه نظـــير ابـــن هنـــد أمـــا تســـتحونا؟
إلى أفضـــل النـــاس بعـــد الـــنبي وصـــــنو الرســـــول مـــــن العالمينـــــا
وصـــــهر الرســـــول ومـــــن مثلـــــه إذا كـــــان يـــــوم يشـــــيب القرونـــــا

وقبل أن نبدأ بشعر ورجز الحرب نرى مواصلة أسبابها ومحفزاتها وأستنهاض الهمم في كلا الجانبين؛ إذ قال نصر بن مزاحم :

لما قتل عثمان ضربت الركبان الى الشام بقتله، فيها معاوية يوماً إذا أقبل الحجاج بن خزيمة بن الصمة فقال رجزاً ومعاوية يسمع (٣/٩١) :

أن بـــني عمـــك عبـــد المطلـــب هـــم قتلـــوا شـــيخكم غـــير كـــذب
وأنـــت أولى النـــاس بالوثـــب فثـــب وأغضـــب معـــاوي للإلـــه واحتســـب
وســـر بنـــا ســـير الجريـــر المثلئـــب وأنهـــض بأهـــل الشـــام ترشـــد وتصـــب

ثـــم أهـــزز الصـــعدة للشـــأس الشـــغب

ثم قال الحجاج لمعاوية:

- إنك لتقوى على عليٍّ بدون ما يقوى به عليك؛ لأن معك قوماً لا يقولون إذا قلت، ولا يسألون إذا أمرت؛ وإن مع علي قوماً يقولون إذا قال ويسألون إذا أمر، فقليل ممن معك خير من كثير ممن معه.

فضاق معاوية صدراً بما أتاه، وندم على خذلان عثمان وقال (٣/٩٢-٩٣):

أتاني أمر فيه للنفس غمّة	وفيه بكاء للعيون طويل
وفيه فناء شامل وخزاية	وفيه أجتداع للأنوف أصيل
مصاب أمير المؤمنين وهدّة	تكاد له صم الجبال تزول
فلله عيناً من رأى مثل هالك	أصيب بلا ذنب وذاك جليل
تداعت عليه بالمدينة عصبة	فريقان منهم قاتل وخذول
دعاهم فصموا عنه عند دعائه	وذاك على ما في النفوس دليل
ندمت على ما كان من تبغى الهوى	وقصريَ فيه حسرة وعويل
سأبغي أبا عمرو بكل مثقفٍ	وبيض لها في الدارعين صليل
تركتك للقوم الذين همُ همُ	شجاك فماذا بعد ذاك أقول؟
فلست مقيماً ما حييت ببلدة	أجرُّ بها ذيلي وأنت قتيل
فلا لوم حتى تُشجَر الخيل يالقنا	ويشفي من القوم الغواة غليل
ونطحنهم طحن الرحا بثفالها	وذاك بما أسدوا إليك قليل

فامـــا الـــتي فيهـــا مـــودة بيتنـــا   فلـــيس اليهـــا مـــا حيـــت ســـبيل
ســـآلقها حربـــاً عوانـــاً ملحّـــة   وأنـــي بهـــا مـــن عامنـــا لكفيـــل

وكتب الوليد بن عقبة إلى معاوية يستبطئه في الطلب بدم عثمان ويحرضه وينهاه عن قطع الوقت بالمكاتبة (٣/٩٤):

ألا أبلـــغ معاويـــة بـــن حـــربٍ   فأنـــك مـــن أخـــي ثقـــة ملـــيم
قطعـــت الـــدهر كالســـدم المعنّـــى   تهـــدر في دمشـــق ولا تـــريم
فأنـــك والكتـــاب إلى علـــيٍّ   كدابغـــة وقـــد حلـــم الأديـــم
فقومـــك بالمدينـــة قـــد تـــردّوا   فهـــم صـــدعى كـــأنهم الهشـــيم
فلـــو كنـــت المصـــاب وكـــان حيـــاً   تجـــرد لا الـــفّ ولا سَـــؤوم
يهنئـــك الأمـــارة كـــل ركـــبٍ   عـــن الأفـــاق ســـيرهم الرســـيم
لـــك الـــويلات أقحمهـــا علـــيهم   فحـــير الطـــالبي الثـــرة الغشـــوم

فكتب معاوية إليه الجواب بيتاً من شعر أوس بن حجر (٣/٩٥):

ومســـتعجب ممـــا يـــرى مـــن أناتنـــا   ولـــو وبنتـــه الحـــرب لم يترمـــرم

وقدم عبيد الله بن عمر بن الخطاب على معاوية بالشام، فقال له معاوية:

يا ابن أخي أن لك أسم أبيك فأنظر بملءِ عينيك وأنطق بملءِ فيك فأنت المأمون المصّدق، فاصعد المنبر وأشتم علياً، وأشهد عليه أنه قتل عثمان.

فقال:

أيها الأمير، أما شتمه فإنَّ أباه أبو طالب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم،

فما عسى أن أقول في حسبه؟ وأما بأسه فهو الشجاع المطرق، وأما أيامه فما قد عرفت، ولكني ملزمه دم عثمان فلما خرج عبيد الله بن عمر من معاوية، قام خطيباً فتكلم بحاجته، ولما انتهى إلى أمر علي أمسك ولم يقل شيئاً، فلما نزل بعث إليه معاوية وقال له:

يا ابن أخي؛ أنك بين رعيٍّ وخيانة.

فبعث إليه:

إني كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان. وعرفت أن الناس محتملوها مني فتركتها.

فهجره معاوية واستخف به وفسّقه، فقال عبيد الله (١٠١/٣):

معاويَ لم أخرص بخطبة خاطبٍ ولم أك غياً في لؤي بن غالب
ولكنني زاولت نفساً أبيةً على قذف شيخ بالعراقين غائب
وقذفي علياً بابن عفان جهرةً يجدِّع بالشحنا أنوف الأقارب
فأما انتقائي في أشهد اليوم وثبةً فلست لكم فيها ابن حرب بصاحب
ولكنه قد قرَّب اليوم جهده ودبوا حواليه دبيب العقارب
فما قال أحسنتم ولا قد أسأتمُ أصيب بريئاً لا بأثوب تائب
حرام على آهاله نتف شعره فكيف وقد جازوه ضربة لازب
وقد كان فيها للزبير عجاجة وطلحة فيها جاهد غير لاعب
وقد أظهرا من بعد ذلك توبة فياليت شعري ما هما في العواقب

عندما نزل الإمام علي عليه السلام في الكوفة بعد حرب الجمل قال شن بن عبد القيس في ذلك (١٠٧/٣):

قـل لهـذا الإمـام قـد خبـت الحـر ... ب وتمـت بـذلك النعمـاء
وفرغنـا مـن حـرب مـن نقـض الـ ... عهـد وبالشـام حيـة صـماء
تنفـث السـم مـا لمـن نهشـته ... فارمهـا قبـل أن تعـض شـفاء
إنـه والـذي يحـج لـه النـا ... س ومـن دون بيتـه البيـداء
لضـعيف النخـاع إن رمـي اليـو ... م بخيـل كأنهـا الأشـلاء
جانحـات تحـت العجـاج سـخالاً ... ممهضـاتٍ تخالهـا الأسـلاء
تتبـارى بكـل أصـيد كالفحـل ... بكفيـه صـعدة سمـراء
ثـم لا ينـثني الحديـد ولمـا ... يخضـب العـاملين منهـا الـدماء
إن تـذره فمـا معاويـة الـدهر ... بمعطيـك مـا أراك تشـاء
ولنيـل السـماك أقـرب مـن ذا ... ك ونجـم العيـوق والعـواء
فاضـرب المـد والحديـد إلـيهم ... لـيس والله غـير ذا الأدواء

وأيام كان جرير البجلي عند معاوية ينتظر جوابه كتب معاوية وعمرو بن العاص كتاباً إلى أهل مكة والمدينة يستعدياهم فيه على علي عليه السلام، فكتب إليهما عبيد الله بن عمر بن الخطاب (١٠٩/٣ـ١١٠):

ـ أما بعد، فلعمري لقد أخطأتما موضع النصرة وتناولتماها من مكان بعيد؛ وما زاد الله من شك في هذا الأمر بكتابكما إلا شكاً وما أنتما والمشورة، وما أنتما والخلافة؟

أما أنت يا معاوية فطليق وأما أنت يا عمرو فظنين ألا فكفا أنفسكما، فليس لكما فينا وليٌّ ولا نصيرٌ، والسلام، وكتب رجل من الأنصار إليهما مع كتاب عبد الله بن عمر:

معــــاويَ إن الحـــق أبلـــج واضـــح ولــيس بمــا ربصــت أنــت ولا عمــرو
نُصِــب ابــن عفــان لنــا اليــوم خدعــة كمــا نصــبت الشــيخان إذ قضــي الأمــر
فهـــذا كـــذاك الـــبلا حـــذو فعلـــه ســـواء كرقـــراقٍ يُغـــرّ بـــه الشـــعر
رميـــتم عليـــاً بالـــذي لا يضـــيره وإن عظمـــت فيـــه المكيـــدة والمكـــر
ومـــا ذنبـــه إن نـــال عثمـــان معشـــر أتـــوه مـــن الأحيـــاء تجمعهـــم مصـــر
فثـــار إليـــه المســـلمون ببيعـــة علانيـــة مـــا كـــان فيهـــا لهـــم قســـر
وبايعـــه الشـــيخان ثـــم تحمـــلا إلى العمـــرة العظمـــى وباطنـــه الغـــدر
فكــان الــذي قــد كــان ممــا اقتصاصــه يطـــول، فيـــا للّه مـــا أحـــدث الـــدهر
ومـــا أنتمـــا والنصـــر منـــا وأنتمـــا بعيثـــا حـــروب مـــا يبـــوخ لهـــا جمـــر
ومـــــا أنتمـــــا للّه در أبيكمـــــا وذكركمـــا الشـــورى وقـــد وضـــح الفجـــر

وفي أيام نزول الإمام علي عليه السلام في الكوفة قام عدي بن حاتم الطائي إلى علي عليه السلام فقال:

يا أمير المؤمنين إن عندي رجلاً لا يوازى به رجل وهو يريد أن يزور ابن عمه حابس الطائي بالشام، فلو أمرناه أن يلقى معاوية لعله يكسره أو يكسر أهل الشام فقال علي عليه السلام: نعم.

فأمره عدي بذلك، وكان اسم الرجل خفاف بن عبد الله.

فقدم على ابن عمه حابس بن سعد بالشام - وحابس سيد طي بها - فحدث خفاف حابساً أنه شهد عثمان بالمدينة وسار مع علي إلى الكوفة، وكان لخفاف لسان وهيأة، فغدا حابس بخفاف إلى معاوية فحدثه بالتفصيل عن مقتل عثمان وبرأ ساحة الإمام علي عليه السلام من قتله.

فذعر معاوية من قوله، وقال حابس:

- أيها الأمير لقد أسمعني شعراً غيّر به حالي في عثمان، وعظم به علياً فقال معاوية:

- أسمعنيه يا خفاف.

فأنشده (٣/١١١-١١٢):

قلت والليل ساقط الأكناف	ولجنبي عن الفراش تجافي
أرقب النجم مائلاً ومشى الغُمـ	ـض بعينٍ طويلة التذراف
ليت شعري وإنني لسؤول	هل لي اليوم بالمدينة شافي
من صحاب النبي إذ عظم الخطـ	ـب وفيهم من البرية كافي
أحلال دم الإمام بذنب	أم حرام بسنة الوُقّاف
قال لي القوم لا سبيل إلى ما	تطلب اليوم قلت: حسب خفاف
عند قوم ليسوا بأوعية العلم	ولا أهل صحة وعفاف
قلت، لما سمعت قولاً: دعوني	إن قلبي من القلوب الضعاف

قـد مضـى مـا مضـى ومـر بـه الـدهر كمـــا مـــرّ ذاهـــب الأســـلاف
إنـــني والـــذي يحـــج لـــه النـــا س علـــي محـــق البطـــون العجـــاف
فتبـــارى مثـــل القســـي مـــن النبـــع بشـــقة مـــن الرصـــاف نحـــاف
ارهـــب اليـــوم إن أتـــاك علـــي صـــيحة مثـــل صـــيحة الأحقـــاف
إنـــه الليـــث عاديـــاً وشـــجاع مطـــرق نافـــث بســـمٍ زعـــاف
فـــارس الخيـــل كـــل يـــوم نـــزال ونـــزال الفتـــى مـــن الإنصـــاف
واضـــع الســـيف فـــوق عاتقـــه الأيـــ ـــمن يـــذري بـــه شـــؤون القحـــاف
لا يـــرى القتـــل في الخـــلاف عليـــه ألـــف ألـــف كـــانوا مـــن الإســـراف
ســـوَّم الخيـــل ثـــم قـــال لقـــومٍ تـــابعوه إلى الطعـــان خفـــافِ
اســـتعدوا لحـــرب طاغيـــة الشـــا م، فلبّـــوه كـــالبنين اللطـــاف
ثـــم قـــالوا أنـــت الجنـــاح لـــك الريـــ ش القـــدامى ونحـــن منـــه الخـــوافي
أنـــت والٍ وأنـــت والـــدنا الـــبر ونحـــن الغـــداة كالأخيـــاف
وقـــرى الضـــيف في الـــديار قليـــل قـــد تركنـــا العـــراق للأنحـــاف
وهـــم مـــا هـــم إذا نشـــب البـــأس ذوو الفضـــل والأمـــور الكـــوافي
وانظـــر اليـــوم قبـــل نادبـــة القـــوم بســـلم أردت أم بخـــلاف
إن هـــذا رأي الشـــفيق علـــى الشـــام ولـــولاه مـــا خشـــيت مشـــاف

فانكسر معاوية وقال:

- يا حابس، إني لا أظن هذا إلا عيناً لعلي، أخرجه عنك لا يفسد أهل

الشام.

ولما رجع جرير إلى علي عليه السلام كثر قول الناس في التهمة لجرير في أمر معاوية، فاجتمع جرير والأشتر عند علي عليه السلام فقال الأشتر:

- أما والله يا أمير المؤمنين، أن لو كنت أرسلتني إلى معاوية، لكنت خيراً لك من هذا الذي أرخى خناقه وأقام عنده، حتى لم يدع باباً يرجو فتحه إلا فتحه، ولا باباً يخاف أمره إلا سدّه.

فقال جرير:

- لو كنت - والله - أتيتهم لقتلوك. وخوفه بعمرو، وذي الكلاع وحوشب بن ظليم، وقال:

- إنهم يزعمون أنك من قتلة عثمان.

فقال الأشتر:

- والله لو أتيتهم يا جرير لم يعيني جوابها، ولم يثقل علي محملهما، ولحملت معاوية على خطة أعجله فيها عن الفكر، وقال (٣/١١٦-١١٧):

لعمرك يا جرير لقول عمرو ... وصاحبه معاوي بالشآم
وذي كلع وحوشب ذي ظليم ... أخف علي من ريش النعام
إذا اجتمعوا عليّ فخلّ عنهم ... وعن بازٍ مخالبه دوام
ولست بخائفٍ ما خوّفوني ... وكيف أخاف أحلام النيام
وهمّهم الذي حاموا عليه ... من الدنيا، وهمي ما أمامي

فإن أسلم أعممهم بحربٍ يشيب لهولها رأس الغلام

وإن أهلك فقد قدمت أمراً أفوز بفلجه يوم الخصام

وقد زادوا عليّ وواعدوني ومن ذا مات من خوف الكلام

وكتب مصقلة إلى نعيم بن هبيرة الشيباني، وهو من شيعة علي عليه السلام من الشام مع رجل من نصارى تغلب، يقال له حلوان:

- أما بعد، فإني كلمت معاوية فيك، فوعدك الكرامة، ومنّاك الإمارة فاقبل ساعة تلقى رسولي والسلام.

فأخذه مالك بن كعب الأرحبي فسرح به إلى علي عليه السلام فأخذ كتابه فقرأه ثم قدّمه فقطع يده، فمات. وكتب نعيم إلى أخيه شعراً لم يردّه عليه (١٤٦/٣):

لا ترمينّ - هداك الله - معترضاً بالظن منك فما بالي وحلوانا

ذاك الحريص على ما نال من طمع وهو البعيد فلا يورثك أحزانا

ماذا أردت إلى إرساله سفهاً ترجو سقاط امرئٍ لم يلفَ وسنانا

عرضته لعلي إنه أسد يمشي العرضنة في آساد خفانا

قد كنت في خير مصطاف ومرتبع نحمي العراق وتدعى خير شيبانا

حتى تقحمت أمراً كنت تكرهه للراكبين له سراً وإعلانا

لو كنت أديت مال الله مصطبراً للحق زكيت أحيانا وموتانا

لكن لحقت بأهل الشام ملتمساً فضل ابن هند فذاك الرأي أشجانا

فـاليوم تقـرع سـن العجـز مـن نـدمٍ مـاذا تقـول وقـد كـان الـذي كانـا
أصـبحت تبغضـك الأحيـاء قاطبـةً لم يرفـع اللّه بالعصـيان إنسـانا

ولما هرب مصقلة (بأموال المسلمين) قال أصحاب علي عليه السلام له:

يا أمير المؤمنين، فيؤنا؟

قال: إنه قد صار على غريم من الغرماء فاطلبوه.

وقال ظبيان بن عمارة، أحد بني سعد بن يزيد مناة في بني ناجية (١٤٧/٣):

هـلا صـبرت للقـراع ناجيـا والمرهفـات تختلـي الهواديـا
والطعـن في غـوركم نواليـا وصـائبات الأسـهم القواضـيا

وقال ظبيان أيضاً:

ألا فاصـبرن للطعـن والضـرب ناجيـا وللمرهفـات يخـتلين الهواديـا
فقـد صـب رب النـاس حزيـا علـيكم وصـبركم مـن بعـد عشـر مواليـا
سـجالكم بالخيـل جـرداً عواديـا أخـو ثقـة لا يـبرح الـدهر غازيـا
فصـبحكم في رحلكـم وخيـولكم بضـرب يـرى فيـه المـدجج هاويـا
فأصـبحتم مـن بعـد عـزٍ وكثـرةٍ عبيـد العصـا لا تمنعـون الـذراريا

وعندما أراد الإمام علي عليه السلام المسير إلى صفين عارض رجل فزاري الإمام في مسيره فاشتد عليه القوم فهرب في سوق البراذين وحاول الاختفاء بينها إلا أن أصحاب الإمام عليه السلام قتلوه فقال شاعر بني تيم اللات بن ثعلبة (١٧٤/٣):

أعـــوذ بربـــي أن تكـــون منـــيتي كمـا مـات في سـوق الـبراذين أربـد

تعـــاوره همـــدان خفـــق نعـــالهم إذا رفعـت عنـه يـد خفضـت يـد

وإن عبد الله بن معتم العبسي وحنظلة بن الربيع التميمي لما أمر علي عليه السلام الناس بالمسير إلى الشام دخلا عليه في رجال كثير من غطفان وبني تميم، وطلبا منه التريث وعدم العجلة، فخطب الإمام عليه السلام فيهم، ومما قاله عليه السلام:

- وأيم الله إني لأسمع كلام قوم ما أراهم يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً.

فأشار قوم من رهط الإمام عليه السلام بعدم الأخذ بقول حنظلة وحبسه وصاحبه ثم بعث الإمام عليه السلام إلى حنظلة بن الربيع المعروف بحنظلة الكاتب - وهو من الصحابة - فقال له:

يا حنظلة أنت عليَّ أم لي؟

فقال:

- لا لك ولا عليك.

قال: فما تريد؟

قال:

- أشخص الى الرها فإنه فرج من الفروج اصمد له حتى ينقضي هذا الأمر.

ولما غضب قوم من قوله ذلك وأرادوا قتله طلب منهم إمهاله ليدخل داره

ويفكر، ولكن عندما حلّ المساء هرب إلى معاوية مع ثلاثة وعشرين رجلاً من قومه وكذلك هرب معتم، ولكنهما لم يقاتلا مع معاوية واعتزلا الفريقين جميعاً.

وأمر علي عليه السلام بهدم دار حنظلة فهدمت، هدمها عريفهم شبث بن ربعي وبكر بن تميم، فقال حنظلة يهجوهما (١٧٦/٣ ـ ١٧٧):

أيا راكباً أما عرضت فبلّغن مغلغلة عني سراة بني عمرو
فأوصيكم بالله والبر والتقى ولا تنظروا في النائبات إلى بكر
ولا شبث ذي المنخرين كأنه أزب جمال قد رغا ليلة النضر

وقال أيضاً يحرض معاوية بن أبي سفيان:

أبلغ معاوية بن حرب خطة ولكل سائلة نسيل قرار
لا تقبلن دنية ترضونها في الأمر حتى تقتل الأنصار
وكما تبوء دماؤهم بدمائكم وكما تهدم بالديار ديار
وترى نساؤكم يجلن حواسراً ولهن من ثقل الرحال شنار

لما وضع علي عليه السلام رجله في ركاب دابته يوم خرج من الكوفة إلى صفين، قال:

ـ بسم الله.

فلما جلس على ظهرها قال:

ـ ((سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين)) و ((إنا إلى ربنا لمنقلبون)).

ثم خرج أمامه الحر بن سهم بن طريف، وهو يرتجز ويقول (١٦٦/٣-١٦٧):

يافرسي سيري وأمي الشاما وقطعي الحزون والأعلاما
ونابذي من خالف الإماما إني لأرجو أن لقين العاما
جمع بني أمية الطغاما أن نقتل العاصي والهماما
وأن نزيل من رجال هاما

وبلغ عمرو بن العاص مسيره فقال (١٦٩/٣):

لا تحسبني يا علي غافلا لأوردن الكوفة القنابلا
بجمعي العام وجمعي قابلا

فبلغ ذلك علياً عليه السلام فقال (١٦٩/٣):

لآوردنها العاصي بن العاصي سبعين ألفا عاقدي النواصي
مستحقبين حلَق الدِّلاص قد جنبوا الخيل مع القلاص
أسود غيل حين لا مناص

بعد حوار بين الإمام علي عليه السلام وابن زينب ابن عون في أحقية دعوة الإمام وبطلان دعوى معاوية وقناعته بما يدعوه إليه الإمام عليه السلام وكان عمار بن ياسر حاضراً فخرج وهو يقول (١٧٩/٣):

سيروا إلى الأحزاب أعداء النبي سيروا فخير الناس أتباع علي
هذا أوان حاب سل المشرفي وقودنا الخيل وهز السمهري

ولما عرف معاوية بعزم الإمام علي على الحرب كتب إليه يقول:

- وعافانا الله وإياك (٣/٣١٣):

ما أحسن العدل والإنصاف من عمل وأقبح الطيش ثم النفش في الرجل

وكتب بعده:

اربط حمارك لا تنزع سويته إذاً يرد وقيد العير مكروب
ليست ترى السيد زيداً في نفوسهم كما يراه بنو كوز ومرهوب
إن تسألوا الحق نعطِ الحق سائله والدرع محقبة والسيف مقروب
أو تأنفون فإنا معشر أنف لا نطعم الضيم إن السم مشروب
وقد أروح أمام الحي يقدمني صاف في الأديم كمثل اللون منسوب
محنب مثل شاة الربل محتفر بالقصر بين على أولاه مصبوب
يبدو ملجمه هاويله تلعٌ كأنه من جذوع العين مشذوب
فذاك ذخري إذا ما خيلهم ركضت إلى المثوّب أو معاء سرحوب

فأمر علي عليه السلام أن يوزع الناس على القتال، حتى أخذ أهل الشام مصافهم ثم قال: أيها الناس، إن هذا موقف، من نطف فيه نطف يوم القيامة، ومن فلج فيه فلج يوم القيامة.

ثم قال لما رأى نزول معاوية بصفين:

لقد أتانا كاشراً عن نابه يهمّط الناس على اعتزابه
فليأتنا الدهر بما أتى به

وكتب علي عليه السلام إلى معاوية جواب كتابه:

- أما بعد (٣/٣١٤):

فإن للحرب عراقاً شررا إن عليها قائداً عشنذرا
ينصف من أحجر أو تنمّرا على نواحيها مزجاً زمجرا
إذا ونين ساعة تغشمرا

وكتب بعده:

ألم تر قومي إن دعاهم أخوهم أجابوا، وإن يغضب على القوم يغضبوا
هم حفظوا غيبي كما كنت حافظاً لقومي أخرى مثلها إن يغيبوا
بنو الحرب لم تفقد بهم أمهاتهم وآباؤهم آباء صدق فأنجبوا

حتى إذا كان رجب، وخشي معاوية أن يتابع القراء علياً عليه السلام أخذ في المكر، وأخذ يحتال للقراء، لكيما يحجموا ويكفوا حتى ينظروا، فكتب في سهم: من عبد الله الناصح؛ إني أخبركم أن معاوية يريد أن يفجّر عليكم الفرات فيغرقكم فخذوا حذركم، ثم رمى بالسهم في عسكر علي عليه السلام، فوقع السهم في يد رجل فقرأه ثم قرأه صاحبه وقرأته الناس وقرأه من أقبل وأدبر، قالوا: هذا أخ لنا ناصح؛ كتب إليكم يخبركم بما أراد معاوية؛ فلم يزل السهم يُقرأ ويرتفع حتى رُفع إلى علي عليه السلام. وقد بعث معاوية مئتي رجل من القَمَلَة إلى عاقول من النهر، بأيديهم المرور والـذُبل يحفرون فيها بحيال عسكر علي عليه السلام. فقال علي عليه السلام:

- ويحكم! إن الذي يعالج معاوية لا يستقيم له ولا يقوى عليه، إنما يريد أن يزيلكم من مكانكم.

ونصحهم أن لا ينخدعوا بمكر معاوية، ولكنهم ارتحلوا وصعدوا بعسكرهم ملياً، وارتحل علي عليه السلام في أخريات الناس، وهو يقول (١٨/٤-١٩):

فلو أني أُطعتُ عصمت قومي ... إلى ركن اليمامة أو شام
ولكني متى أبرمت أمراً ... منيت بخلف آراء الطغام

ولما خلا المكان نزل معاوية وعسكر فيه.

بعد أن استولى معاوية على الفرات ذهب شباب من الناس إلى أن يستقوا فمنعهم أهل الشام فقام رجل ذلك اليوم من أهل الشام من السكون يعرف بالشليل بن عمر إلى معاوية، فقال (٣١٩/٣):

اسمع اليوم ما يقول الشليل ... إن قولي قول له تأويل
امنع الماء من صحاب عليٍّ ... أن يذوقوه فالذليل ذليل
واقتل القوم مثلما قتل الشيخ ... صدىً فالقصاص أمر جميل
إننا والذي تسامى له البدن ... هدايا كأنهن الغيول
لو علي وصحبه وردوا الماء ... لما ذقتموه حتى تقولوا
قد رضينا بأمركم وعلينا ... بعد ذاك الرضا جلاد ثقيل
فامنع القوم ماؤكم ليس للقوم ... بقاء وإن يكن فقليل

ثم قام رجل من أهل الشام همداني ناسك يتأله ويكثر العبادة، يعرف بمعدّى

بن أقبل، وكان صديقاً لعمرو بن العاص وأخاً له، فطلب من معاوية السماح لأهل العراق من الاستقاء من الفرات وقال له:

- إنهم لو سبقوكم إليه لسقوكم منه.

فأغلظ له معاوية، وقال لعمرو بن العاص:

- اكفني صديقك.

فأتاه عمرو فأغلظ له، فقال الهمداني في ذلك شعراً (٣/٣٢٠-٣٢١):

لعمر أبي معاوية بن حرب	وعمرو ما لدائهما دواء
سوى طعنٍ يحار العقل فيه	وضرب حين تختلط الدماء
ولست بتابع دين بن هندٍ	طوال الدهر ما أرسى حِراء
لقد ذهب العتاب فلا عتاب	وقد ذهب الولاء فلا ولاء
وقول في حوادث كل خطبٍ	على عمروٍ وصاحبه العفاء
ألا لله درك يا بن هندٍ	لقد برح الخفاء فلا خفاء
أتحمون الفرات على رجالٍ	وفي أيديهم الأسل الظماء
وفي الأعناق أسياف حداد	كأن القوم عندهم نساء
أترجو أن يجاوركم عليٌّ	بلا ماءٍ وللأحزاب ماء
دعاهم دعوة فأجاب قوم	كجرب الإبل خالطها الهناء

ثم سار الهمداني في سواد الليل حتى لحق بعلي عليه السلام.

لما اغتم علي عليه السلام بما فيه أهل العراق من العطش، خرج ليلاً قبل

رايات مدحج، فإذا رجل ينشد شعراً (٣/٣٢١-٣٢٢):

أيمنعنــا القــوم مــاء الفــرات وفينــا الرمــاح وفينــا الجحــف

وفينــا الشــوازي مثــل الوشــيج وفينــا الســيوف وفينــا الزعــف

وفينــا علــي لــه ســورة إذا خوفــوه الــردى لم يخــف

ونحــن الــذين غــداة الــزبير وطلحــة خضــنا غمــار التلــف

فمــا بالنــا أمــس أســد العــرين ومــا بالنــا اليــوم شــاء النجــف

فمــا للعــراق ومــا للحجــاز سـوى الشـام خصـم فصكوا الهـدف

فثــوروا علــيهم كبــزل الجمــال دويــن الــدميل وفــوق القطــف

فإمــا تفــوزوا بمــاء الفــرات ومثــواه مــنهم عليــه جيــف

وإمــا تموتــوا علــى طاعــة تحــل الجنــان وتحبــو الشــرف

وإلا فــأنتم عبيــد العصــا وعبــد العصــا مســتذل نطــف

فحرك ذلك علياً عليه السلام، ثم مضى إلى رايات كندة فإذا إنسان ينشد إلى جانب منزل الأشعث وهو يقول (٣/٣٢٢-٣٢٣):

لـئن لم يحـل الأشـعث اليـوم كربـةً مــن المــوت فيهــا للنفــوس تعنــت

فنشــرب مــن مــاء الفــرات بســيفه فهبنــا أناســاً قبــل ذاك فمــوتُ

فــإن أنــت لم تجمــع لنــا اليــوم أمرنــا وتــنض الــتي فيهــا عليــك المذلــةُ

فمـن ذا الـذي تثنـى الحنـاجر باسمـه ســواك، ومــن هــذا إليــه التلفــتُ؟

وهــل مــن بقــاءٍ بعــد يــوم وليلــة نظــل خفوتــاً والعــدو يصــوتُ

هلمـــوا إلى مـــاء الفـــرات ودونـــه صـــدور العـــوالي والصـــفيح المشـــتتُ
وأنـــت امـــرؤ مـــن عصـــبة يمنيـــةٍ وكـل امـريءٍ مـن سـنخه حـين ينبـتُ

فلما سمع الأشعث قول الرجل، قام فأتى علياً عليه السلام، فقال:

– يا أمير المؤمنين، أيمنعنا القوم ماء الفرات، وأنت فينا، والسيوف في أيدينا، خلِّ عنا وعن القوم، فوالله لا نرجع حتى نردّه أو نموت. ومُر الأشتر فليعلُ بخيله، ويقف حيث تأمره، فدعا علي عليه السلام الأشتر فقال:

ألم تغلبن على رأيي أنت والأشعث؟ فدونكما.

فقالا: إنا نكفيك يا أمير المؤمنين.

فقال عليه السلام:

– ذلك لكما.

فنادى الأشعث في الناس فأتاه اثنا عشر فارساً من كندة وأفناء قحطان فشد عليه سلاحه وهو يقول (٣/٣٢٣):

ميعادنـــا اليـــوم بيـــاض الصـــبح هـــل يصـــلح الـــزاد بغـــير الملـــح
لا لا ولا أمـــــر بغـــــير نصـــــح دبـــوا إلى القـــوم بطعـــن سمـــح
مثـــل العـــزالى بطعـــان سمـــح لا صـــالح للقـــوم وابـــن صـــلح
حسبي من الإقحـــام قـــاب رمـــح

وكـان الأشـتر قـد تعـالى بخيلـه حيـث أمـر علـي عليـه السـلام فبعـث إليـه الأشعث:

ـ أقحم الخيل.

فأقحمها حتى وضعت سنابكها في الفرات. وأخذت أهل الشام السيوف فولوا مدبرين.

ودعا الأشتر بالحارث بن همام النخعي، ثم الصهباني، فأعطاه لواءه وأوصاه، فقال:

ـ يا مالك لأسرنك أو لأموتن، فاتبعني.

ثم تقدم اللواء وارتجز، فقال:

يا أخا الخيرات يا خير النخع ... وصاحب النصر إذا عمّ الفزع

وكاشف الخطب إذا الأمر وقع ... ما أنت بالحرب العوان بالجدع

قد جزع القوم وعموا بالجزع ... وجُرّعوا الغيظ وغصوا بالجرع

إن تسقنا الماء فليست بالبدع ... أو نعطش اليوم فجند مقتطع

ما شئت خذ منها وما شئت فدع

وارتجز صالح بن فيروز من فرسان الشام فقال (٣/٣٢٨):

يا صاحب الطرف الحصان الأدهم ... أقدم إذا شئت علينا أقدم

أنا بن ذي العز وذي التكرم ... سيد عكٍّ كل عكٍّ فاعلم

وكان صالح مشهوراً بالشدة والبأس، فارتجز عليه الأشتر فقال:

أنا ابن خير مذحج ومركبا ... وخيرها نفساً وأماً وأبا

آليت لا أرجع حتى أضربا ... بسيفي المصقول ضرباً معجبا

ثم شد عليه فقتله، وهو أول قتيل قتله الأشتر بيده.

وبعد أن قتل أربعة من فرسانهم برز إليه زامل بن عقيل - وكان فارساً - فطعن الأشتر في موضع الصدر فصرعه على فرسه، ولم يصب مقتلاً، وشد عليه الأشتر بالسيف راجلاً فكشف قوائم فرسه، وارتجز عليه فقال (٣/٣٢٩):

لابـد مـن قتلي أو مـن قتلكا قتلت منكم أربعاً من قبلكا

كلهم كانوا حماة مثلكا

ثم ضربه بالسيف وهما راجلان فقتله، ثم خرج إليه محمد بن روضة فقال، وهو يضرب في أهل العراق ضرباً منكراً:

يا ساكني الكوفة يا أهل الفتن يا قاتلي عثمان ذاك المؤتمن

أورث قلبي قتله طول الحزن أضربكم ولا أرى أبا حسن

فشد عليه الأشتر فقتله، وقال:

لا يبعد اللّه سوى عثمانا وأنزل اللّه بكم هوانا

ثم برز إليه الأجلح بن منصور الكندي - وكان من شجعان العرب وفرسانها - وهو على فرس له اسمه لاحق؛ فلما استقبله الأشتر كره لقاءه واستحيا أن يرجع عنه، فتضاربا بسيفيهما فسبقه الأشتر بالضربة فقتله، فقالت أخته ترثيه:

ألا فابكي أخا ثقة فقد - واللّه - أُبكينا

لقتل الماجد القمقا م لا مثل له فينا

أتانا اليوم مقتله فقد جزّت نواصينا

كــــــــريم ماجـــــــــد الجديـــــــــــ ن يشـــــــفي مـــــــن أعادينـــــــــا
شـــــفانا اللّه مـــــن أهــــل الــــــ عـــــــراق فقـــــــد أبادونـــــــا
أمـــــــا يخشـــــــون ربهـــــــم ولم يرعـــــــوا لــــــــه دينـــــــا

وأقبل الأشتر يوم الماء، فضرب بسيفه جمهور أهل الشام حتى كشفهم من الماء، وهو يقول (٣/٣٣٠):

لا تـــذكروا مـــا قـــد مضـــى وفاتـــا واللّه ربـــــي الباعـــــث الأمواتـــــا
مـــن بعـــد مـــا صـــاروا كـــذا رفاتـــا لأوردن خيلـــــــــــي الفراتـــــــــــا
شعث النواصي أو يقـــــــال ماتـــــــا

وكان ضبيان بن عمارة التميمي قد حمل على أهل الشام وهو يقول (٣/٣٢٧):

هـــل لـــك يـــا ظبيـــان مـــن بقـــاء في ســـــاكني الأرض بغـــــير مـــــاء
لا وإلـــــــــه الأرض والســـــــــماء فاضـــرب وجـــوه الغـــدر والأعـــداء
بالســـيف عنـــد حمـــس الهيجـــاء حتـــــى يجيبـــــوك إلى الســـــواء

قال عمرو بن العاص لمعاوية لما ملك أهل العراق الماء، ما ظنك يا معاوية بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتهم أمس؟ أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه؟ ما أغنى عنك أن تكشف لهم السوءة.

فقال معاوية:

دع عنك ما مضى، فما ظنك بعلي؟

قال:

ظني أنه لا يستحل منك ما استحللت منه، وإن الذي جاء له غير الماء.

فقال له معاوية قولاً أغضبه.

فقال عمرو (٣/٣٣١):

أمرتـــك أمـــري فســـخفته | وخـــالفني بـــن أبـــي ســـرحة
وأغمضـــت في الـــرأي إغماضـــة | ولم تـــر في الحـــرب كالفســـحة
فكيـــف رأيـــت كبـــاش العـــراق | ألم ينطحـــوا جمعنـــا نطحـــة؟
فـــإن ينطحونـــا غـــداً مثلـــها | فكـــن كـــالزبيري أو طلحـــة
أظـــن لهـــا اليـــوم مـــا بعـــدها | وميعـــاد مـــا بيننـــا صـــبحه
وإن أخّروهـــا لمـــا بعـــدها | فقـــد قـــدموا الخـــيط والنفحـــة
وقـــد شـــرب القـــوم مـــاء الفـــرات | وقلـــدك الأشـــتر الفضـــحة

فقال أصحاب علي عليه السلام له:

- امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك.

فقال:

- لا خلوا ما بينهم وبينه، لا أفعل ما فعل الجاهلون، سنعرض عليهم كتاب الله وندعوهم إلى الهدى، فإن أجابوا؟ وإلا حد السيف ما يغني إن شاء الله.

فاستقى كلا الفريقين من الماء (ما يؤذي إنسان إنساناً).

دعا معاوية عمرو بن العاص فأمره بالخروج إلى الأشتر أمام القوم، وقد

علم أنه سيلقاه، وهو يرتجز ويقول (٨/٨٠):

يــا ليــت شــعري كيــف لــي بعمــرو ذاك الـــذي أوجبـــت فيـــه نـــذري

ذاك الــــذي أطلبـــــه بـــــوتري ذاك الـــذي فيـــه شـــفاء صـــدري

مـــن بـــائعي يومـــاً بكـــل عمـــري يعلـــي بـــه عنـــد اللقـــاء قـــدري

أجعلـــــه فيـــــه طعـــــام النســــر أو لا فربـــــي عـــــاذري بعـــــذري

فلما سمع عمرو بهذا الرجز فشل وجبن، واستحيا أن يرجع، وأقبل نحو الصوت وقال (٨/٨٠):

يــا ليــت شــعري كيــف لــي بمالــك كـــم كاهـــل صـــببته وحـــارك

وفـــــارس قتلتـــــه وفاتـــــك ومقـــــدم آبٍ بوجـــــه حالـــــك

ما زلت دهري عرضة المهـــــالك

فغشيه الأشتر بالرمح، فراغ عمرو عنه، فلم يصنع الرمح شيئاً، ولوى عنان فرسه، وجعل يده على وجهه، وجعل يرجع راكضاً نحو عسكره. فنادى غلام من يحصب:

يا عمرو عليك العفا ما هبت الصبا، فأخذ اللواء، وكان غلاماً حدثاً، فقال (٨/٨٠-٨١):

إن يــك عمــرو قــد عــلاه الأشــتر بـــأسمر فيـــه ســـنان أزهـــر

فـــذاك والله لعمـــري مفخـــر يـــا عمـــرو تكليـــف الطعـــان حمـــير

واليحصـــبي بالطعـــان أمهـــر دون اللـــواء اليـــوم مـــوت أحمـــر

فنادى الأشتر ابنه إبراهيم:

ـ خذ اللواء فغلام بغلام.

فتقدم فأخذ إبراهيم اللواء وقال:

يا أيها السائل عني لا تُرَع ... أقدم فإني من عرانيت النخع

كيف ترى طعن العراقي الجذَع ... أطير في يوم الوغى ولا أقع

ما ساءكم سرَّ، وما ضر نفع ... أعدوت ذا اليوم لهول المطَّلَع

فتطاعنا حتى سقط الحميري قتيلاً، وشمت مروان بعمرو، وغضب القحطانيون على معاوية، وقالوا:

ـ تولّي علينا من لا يقاتل معنا، ولِّ رجلاً منا وإلا فلا حاجة لنا فيك.

وقال شاعرهم (٨١/٨):

معاوي أما تدعنا لعظيمة ... يلبّس من نكرائها الفرضُ بالحَقَبِ

فولِّ علينا من يحوط ذمارنا ... من الحميريين الملوك على العرب

ولا تأمرنا بالتي لا نريدها ... ولا تجعلنا بالهوى موضع الذنب

ولا تغضبنا والحوادث جمة ... عليك، فيغشوا اليوم في يحصب الغضب

فإن لنا حقاً عظيماً وطاعة ... وحياً دقياً في المشاس وفي العصب

وبات كعب جميل التغلبي، شاعر أهل الشام تلك الليلة، يرتجز وينشد (٦٨٣/٥ـ١٨٤):

أصبحت الأمة في أمرٍ عجب ... والملك مجموع غداً لمن غلب

أقــول قــولاً صــادقاً غــير كــذب | إن غـــداً يهلـــك أعـــلام العـــرب
غـــداً نلاقـــي ربنـــا فنحتســـب | غـــداً يصـــيرون رمـــاداً قـــد ذهـــب
بعــد الجمــال والحيــاء والحســب | لا رب لا تشـــمت بنـــا ولا تُصـــب

من خلع الأنداد طراً والصلب

وقال راجز من أهل الشام (٥/١٨٤):

ويـــلٌ لأم مـــذحج مـــن عـــكٍّ | وأمهـــــم قائمـــــة تبكّـــــي
نصـــكها بالســـيف أي صـــكٍّ | فـــلا رجـــال كرجـــال عـــكٍّ

ونادى عمرو بن العاص بأعلى صوته:

يـــا أيهـــا الجنـــد الصـــليب الإيمـــان | قومـــوا قيامـــاً واســـتعينوا الـــرحمن
إنـــي أتـــاني خـــبر ذو ألـــوان | إن عليـــاً قتـــل ابـــن عفـــان

ردوا علينا شيخنـــا لما كـــان

فردّ عليه أهل العراق وقالوا (٥/١٨٥):

أبـــت ســـيوف مـــذحج وهمـــدان | بـــأن تـــرد نعـــثلاً كمـــا كـــان
خلقـــاً جديـــداً مثـــل خلـــق الـــرحمن | ذلـــك شـــأن قـــد مضـــى وذا شـــان

ثم نادى عمرو بن العاص ثانية يرفع صوته:

ردوا علينـــا شـــيخنا ثـــم بجـــل | أو لا تكونـــوا جـــزراً مـــن الرســـل

فرد عليه أهل العراق:

كيـــف نـــرد نعـــثلاً وقـــد قحـــل | نحـــن ضـــربنا رأســـه حتـــى انجفـــل

وأبـــدل الله بـــه خـــير بـــدل أعلـــم بالـــدين وأزكـــى بالعمـــل

وقال إبراهيم بن أوس بن عبيدة من أهل الشام:

لله در كتائـــــب جـــــاءتكم تبكـــي فوارســـها علـــى عثمـــان

تسـعون ألفـاً لـيس فـيهم قاسـط يتلـــون كـــل مفضـــل ومثـــان

يســـلون حـــق الله لا يعدونـــه ومجيـــبكم للملـــك والســـلطان

فـــأتوا ببينـــةٍ علـــى مـــا جئـــتمُ أو لا فحســـبكم مـــن العـــدوان

وأتـوا بمـا يمحـو قصـاص خليفـةٍ لله، لـــيس بكـــاذب خـــوان

وارتجز عمرو بن العاص وأرسل بها إلى علي عليه السلام (٥/١٩٥):

لا تأمننـــا بعـــدها أبـــا حســـن إنـــا نمـــر الأمـــر إمـــرار الرســـن

خذها إليك واعلمن أبا حسن

ويروى:

لتصـــبحن مثلـــها أم لُـــبُن طاحنـــة تـــدقكم دق الحفـــن

فأجابه شاعر من أهل العراق (٥/١٩٥):

ألا احـــذروا في حـــربكم أبـــا حســـن ليثـــاً أبـــا شـــبلين محـــذور فطـــن

يـــدقكم دقَّ المهـــاريس الطحـــن لتغبـــنن يـــا جـــاهلاً أيَّ غـــبن

حتـــى تعـض الكـف أو تقـرع سـن ندامـــة إن فـــاتكم عـــد الســـنن

وكان أول فارسين التقيا في هذا اليوم - وهو اليوم السابع من صفر - هما حجر الخير / حجر بن عجدي / وحجر الشر / ابن عمه / وكلاهما من كندة، وبعد

تطاحن العسكرين دعا الإمام علي عليه السلام أصحابه أن يذهب واحد منهم بمصحف كان في يده إلى أهل الشام، فقال:

من يذهب إليهم فيدعوهم إلى ما في هذا المصحف؟

فسكت الناس وأقبل فتى اسمه سعيد فقال:

- أنا صاحبه.

وبعد أن كرر الإمام عليه السلام طلبه مرتين لم يقم إلا الفتى نفسه، فأعطاه إياه، ولما توجه إليهم ودعاهم إلى ما فيه فقتلوه، فقال الإمام عليه السلام لعبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي:

- احمل عليهم الآن.

فحمل عليهم بمن معه فجعل يضرب بسيفه ويقول (١٩٦/٥):

لم يبق غير الصبر والتوكل ... والترس والرمح وسيف مصقل

ثم التمشي في الرعيل الأول ... مشي الجمال في حياض المنهل

والله يقضي ما يشا ويفعل

وحاول ابن بديل أن يصل إلى معاوية فيقتله إلا أن معاوية استنجد بقومه أن يرموه بالحجارة فأثخنوه جراحاً حتى سقط فقتلوه، فقال معاوية:

- والله ما مثل هذا إلا كما قال الشاعر:

أخو الحرب إن عضت به الحرب ... وإن شمرت عن ساقها الحرب شمّرا

ويحمي إذا ما الموت كان لقاؤه ... قدا الشبر يحمي الأنف أن يتأخرا

كليــثٍ هزبــرٍ كــان يحمــي ذمــاره رمتــه المنايــا قصــدها فتقطــرا

وتقدم أبو شداد قيس بن المكشوح بن هلال إلى عسكر معاوية بخيله وهو يريد معاوية وصاحبه: صاحب الترس المذهب الذي كان يستره من الشمس وأثناء زحفه كان يقول (٥/٢٠٦):

إن عليــــاً ذو أنـــــاة صـــــارم جلـــد إذا مـــا حضـــر العـــزائم

لمـــا رأى مـــا تفعـــل الأشـــائم قـــام لـــه الـــذروة والأكـــارم

وبعد أن قتل أخذ الراية بعده عبد الله بن الأحمسي وارتجز:

لا يبعـــــد الله أبـــــا شـــــداد حيـــث أجـــاب دعـــوة المنـــادي

وشـــد بالســـيف علـــى الأعـــادي نعـــم الفتـــى كـــان لـــدى الطـــراد

وفي طعان الخيـــل والجـــلاد

ولما حاولت تميم أن تنهزم من المعركة ناداهم مالك بن حري النهشلي:

- ضاع الضراب اليوم، والذي له أنا عبد يا بني تميم.

فقالوا: ألا ترى الناس قد انهزموا؟

فقال:

ويحكم أفرار واعتذار؟

وبعد يأس منهم جعل يقاتل ويرتجز ويقول (٥/٢١١):

إن تميمـــاً خلـــف عنـــك ابـــن مـــر وقـــد أراهـــم وهـــم الحـــي الصَـــبُر

فإن يفروا أو يخيموا لا أفـــــر

فقتل مالك ذلك اليوم، وقال أخوه نهشل بن حري التميمي يرثيه:

تطاول هذا الليل ما كان ينجلي ... كليل التمام ما يريد انصراما
وبتُّ بذكرى مالك بكآبةٍ ... أورق من بعد العشاء نياما
أبى جزعي في مالك غير ذكره ... فلا تعذليني إن جزعت إماما
فأبكي أخي ما دام صوت حمامة ... يؤرق من وادي البطاح حماما
وأبعث أنواحاً عليه بسُحرةٍ ... وتذرف عيناي الدموع سجاما
وأدعو سراة الحي تبكي لمالك ... وأبعث نوحاً يلتد من قياما
يقلن ثوى رب السماحة والحجا ... وذو عزةٍ يأبى بها أن يضاما
وفارس خيل لا تنازل خيله ... إذا اضطرمت نار العدو ضراما
وأحيا عن الفحشاء من ذات كِلّةٍ ... يرى ما يهاب الصالحون صراما
وأجرأ من ليث بخفان مخدرٍ ... وأمضى إذا رام الرجال صداما
فلا ترجون ذا أمة بعد مالكٍ ... ولا جازر للمنشآت غلاما
وقل لهم لا يرحلوا الأدم بعده ... ولا يرفعوا نحو الجياد لجاما

وقال أيضاً يرثيه (٥/٢١٢):

بكّى الفتى الأبيض البهلول سنّته ... عند النداء، فلا نكساً ولا درعا
بكي على مالك الأضياف إذ نزلوا ... حين الشقاء وعزَّ الرسل فانقطعا
ولم يجد لقراهم غير مربعة ... من المشار نرجّي تحتها رُبعا
أهوى لها السيف صلتاً وهي راتعة ... فأوهن السيف عظم الساق فانجذعا

فجـاءهم بعـد رفـد النـاس أطيبهـا وأسـبعت مـنهم مـن نـام واضـطجعا
يـا فـارس الـروع يـوم الـروع قـد علمـوا وصـاحب العـزم لا نكسـاً ولا طبعـاً
ومـدرك التبـل في الأعـداء يطلبـه وإن طلبـت بتبـل عنـده منعـا
قـالوا أخـوك أتـى النـاعي بمصـرعه فانشـق قلـبي غـداة القـول فانصـدعا
ثـم ارعـوى القلـب شـيئاً بعـد ضـربته والـنفس تعلـم أن قـد أثبتـت وجعـا

وبرز حريث - مولى معاوية - هذا اليوم، وكان شديداً أبداً ذا بأس لا يرام، فصاح:

يا علي هل لك في المبارزة؟ فأقدم أبا حسن إن شئت.

فأقبل علي عليه السلام يقول (٥/٢١٥):

أنـا علـيٌّ وابـن عبـد المطلـب نحـن - لعمـر الله - أولى بالكتـب
فـذا الـنبي المصـطفى غـير كـذب أهـل اللـواء والمقـام والحجـب
نحـن نصـرناه علـى كـل العـرب يـا أيهـا العبـد الغريـر المنتـدب

اثبت لنا يا أيها الكلب الكلب

ثم خالطه فما أمهله أن ضربه ضربة واحدة فقطعه نصفين.

حتى جزع معاوية على حريث جزعاً شديداً، وعاتب عمرواً في إغرائه إياه بعلي عليه السلام، وقال في ذلك شعراً (٥/٢١٦):

حريـث ألم تعلـم وجهلـك ضـائر بـأن عليـاً للفـوارس قـاهر
وأن عليـاً لم يبـارزه فـارس مـن النـاس إلا أقصـدته الأضـافر

أمرتـــك أمـــراً حازمـــاً فعصـــيتني فجـــدك إن لم تقبـــل النصـــح عـــاثر
وولاك عمـــرو والحـــوادث جمـــة غـــروراً ومـــا جـــرت عليـــك المقـــادر
وظـــن حريـــث أن عمـــروا نصـــيحه وقـــد يهلكـــنَّ العمـــرَ مـــن لا يحـــاذر
أيركـــب عمـــرو رأســـه خـــوف ســـيفه ويصـــلي حريثـــاً، إنـــه لفرافـــر

وكان لهمدان بلاء عظيم في نصرة علي عليه السلام في صفين، ومن الشعر الذي لاشك أن قائله علي عليه السلام لكثر الرواة له (٢١٧/٥):

دعـــوت فلبـــاني مـــن القـــوم عصـــبة فـــوارس مـــن همـــدان غـــير لئـــام
فـــوارس مـــن همـــدان ليســـوا بعـــزّل غـــداة الـــوغى مـــن شـــاكر وشـــبام
بكـــل رديـــنيٍ وعـــذب تخالـــه إذا اختلـــف الأقـــوام شـــعل ضـــرام
لهمـــدان أخـــلاق كـــرام تـــزينهم وبـــأس إذا لاقـــوا وحـــدٌّ خصـــام
وجـــدٌ وصـــدقٌ في الحـــروب ونجـــدة وقـــول إذا قـــالوا بغـــير أثـــام
متـــى تـــأتهم في دارهـــم تستضـــيفهم تبـــت ناعمـــاً في خدمـــة وطعـــام
جـــزى الله همـــدان الجنـــان فإنهـــا ســـحام العـــدى في كـــل يـــوم زحـــام
فلـــو كنـــت بوابـــاً علـــى بـــاب جنـــةٍ لقلـــت لهمـــدان ادخلـــوا بســـلام

وقام علي عليه السلام بين الصفين فنادى:

- يا معاوية - يكررها -

فقال معاوية:

سلوه ما شانه؟

قال:

ـ أحب أن يظهر لي فأكلمه كلمة واحدة.

فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص، فلما قارباه، لم يلتفت إلى عمرو وقال لمعاوية:

ـ ويحك!علام يقتتل الناس بيني وبينك ويضرب بعضاً، أبرز لي فأينا قتل صاحبه فالأمر له.

فالتفت معاوية إلى عمرو، فقال:

ما ترى يا أبا عبد الله؟

قال:

ـ قد أنصفك الرجل، واعلم إنك إن نكلت عنه لم يزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقي على ظهر الأرض عربي.

فقال معاوية:

ـ يا بن العاص، ليس مثلي يخدع عن نفسه، والله ما بارز ابن أبي طالب شجاع قط إلا وسقى الأرض من دمه.

ثم انصرف معاوية راجعاً حتى انتهى إلى آخر الصفوف وعمرو معه، فلما رأى علي عليه السلام ذلك ضحك وعاد إلى موقفه.

وحقد معاوية على عمرو باطناً، وقال له ظاهراً:

ـ ما أظنك قلت ما قلت يا أبا عبد الله إلا مازحاً.

فلما جلس معاوية مجلسه، أقبل عمرو يمشي حتى جلس إلى جانبه فقال معاوية (٢١٧/٥ـ ٢١٨):

يا عمرو إنك قد قشرت لي العصا ... برضاك لي وسط العجاج برازي
يا عمرو إنك قد أشرت بظنةٍ ... حسب المبارز خطفه من بازي
ولقد ظننتك قلت مزحة مازحٍ ... والهزل يحمله مقال الهازي
وإذا الذي وفتك نفسك حاكياً ... قتلي، جزاك بما نويت الجازي
ولقد كشفت قناعها مذمومة ... ولقد لبست بها ثياب الحازي

فقال عمرو:

أيها الرجل أتجبن عن خصمك وتتهم نصيحك؟

وقال مجيباً:

معاويَ إن نكلت عن البراز ... لك الويلات فانظر في المخازي
معاوي ما اجترمت إليك ذنباً ... وما أنا في التي حدثت بخازي
وما ذنبي بأن نادى عليٌّ ... وكبش القوم يُدعى للبراز
فلو بارزته بارزت ليثاً ... حديث الناب يخطف كل بازي
ويزعم أنني أضمرت غشاً ... جزاني بالذي أضمرت جازي
أضبع في العجاجة يا بن هند ... وعند الباه كالتيس الحجازي

وبينا مر العباس بن الحارث بن عبد المطلب، مكفهراً بالسلاح، هتف به هاتف من أهل الشام يعرف بمرار بن أدهم:

- يا عباس هلم للبراز!

قال العباس:

فالنزول إذاً فإنه أيأس من القفول.

فنزل الشامي وهو يقول (٥/٢١٩):

إن تركبــوا فركــوب الخيــل عادتنــا أو تنزلــون فإنَّــا معشــر نزلــوا

وثنى العباس رجله وهو يقول:

ويصد عنك مخبلة الرجل العرِّيض موضحةٌ عن العظم

بحسام سيفك، أو لسانك والكلم الأصيل كأرغب الكلم

وتطاعنا شديداً حتى قُتِلَ الشامي.

وخرج رجل من عك فسأل البراز، فخرج إليه قيس بن فهران الكندي فما ألبثه أن طعنه فقتله، وقال (٥/٢٢٢):

لقــد علمــت عــكٌّ بصــفين أننــا إذا مــا تلاقــى الخيـل نطعنهـا شـزرا

ونحمــل رايــات القتــال بحقهــا فنوردهــا بيضــاً ونصــدرها حمــرا

وممن قاتلوا مع الإمام علي عليه السلام أيام صفين، بشر بن العوس الطائي - وكان من رجال طي وفرسانها - وفقئت عينه، فكان يذكر بعد ذلك بأيام صفين فيقول:

وددت أنني قتلت يومئذ، وددت أن عيني هذه الصحيحة فقئت أيضاً.

وقال (٥/٢٢٤):

ألا ليــت عــيني هــذه مثــل هــذه ... ولم أمــشِ بــين النــاس إلا بقائــد
ويـا ليـت رجلـي ثَـمّ طنـت بنصـفها ... ويـا ليـت كفـي ثـم طاحـت بسـاعدي
ويــا ليــتني لم أبــق بعــد مطّــرفٍ ... وســعد وبعــد المســتنير بــن خالــد
فــوارس لم تغــذ الحواضــن مثلــهم ... إذا هــي أبـدت عــن خـذام الخرائـد

ومن الذين حاربوا مع أمير المؤمنين عليه السلام عنترة بن عبيد بن خالد المحاربي، وهو أشجع الناس يومئذ، كان يشد من عضد أصحابه ويرتجز ويقول (٥/٢٢٤-٢٢٥):

لا وألــت نفــس امــريء ولى الــدبر ... أنــا الــذي لا أنــثني ولا أفــر
ولا يرى مع المعازيــل الغــدر

وقاتل حتى ارتُثَّ.

وأقبل الحضين بن المنذر يومئذ وهو غلام يزحف براية ربيعة، وكانت راية حمراء، فأعجب علياً عليه السلام زحفه وثباته فقال (٥/٢٢٦-٢٢٧):

لمــن رايــة حمــراء يخفــق ظلــها ... إذا قيــل قــدمها حضــين تقــدما
ويـدنو بهـا في الصـف حتـى يزيـدها ... حمــام المنايــا تقطــر المــوت والــدما
تــراه إذا مــا كــان يــوم عظيمــة ... أبــى فيــه إلا عــزة وتكرمــا
جــزى الله قومــاً صــابروا في لقــائهم ... لــدى النــاس أجــاً مــا أعــف وأكرمــا
وأحـزم صـبراً يـوم يـدعى إلى الـوغى ... إذا كــان أصــوات الكمــاة تغمغمــا
ربيعــة أعــني إنهــم أهــل نجــدة ... وبــأس إذا لاقــوا خميســاً عرمرمــا

وقــد صــبرت عــك ولخــم وحمــير ... لمــذحج حتــى لم يفــارق دم دمــا
ونــادت جــذام يــال مــذحج ويحكــم ... جــزى الله شــراً أينــا كــان ظالمــا
أمــا تتقــون الله في حرمــاتكم ... ومــا قــرب الــرحمن منهــا وعظمــا
أذقنــا ابــن حــرب طعننــا وضــرابنا ... بأســيافنا حتــى تــولى وأحجمــا
وفرينــا ذي الزبرقــان وظالمــاً ... ونــادى كلاعــاً والكليــب وأنعمــا
وعمــرواً وســفياناً وجهمــاً ومالكــاً ... وحوشــب والفــادي شــريحاً وأظلمــا
وكــرز بــن تيهــان وعمــرو بــن جحــدر ... وصــبّاحاً القــبين يــدعو وأســلما

وقد رويت الأبيات الستة الأولى للإمام علي عليه السلام وباقي الأبيات من قوله (وقد صبرت عك) للحضين بن منذر صاحب الراية.

وكان بصفين تل الجماجم تلقى عليه جماجم الرجال، وكان يدعى تل، فقال عقبة بن مسلم الرقاشي من أهل الشام (٥/٢٣٠):

ولم أرَ فرســاناً أشــد حفيظــة ... وأمنــع منــا يــوم تــل الجمــاجم
غــداة أتــى أهــل العــراق كــأنهم ... نعــام تلقــي في فجــاج المخــارم
إذا قلــت قــد ولــوا تثــوب كتيبــة ... ململــة في البــيض شمــط المقــادم
وقــالوا لنــا هــذا علــيٌّ فبــايعوا ... فقلنــا: صــه بــل بالســيوف الصــوارم

وقال شبث بن ربعي التميمي:

وقفنــا لــديهم يــوم صــفين بالقنــا ... لــدن غــدوة حتــى هــوت لغــروب
وولى ابــن حــرب والرمــاح تلوثــه ... وقــد أرضــت الأســياف كــل غضــوب

نجالــدهم طــوراً وطــوراً نشــلهم ... علــى كــل محبــوك السـراة شــبوب

بكل أسيل كالقراط إذا بدت سيأسيل ... لوائحهـا بـين الكمـاة لعـوب

نجالــد غســاناً وتشــقى بحربنــا ... جــذام ووتــر العبــد غــير طلــوب

فلــم أرَ فرســاناً أشــد حفيظــة ... إذا غشــي الآفــاق رهــج جلــوب

أكــر وأحمــى بالغطــاريف والقنــا ... وكــل حديــد الشــفرتين قضــوب

حمل عبيد الله بن عمر (من جماعة معاوية) على صف بن حنيفة وهو يقول (٥/٢٣٤):

أنــا عبيــد اللّه ينمــيني عمــر ... خــير قــريش مــن مضــى ومــن غــبر

إلا رســول اللّه والشــيخ الأغــر ... قــد أبطــأت عــن نصــر عثمــان مضــر

والربيعيــون فــلا أُســقوا المطــر ... وســارع الحــي اليمــانون الغــرر

والخير في الناس قديماً يبتــدر

فحمل عليه حرث بن جابر الحنفي (من جماعة علي عليه السلام) وقال:

قــد ســارعت في نصــرها ربيعــة ... في الحــق والحــق لهــا شــريعة

فــاكفف فلســت تــارك الوقيعــة ... في العصــبة الســامعة المطيعــة

حتى تذوق كأسهـا الفظيعـة

وطعنه فصرعه.

فقال كعب بن جعيل التغلبي يرثي عبيد الله، وكعب شاعر أهل الشام (٥/٢٣٤-٢٣٥):

ألا إنمـــا تبكـــي العيـــون لفـــارس بصـــفين أجلـت خيلـه وهـو واقـف
تبـدل مـن أسمـاء أسـياف وائـل وأي فتـى لـو أخطأتـه المتـالف
تـركتم عبيـد الله في القـاع مسـلماً يمـج دمـاء والعـروق نـوازف
ينـوء وتغشـاه شـآبيب مـن دمٍ كمـا لاح في جيـب القمـيص الكفـائف
دعـاهن فاستسـمعن مـن أيـن صـوته فـأقبلن شـتى والعيـون ذوارف
تحللـن عنـه زر درع حصـينة وينكـر منـه بعـد ذاك معـارف
وقـرت تمـيم سـعدها وربابهـا وخالفـت الخضـراء فـيمن يخـالف
وقـد صـبرت حـول ابـن عـم محمـد لـدى المـوت شـهباء المناكـب شـارف
بمـرج تـرى الرايـات فيهـا كأنهـا إذا أجنحـت للطعـن طـير عواكـف
فمـا برحـوا حتـى رأى الله صـبرهم وحتـى أسـرت بـالأكف المصـاحف
جـزى الله قتلانـا بصـفين خـير مـا أثيـب عبـاد غادرتهـا المواقـف

ومما رثى به كعب بن جعيل عبيد الله بن عمرو قوله (٥/٢٣٦):

يقـول عبيـد الله لمـا بـدت لـه سـحابة مـوت تقطـر الحتـف والـدما
ألا يـا لقـومي فاصـبروا إن صـبركم أعـف وأحجـى عفـة وتكرمـا
فلمـا تـدانى القـوم حـز مجـدلاً صـريعاً تلاقـي كفـه الـترب والفمـا
وخلـف أطفـالاً يتـامى أذلـة وعرسـاً عليـه تسـكب الـدمع أيّمـا
حـلالاً لهـا الخطـاب لا يمنعـنهم وقـد كـان يحمـي غـيرة أن تكلمـا

وقال الصلتان العبدي يذكر مقتل عبيد الله، وإن حريث بن جابر الحنفي

قتله (٥/٢٣٧):

ألا يــا عبيــد الله مــا زلــت مولعــاً ... ببكــر لهــا تهــدي القــرى والشــهددا
كــأن حمــاة الحــي مــن بكــر وائــل ... بــذي الرِّمــث أســد قــد تبــوأن غرقــدا
وطنــت ســفيهاً قــد تعــودت عــادة ... وكــل امــريءٍ جــارٍ علــى مــا تعــودا
فأصــبحت مصــلوباً علــى شــر أيكــة ... صــريع القنــا تحــت العجاجــة مفــردا
تشــق عليــك جيبهــا ابنــة هــانيءٍ ... مســـلبة تبـــدي الشـــجا والتلـــددا
وكانــت تــرى ذا الأمــر قبــل عيانــه ... ولكــن حكــم الله أهــدى لــك الــردى
وقالــت عبيــد الله لا تبــك وائــلاً ... فقلــت لهــا لا تعجلــي وانظــري غــدا
فقــد جــاء مــا قــد مســها فتســلبت ... عليــك، وأمســى الجيــب منهــا مقــددا
حبــاك أخــو الهيجــا حريــث بــن جــابر ... بجياشــة تحكــي بهــا النهــر مزبــدا

وبعد أن قتل أبو عرفاء جبلة بن عطية الذهلي - من جيش العراق - شدت ربيعة بعده شدة عظيمة على صفوف أهل الشام فنقضتها، فقال مجزأة بن ثور (٥/٢٤٠):

أضــــــربهم ولا أرى معاويــــــة ... الأبــرج العــين العظــيم الحاويــة
هــــوت بـــه في النـــار أم هاويـــة ... جــــاوره فيهــــا كــــلاب عاويــــه

أغوى طغاماً لا هدتــه هاديــه

لما اشتد القتال بين الفريقين وتمكن الشاميون من أهل العراق نادى علي عليه السلام يومئذ:

ألا رجل يشري نفسه لله ويبيع دنياه بآخرته؟

فأتاه رجل من جعف يقال له عبد العزيز بن الحارث، على فرس أدهم، كأنه غراب مقنع في الحديد، لا يرى منه إلا عيناه. فقال:

- يا أمير المؤمنين مرني بأمرك، فوالله لا تأمرني بشيء إلا صنعته، فقال علي عليه السلام:

سمحت بأمر لا يطاق حفيظة ... وصدقاً وإخوان الوفاء قليل
جزاك إله الناس خيراً فإنه ... لعمرك فضل ما هناك جزيل

وكان علي عليه السلام لا يعدل بربيعة أحداً من الناس فشق ذلك وأظهروا لهم القبيح، وأبدوا ذات أنفسهم، فقال الحضين بن المنذر الرقاشي شعراً أغضبهم به، وهو:

رأت مضر صارت ربيعة دونهم ... شعار أمير المؤمنين، وذو الفضل
فأبدوا إلينا ما تجن صدورهم ... علينا من البغضا وذاك له أصل
فقلت لهم لما رأيت رجالهم ... بدت بهم قطر كأن بهم ثِقل
إليكم أهيبوا لا أبا لأبيكم ... فإن لكم شِكلاً وإن لنا شِكل
ونحن أناس خصنا الله بالتي ... رآنا لها أهلاً وأنتم لها أهل
فابلوا بلانا أو أقروا بفضلنا ... ولن تلحقون الدهر ما حنّت الإبل

وقام رؤساء مضر إلى الإمام علي عليه السلام - وبعد كلام كثير - طلبوا منه عليه السلام، إعفاء ربيعة من القتال يوماً وتكليفهم به ففعل عليه السلام،

فغدا أبو الطفيل عامر بن وائل في قومه من كنانة وهم جماعة عظيمة، فتقدم أمام الخيل وهو يقول:

– طاعنوا وضاربوا، ثم حمل وارتجز فقال (٥/٢٤٤):

قد ضاربت في حربها كنانة ... والله يجزيها به كنانه
من أفرغ الصبر عليه زانه ... أو غلب الجبن عليه شانه
أو كفر الله فقد أهانه ... غداً يعض من عصى بنانه

ثم غدا في اليوم التالي عمير بن عطار بجماعة من بني تميم، وهو يومئذ سيد مضر الكوفة فقال:

يا قوم، إني أتبع آثار أبي الطفيل، فاتبعوا آثار كنانة ثم قدم رايته وارتجز وقال (٥/٢٤٥):

قد ضاربت في حربها تميم ... إن تميماً خطبها عظيم
لها حديث ولها قديم ... إن الكريم نسله كريم
دين قويم وهوى سليم ... إن لم تردهم رايتي فلوموا

ثم غدا في اليوم الثالث قبيصة بن جابر الأسدي في بني أسد، وقال لأصحابه:

– يا بني أسد، أما أنا فلا أقصر دون صاحبيَّ، وأما أنتم فذاك إليكم، ثم تقدم برايته وقال (٥/٢٤٥–٢٤٦):

قد حافظت في حربها بنو أسد ... ما مثلها تحت العجاج من أحد

أقـرب مـن يمـن وأنـأى مـن نكـد كأننـا ركنـا ثـبير أو أُحُـد
لسـنا بأوبـاش ولا بـيض البلـد لكننـا اللحمـة مـن ولـد معـد
كنـت ترانـا في العجـاج كالأسـد يـا ليـت روحـي قـد نـأى عـن الجسد

فانتصفوا المضرية من الربيعية وظهر أثرها وعرف بلاؤها، وقال أبو الطفيل (٥/٢٤٦-٢٤٧):

وحامـت كنانـة في حربهـا وحامـت تمـيم وحامـت أسـد
وحامـت هـوازن يـوم اللقـا فمـا ضـام منـا ومـنهم أحـد
لقينـا الفـوارس يـوم الخمـيس والعيـد والسـبت ثـم الأحـد
لقينـا قبائـل أنسـابهم إلى حضـرموت وأهـل الجنـد
فأمـدادهم خلـف آذانهـم دعونـا معـداً ونعـم المعـد
فظلنـا نفلِّـق هامـاتهم ولم نـك فيهـا ببـيض البلـد
ونعـم الفـوارس يـوم اللقـا فقـل في عديـد وقـل في عـدد
وقـل في طعـان كفـرغ الـدلاء وضـرب عظـيم كنـار الوفـد
ولكـن عصـفنا بهـم عصـفة وفي الحـرب يمـن وفيهـا نكـد
طحنـا الفـوارس وسـط العجـاج وسـقنا الزعـانف سـوق النقـد
وقلنـا علـيٌّ لنـا والـد ونحـن لـه طاعـة كالولـد

قام عمار يوم صفين فاستنهض معه أصحابه ثم مضى ومضى معه أصحابه، فدنا من عمرو بن العاص فقال:

- يا عمرو بعت دينك بمصر، فتباً لك، وطالما بقيت للإسلام عوجا.

ثم حمل عمار وهو يقول (٥/٢٥٣):

صدق الله وهو للصدق أهل ... وتعالى ربي وكان جليلا
ربِّ عجل شهادة لي بقتلٍ ... في الذي قد أحب قتلاً جميلا
مقبلاً غير مدبرٍ إن للقـ ... ـتل على كل ميتة تفضيلا
إنهم عند ربهم في جنانٍ ... يشربون الرحيق والسلسبيلا
من شراب الأبرار خالطه المسـ ... ـك وكأساً مزاجها زنجبيلا

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وهو يذكر علياً عليه السلام بصفين (٥/٢٥٥):

فلو شهدت جهل مقامي ومشهدي ... بصفين يوماً شاب منها الذوائب
عشية جا أهل العراق كأنهم ... سحاب ربيع رفعته الجنائب
إذا قلت قد ولت سراعاً بدت لنا ... كتائب منهم وأحجنت كتائب
وجئناهم فردى كأن صفوفنا ... من البحر مد موجه متراكب
فدارت رحانا واستدارت رحاهم ... سراة النهار ما تولى المناكب
فقالوا لنا: إنا نرى أن تبايعوا ... فقلنا بلى إنا نرى أن تضاربوا

لما دفع علي عليه السلام الراية إلى هاشم بن عتبة، فألح عليه رجل من العسكر فقال له هاشم:

إذا رأيتني قد صرعت فخذها.

واستحثّ أصحابه فأخذ الراية فهزها، فقال رجل من أصحابه:

- البث قليلاً ولا تعجل.

فقال هاشم (١٣/٨):

قــد أكثــرا لــومي ومــا أقــلا إنــي شــربت الــنفس لــن أعــتلا

أعــور يبغــي أهلــه محــلا قــد عــالج الحيــاة حتــى مــلا

لابــد أن يفــل أو يُفَــلاّ أشــلهم بــذي الكعــوب شــلا

مــع ابــن عــم أحمــد المعلــى فيــه الرســول بالهــدى اســتهلا

أول مــن صــدقه وصــلى فجاهــد الكفــار حتــى أبــلا

وقال أبو الأعور وقد اشتبك العسكران (١٣/٨):

إذا مــا فررنــا كــان أســوا فرارنــا صــدور الخــدود وازورار المناكــب

صــدور الخــدود والقنــا متشــاجر ولا تــبرح الأقــدام عنــد التضــارب

والتقت هذا اليوم همدان بعكّ الشام فقال قائلهم:

همــدان همــدان وعــكُّ عــكُّ ســتعلم اليــوم مــن الأركُّ

لما التحم جيشا العراق والشام وتداخلا حتى حل الليل عليهما، ولما أذن مؤذن علي عليه السلام الفجر، قال علي عليه السلام (١٤/٨):

يــا مرحبــاً بالقــائلين عــدلا وبالصــلاة مرحبــاً وأهــلا

وقال عمار بن ياسر قبيل أن يقتل، وهو ينظر إلى راية عمرو بن العاص: والله إنها الراية التي قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهن، ثم قال (٢٤/٨):

نحـــن ضـــربناكم علـــى تأويلـــه كمـــا ضـــربناكم علـــى تنزيلـــه
ضـــرباً يزيـــل الهـــام عـــن مقيلـــه ويـــذهل الخليـــل عـــن خليلـــه
أو يرجع الحق إلـــــى سبيلـــــه

وكان عمار في ذلك اليوم قد حمل على أهل الشام وهو يرتجز (٢٦/٨):

كـــلا ورب البيـــت لا أبـــرح أجـــي حتـــى أمـــوت أو أرى مـــا أشـــتهي
لا أفتـــأ الـــدهر أحـــامي عـــن علـــي صـــهر الرســـول ذي الأمانـــات الـــوفي
ينصـــرنا رب الســـماوات العلـــي ويقطـــع الهـــام بحـــد المشـــرفي
يمنحنـــا النصـــر علـــى مـــن يبتغـــي ظلمـــاً علينـــا جاهـــداً مـــا يـــأتلي

فضرب أهل الشام حتى اضطرهم على الفرار.

قال عمرو بن العاص يوماً:

- إن النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم يقول لعمار: ((تقتلك الفئة الباغية، وآخر تربك ضياح من لبن (١٦١).

ولما قتل عمار أرسل معاوية إلى عمرو:

لقد أفسدت عليَّ أهل الشام؛ أكل ما سمعت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم تقوله؟

فقال عمرو:

- قلتها ولست أعلم الغيب، ولا أدري أن صفين تكون؛ قلتها وعمار يومئذٍ لك ولي، وقد رويت أنت فيه مثل ما رويت. فغضب معاوية وتنمر لعمرو،

وعزم على منعه خيره، فقال عمرو لابنه وأصحابه: لا خير في جوار معاوية، إن تجلّت هذه الحرب لأفارقنّه وقال (٢٧/٨):

تعـــاتبني أن قلـــت شـــيئاً سمعتـــه | وقد قلت - لو أنصفتني- مثله قبلي
أنعلـــك فيمـــا قلـــت نعـــل ثبيتـــة | وتزلـق بـي في مثـل مـا قلتـه نعلـي؟
ومـا كـان لـي علـم بصـفين أنهـا | تكـون وعمـار يحـث علـى قتلـي
ولـو كـان لـي بالغيـب علـم كتمتهـا | وكابـدت أقوامـاً مراجلـهم تغلـي
أبـى اللّه إلا أن صـدرك واغـر | علـيَّ بـلا ذنـب جنيـت ولا ذحـل
سـوى أنـني والراقصـات عشـية | بنصـرك مـدخول الهـوى ذاهـل العقـل
فـلا وضـعت عـني حصـان قناعهـا | ولا حملـت وجنـاء ذعلبـة رحلـي
ولا زلـت أدعـى في لـؤي بـن غالـبٍ | قلـيلاً غنـائي لا أمـرٌّ ولا أحلـي
إن اللّه أرضـى مـن خناقـك مـرة | ونلـت الـذي رجيـت إن لم أزد أهلـي
وأتـرك لـك الشـام الـذي ضـاق رحبهـا | عليك ولم ينهك بها العشي من أجلي

فأجابه معاوية (٢٨/٨):

أألان لمـا ألقـت الحـرب ركبهـا | وقـام بنـا الأمـر الجليـل علـى رجـل
غمـزت قنـاتي بعـد سـتين حجـة | تباعـاً كـأني لا أمـر ولا أحلـي
أتيـت بـأمر فيـه للشـام فتنـة | وفي دون مـا أظهرتـه زلـة النعـلِ
فقلـت لـك القـول الـذي لـيس ضـائراً | ولـو ضـر لم يضـررك حملـك لـي ثقلـي
تعـــاتبني في كـــل يـــوم وليلـــة | كـأن الـذي أبليـك لـيس كمـا أبلـي

فيـــا قـــبح الله العتـــاب وأهلـــه ... ألم تـر مـا أصـبحت فيـه مـن الشـغل
فـدع ذا ولكـن هـل لـك اليـوم حيلـة ... تــرد بهــا قومــاً مراجلــهم تغلــي
دعـــاهم علـــي فاســـتجابوا لـــدعوةٍ ... أحـب إلـيهم مـن ثـرى المـال والأهـل
إذا قلـت هـابوا حومـة المـوت أرقلـوا ... وفي دون مـــا أظهرتـــه زلـــة النعـــلِ

فلما أتى عمرو شعر معاوية أتاه فأرضاه وصار أمرهما واحداً.

وأقبل هاشم بن عتبة - من جيش علي عليه السلام - على جيش معاوية وكان أعور وصار يرتجز (٢٩/٨):

أعـــور يبغـــي نفســـه كلاصـــا ... مثـــل الفتيـــق لابســـاً دلاصـــا
قـــد جـــرب الحـــرب ولا أناصـــا ... لا ديـــة يخشـــى ولا قصاصـــا
كـــل امـــريءٍ وإن كبـــا وصاصـــا ... لـــيس يـــرى مـــن يومـــه مناصـــا

فحمل صاحب لواء ذي الكلاع - هو رجل من عذرة - فقال:

يـا أعـور العـين ومـا بـي مـن عـور ... أثبـت فـإني لسـت مـن فرعـي مضـر
نحـــن اليمـــانون ومـــا فينـــا خـــور ... كيـف نـرى وقـع غـلام مـن عُـذر
بـنص ابـن عفـان ويلحـن مـن عـذر ... سـيان عنـدي مـن سـعى ومـن أمـر

ولما قتل هاشم وذو الكلاع حمل عبد الله بن هاشم اللواء وارتجز وقال:

يـــا هاشـــم بـــن عتبـــة بـــن مالـــك ... أعـــزز بشـــيخ مـــن قـــريش هالـــك
تحيطـــه الخـــيلان بالســـنابك ... في أســـود مـــن نقعهـــن حالـــك
أبشـــر بحـــور العـــين بالأرائـــك ... والـــروح والريحـــان عنـــد ذلـــك

لما عرف الإمام علي عليه السلام بقتل هاشم وقف وحوله عصابة من أسلم قد صرعوا معه، وقوم من القراء فجزع عليه السلام عليه وقال (٣٥/٨):

جزى الله خيراً عصبة أسلمية ... صباح الوجوه صرعوا حول هاشم

يزيدٌ وسعدانٌ وبشرٌ ومعبدٌ ... وسفيان وابنا معبد ذي الأكارم

وعروة لا يبعد ثناه وذكره ... إذا اخترطت يوماً خفاف الصوارم

وقالت امرأة من أهل الشام في قتل هاشم وعمار (٣٦/٨):

لا تعدموا قوماً أذاقوا ابن ياسرٍ ... شعوباً ولم يعطوكمُ بالخزائم

فنحن قتلنا اليثربي بن محصنٍ ... خطيبكم وابني بديلٍ وهاشم

أما اليثربي، فهو عمرو بن محصن الأنصاري، وقد رثاه النجاشي شاعر أهل العراق فقال (٣٧/٨):

لنعم فتى الحيين عمرو بن محصنٍ ... إذا صارخ الحي المصبح ثوّبا

إذا الخيل جالت بينها قصدُ القنا ... يثرن عجاجاً ساطعاً متنصبا

لقد فجع الأنصار طراً بسيدٍ ... أخي ثقةٍ في الصالحات مجرّبا

فيا رب خيرٍ قد أفهت، وجعبة ... ملأت، وقرن قد تركت مسلبا

فيا رب خصمٍ قد رددت بغيظه ... فآب ذليلاً بعد أن كان مغضبا

وراية مجدٍ قد حملت وغزوةٍ ... شهدت إذا النكس الجبان تهيباً

حويطاً على جل العشيرة ماجداً ... وما كنت في الأنصار نكساً موثّبا

طويل عماد المجد رحباً فناؤه ... خصيباً إذا ما رائد الحي أجدبا

عظـيم رمـاد النـار لم يـك فاحشـاً   ولا فشـــلاً يـــوم النـــزال مغلبـــا
وكنــت ربيعــاً ينفــع النــاس سـيبه   وسـيفاً جـرازاً فاتـك الحـد مقضـبا
فمـن يـك مسـرورا بقتـل ابـن محصـنٍ   فعــاش شــقياً ثــم مــات معــذبا
وغـــودر منكبـــاً لفيـــه ووجهـــه   يعـــالج رمحـــاً ذا ســـنانٍ وثعلبـــا
فـإن يقتلـوا الحـرّ الكـريم بـن محصـنٍ   فـــنحن قتلنـــا ذا الكـــلاع وحوشـــبا
وإن يقتلـــوا ابـــني بـــديلٍ وهاشـــمٍ   فـــنحن تركنـــا مـــنكم القـــرن أعضـــبا
ونحـــن تركنـــا حمـــيراً في صـــفوفهم   لـدى الحـرب صـرعى كالنخيـل مشـذّبا
وأفلتنـــا تحـــت الأســـنة مـــدثِرٌ   وكـــان قـــديماً في الفـــرار مـــدربا
ونحـــن تركنـــا عنـــد مختلـــف القنـــا   أخـــاكم عبيـــد اللّه لحمـــاً ملحبـــا
بصـــفين لمـــا أرفـــض عنـــه رجـــالكم   ووجـــه ابـــن عتّـــاب تركنـــا ملغّبـــا
وطلحـــة مـــن بعـــد الـــزبير ولم نـــدع   لضـــبة في الهيجـــا عريفـــاً منكّبـــا
ونحـــن أحطنـــا بـــالبعير وأهلـــه   ونحـــن ســـقيناكم ســـحاماً مقشـــبا

وفي قتل هاشم بن عتبة يقول أبو الطفيل عامر بن وائلة الكناني، وهو من الصحابة وقيل أنه آخر من بقي من صحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وشهد مع علي صفين، وكان من مخلصي الشيعة (٣٨/٨) :

يـا هاشـم الخـير جزيـت الجنـة   قاتلـــت في اللّه عـــدو الســـنّه
والتـــاركي الحـــق وأهـــل الظنـــة   أعظـم بمـا فـزت بـه مـن منـه
صـــيرني الـــدهر كـــأني شـــنّة   وســـوف تعلـــو فـــوق قـــبري رنـــه

من زوجة وحوبـــــــــة وكنـــه

وقال رجل من عذرة من أهل الشام (٨/٣٩):

لقــد رأيــت أمــوراً كلــها عجــب　　ومــا رأيــت كأيــام بصــفينا
لمــا غــدوا وغــدونا كلنــا حنِــقٌ　　لمـا رأيـت الجمـال الجلـة الجونـا
خيــل تجــول وأخــرى في أعنتهــا　　وآخــرون علــى غــيظ يرامونـا
ثــم ابتــذلنا ســيوفاً في جمــاجمهم　　ومــا نســاقيهم مــن ذاك يجزونـا
كأنهــا في أكــف القــوم لامعــة　　سلاســل الــبرق تجــدعن العرانينـا
ثــم انصــرفنا كأشــلاء مقطعــة　　وكلــهم عنــد قــتلاهم يصــلونا

ولما فر عتبة ابن أبي سفيان عشرين فرسخاً عن موضع المعركة التي قادها الإمام علي عليه السلام حتى أتى الشام، قال النجاشي قصيدة أولها (٨/٤٠):

لقــد أمعنــت يــا عتــب الفــرارا　　وأورثــك الــوغى خزيــاً وعــارا
فــلا يحمــد خصــاك ســوى طِمــرٍّ　　إذا أجريتــه انهمــر انهمــارا

وهجا كعب بن جعيل عتبة بن أبي سفيان وعيّره بالفرار، وكان كعب من شيعة معاوية، لكنه هجا عتبة تحريضاً له، فهجاه عتبة جواباً له (٨/٤١):

وسميــت كعبــاً بشــر العظــام　　وكــان أبــوك يُســمى الجُعُــل
وإن مكانــك مــن وائــلٍ　　مكــان القــراد مــن أســت الجمــل

وقال معقل بن نهيك بن يساف الأنصاري في قتلى معركة يوم الخميس، وقد قتل فيها أعلام العرب (٨/٤٢):

يـا لهـف نفسـي ومـن يشـفي حزازتهـا ... إذ أفلـت الفاسـق الضـليل منطلقـا
وأفلـت الخيـل عمـرو وهـي شـاحبة ... تحـت العجـاج تحـث الـركض والعنقـا
وافـت منيـة عبـد الله إذ لحقـت ... قُـبٌّ الخيـول بـه أعجـز بمـن لُحِقـا
وانسـاب مـروان في الظلمـاء مسـتتراً ... تحـت الـدجى كلمـا خـاف الـردى أرقـا

وقال مالك الأشتر:

نحـن قتلنـا حوشـبا ... لمـا غـدا قـد أعلمـا
وذا الكـلاع قبلـه ... ومعبـداً إذ أقـدما
إن تقتلـوا منـا أبـا الـ ... يقظـان شـيخاً مسـلما
فقـد قتلنـا مـنكم ... سـبعين شـيخاً مجرمـا
أضـحوا بصـفين وقـد ... لاقـوا نكـالا مؤثمـا

وقالت ضبعة بنت خزيمة ذي الشهادتين ترثي أباها رحمه الله (٨/٤٢ـ٤٣):

عـين جـودي علـى خزيمـة بالـدمع ... قتيـل الأحـزاب يـوم الفـرات
قتلـوا ذا الشـهادتين عتـوّاً ... أدرك الله مـنهم بـالثِّرات
قتلـوه في فتيـةٍ غـير عـزلٍ ... يسـرعون الركـوب في الـدعوات
نصـروا السـيد الموفـق ذا العـد ... ل، ودانـوا بـذاك حـق الممـات
لعـن الله معشـراً قتلـوه ... ورمـاهم بـالخزي والآفـات

أتى علقمة بن زهير الأنصاري الإمام علي عليه السلام فقال:

يا أمير المؤمنين، إن عمرو بن العاص يرتجز في الصف بشعر أفأسمعكه؟

قال نعم.

قال:

إنه يقول (٨/٤٦):

إذا تخـــازرت ومـــا بـــي مـــن خـــزر ثـــم كســـرت العـــين مـــن غـــير عـــور
ألفيـــتني ألـــوي بعيـــد المســـتمر ذا صـــولة في المصـــمئلات الكـــبر
أحمـــل مـــا حُمِّلـــت مـــن غـــير وشـــر كالحيـــة الصـــماء في أصـــل الحجـــر

فقال الإمام علي عليه السلام:

اللهم العنه؛ فإن رسولك لعنه.

قال علقمة:

وإنه يا أمير المؤمنين يرتجز برجز آخر، فأنشدك؟

قال: قل

فقال:

أنـــا الغـــلام القرشـــي المـــؤتمن الماجـــد الأبلـــج ليـــث كالشـــطن
ترضـــى بـــي الشـــام إلى أرض عـــدن يـــا قـــادة الكوفـــة يـــا أهـــل الفـــتن
يا أيها الأشراف من أهل اليمـــــن
أضـــــربكم ولا أرى أبـــــا الحســـــن أعـــــني عليـــــاً وابـــــن عـــــم المـــــؤتمن
كفى بهذا حزناً من الحـــــــزن

فضحك علي عليه السلام وقال:

إنه لكاذب وإنه بمكاني لعالم، كما قال العربي:

((غير الوهى ترقعين وأنت مبصرة))

ويحكم أروني مكانه؛ لله أبوكم وخلاكم ذم.

وقال محمد بن عمرو بن العاص (وقد نقلنا بعضها من ٥٥/٥) على أنها لعبد الله بن عمرو بن العاص وهو يذكر علياً عليه السلام بصفين، وهنا ننقلها من (٤٧/٨):

(و) لو شهدت جملٌ مقامي ومشهدي ... بصفين يوماً شاب منها الذوائب
غداة غدا أهل العراق كأنهم ... من البحر موجٌ لجُّهُ متراكب
وجئناهم نمشي صفوفاً كأننا ... سحاب خريف صففته الجنائب
فطارت إلينا بالرماح كماتهم ... وطرنا إليهم والسيوف قواضب
فدارت رحانا واستدارت رحاهم ... سراة نهار ما تولى المناكب
إذا قلت يوماً قد دنوا برزت لنا ... كتائب منهم واحتمنت كتائب
وقالوا لنا من رأينا أن تبايعوا ... علياً، فقلنا، بل نرى أن تضاربوا
وقالوا وقد أردوا سراة رجالنا ... وليس لما لاقوا سوى الله حاسب
فلم أر يوماً كان أكثر باكياً ... ولا عارضاً منهم كمياً يكالب
كأن تلالي البيض فينا وفيهم ... تلألُؤ برقٍ في تهامة ثاقب

فرد عليه محمد بن علي بن أبي طالب عليه السلام:

(و) لو شهدت جمل مقامك أبصرت ... مقام لئيم وسط تلك الكتائب

أتــذكر يومــاً لم يكــن لــك فخــره   وقــد ظهــرت فيــه عليــك الجلائــب
وأعطيتمونــا مــا نقمــتم أذلــة   علــى غــير تقــوى الله والــدين واصــب

وقال النجاشي يذكر علياً وجِدّه في الأمر (٤٨/٨):

إنــي أخــال عليــاً غــير مرتــدعٍ   حتــى تقــام حقــوق الله والحُــرُم
أمــا تــرى النقــع معصــوباً بلمّتــه   كأنــه الصــقر في عرنينــه شمــم
غضــبان عــرَّقَ نابيــه علــى حنــقٍ   كمــا يغــط الفنيــق المصــعب القطــم
حتــى يزيــل ابــن حــربٍ عــن إمارتــه   كمــا تنكــب تــيس الحلبــة الحلــم
(حتــى) تــرَوْهُ كمثــل الصــقر مرتبئــاً   يخفقــن مــن حولــه العقبــان والــرخم

وقال النجاشي أيضاً يمدح علياً عليه السلام ويهجو معاوية، وقد بلغه أنه يتهدده (٤٨/٨-٤٩):

يــا أيهــا الرجــل المبــدي عداوتــه   روِّيء لنفســك أي الأمــر تــأتمر؟
لا تحســبني كــأقوام ملكــتهمُ   طــوع الأعنَّــة لمــا ترشــح الغُــدُر
ومــا علمــت بمــا أضــمرت مــن حنــقٍ   حتــى أتــتني بــه الرُكبــان والنُــذُر
إذا نفســت علــى الأنجــاد مجــدهم   فابســط يــديك فــإن الخــير مبتــدر
أعلــم بــأن علــي الخــير مــن نفــرٍ   شــم العــرانين لايعلــوهمُ بشــر
لا يجحــد الحاســد الغضــبان فضــلهمُ   مــا دام بــالحزن مــن صــمائها حجــر
نعــم الفتــى أنــت إلاّ أن بينكمــا   كمــا تفاضــل ضــوء الشــمس والقمــر
ولا أخالــك ألا لســت منتهيــاً   حتــى يمســك مــن أظفــاره ظفــر

لا تحمــــدن أمــــراً حتـــى تجربــــه ولا تــــذمن مـــن لم يبلـــه الخـــبر

أنــي أمــرؤ قلمــا أثـني علــى أحــدٍ حتــى أرى بعـض مــا يــأتي ومــا يــذر

وأن طــوى معشـر عــني عــداوتهم في الصـــدر أو كـــان في إبصـــاره خـــزر

أزمعـــت عزمـــاً جراميـــزي بقافيـــة لايـــبرح الـــدهر منهـــا فـــيهم أثـــر

وفي زحمة القتال قال عمرو بن العاص (٤٩/٨):

أجئـــتم الينـــا تســـفكون دماءنـــا ومـــا رمـــتم وعـــر مـــن الأمـــر أعســـر

لعمـــري لمـــا فيـــه يكـــون حجاجنـــا الى اللّه أوهـــى لـــو عقلـــتم وأنكـــر

تعـــاورتم ضـــرباً بكـــل مهنـــدٍ إذا شـــد وردانٌ تقـــدم قنـــبر

كتـــائبكم طـــوراً نشـــد وتـــارةً كتائبنـــا فيهـــا القنـــا والســـنوَّر

إذا مـــا التقـــوا يومـــاً تـــدارك بيـــنهم طعـــان ومـــوت في المعـــارك أحمـــر

وقال رجل من كلب مع معاوية يهجوا أهل العراق ويوبخهم (٥٠/٨):

لقـــد ضـــلت معاشـــر مـــن نـــزارٍ إذا انقـــادوا لمثـــل أبـــي تـــراب

وأنهـــم وبيعـــتهم عليـــاً كواشمـــة التغضـــن بالخضـــاب

تـــزين مـــن ســـفاهتها يـــديها وتحســـر باليـــدين عـــن النقـــاب

فإيـــاكم وداهيـــة نئـــوداً تســـير إلـــيكم تحـــت العقـــاب

إذا ســـاروا سمعـــت لخـــافتيهم دويـــاً مثـــل تصـــفيق الســـحاب

يجيبـــون الصـــريخ إذا دعـــاهم وقـــد طعـــن الفـــوارس بـــالحراب

علـــيهم كـــل ســـابغة دلاصٍ وابـــيض صـــارم مثـــل التهـــاب

وقال أبو حيّة بن غزية الأنصاري، وهو الذي عقر الجمل يوم البصرة، وأسمه عمرو:

سائل حليلة معبر عن بعلها ... وحليلة اللخمي وابن كلاع
وأسأل عبيد الله عن فرساننا ... لما ثوى متجدلاً بالقاع
وأسأل معاوية المولي هارباً ... والخيل تمعج وهي جد سراع
ماذا يخبرك المخبر منهم ... عنهم وعنا عند كل وقاع
أن يصدقوك يخبروك بأننا ... أهل الندى قدماً نجيب الداعي
أن يصدقوك يخبروك بأننا ... نحمي الحقيقة كل يوم مصاع
ندعوا إلى التقوى ونرعى أهلها ... برعاية المأمون لا المضياع
ونسنُّ للأعداء كل مثقفٍ ... لدنٍ وكل مشطب قطاع

وقال عدي بن حاتم الطائي (٨/٥١):

أقول لما أن رأيت المعمعة ... وأجتمع الجندان وسط البلقعة
هذا عليٌّ والهدى - حقاً - معه ... يا رب فأحفظه ولا تضيعه
فأنه يخشاه رب فأرفعه ... ومن أراد عيبه فضعفه
أو كاده بالبغي منك فأقمعه

وقال النعمان بن جعلان الأنصاري:

سائل بصفين عنا عند غدوتنا ... أم كيف كنا إلى العلياء نبتدر
وسل غداة لفينا الأزد قاطبة ... يوم البصيرة لما أستجمعت مضر

لـولا الآلـه وعفـو مـن أبـي حسـنٍ ... عـنهم ومـا زال منـه العفـو ينتظـر
لمـا تـداعت لهـم بالصـبر داعيـة ... إلا الكـلاب وإلا الشـاء والحُمـر
كـم مقعـص قـد تركنـاه بمغفـرةٍ ... تعـوي السـباع عليـه وهـو منعفـر
مـا أن يـؤوب ولا ترجـوه أسـرته ... إلى القيامـة حتـى يـنفخ الصـور

وقال عمرو بن الحمق الخزاعي (٥٢/٨):

تقـول عرسـي أن لمـا رأت أرقـي ... مـاذا يهيجـك مـن أصـحاب صـفينا
الست في عصبة يهدي الإلـه بهـم ... لا يظلمـون، ولا بغيـاً يريـدونا
فقلت: أني على ما كان من رشدٍ ... أخشى عواقب أمر سوف يأتينا
أدالـة القـوم في أمـر يـراد بنـا ... فـأقني حيـاء وكفـي مـا تقولينـا

وقال حجر بن عدي الكندي:

يـا ربنـا سـلِّم لنـا عليّـا ... سـلم لنـا المهـذب التقيـا
المـؤمن المسترشـد الرضـيّا ... وأجعلـه هـادي أمـةٍ مرضـيّا
وأحفظـه ربـي حفظـك النبيـا ... لاخطـل الـرأي ولا غبيـا
فانـه كـان لنـا وليـا ... ثـم أرتضـته بعـده وصـيا

وكان علي عليه السلام إذا أراد الحملة هلل وكبر، ثم قال (٥٥/٨):

مـن أيِّ يـوميَّ مـن المـوت أفـر ... أيـوم لم يقـدر أم يـوم قُـدر؟

وقال النجاشي في أحد أيام صفين يذكر الأشتر (٥٥/٨):

ولمـا رأينـا اللـواء العقـاب ... يقحِّمـه الشـاني ء الأخـزر

كليـــث العـــرين خـــلال العجـــاج | واقبــــــل في خيلـــــه الأبـــــتر
دعونـــا لهـــا الكـــبش كـــبش العـــراق | وقـــد أضـــمر الفشـــل العســـكر
فـــردَّ اللـــواء علـــى عقبـــه | وفـــاز بخطوتهـــا الأشـــتر
كمـــا كـــان يفعـــل في مثلـــها | إذا نـــاب معصوصـــب منكـــر
فـــإن يـــدفع الله عـــن نفســـه | فحـــظ العـــراق بـــه الأوفـــر
إذا الأشـــتر الخـــير خلـــى العـــراق | فقـــد ذهـــب العـــرف والمنكـــر
وتلـــك العـــراق ومـــن عرفـــت | كفقـــعٍ تضـــمنه القرقـــر

ولما ثخن الجرح في كلا العسكرين طاف الإمام علي عليه السلام على صفوف رجاله ثم دعا ببغلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم فركبها ثم تعصب بعمامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، وكانت سوداء، ثم نادى : -

أيها الناس، من يشر نفسه الله يربح، وأن هذا اليوم له ما بعده، أن عدوكم قد مسَّه القرح كما مسّكم، فأنتدبوا لنصرة دين الله، فأنتدب له ما بين عشرة آلاف إلى أثني عشر الفاً، وقد وضعوا سيوفهم على عواتقهم، فشد بهم على أهل الشام، وهو يقول (٨/٥٨) :

دبـــوا دبيـــب النمـــل لا تفوتـــوا | واصـــبحوا في حـــربكم وبيتـــوا
حتـــى تنـــالوا الثـــأر أو تموتـــوا | أو لا فـــأني طالمـــا عُصـــيت
قـــد قلـــتم لـــو جئتنـــا فجيـــت | لـــيس لكـــم مـــا شـــئتم وشـــيت
بـــل مـــا يريـــد المحيـــيُ المميـــت

وتبعه عدي بن حاتم بلوائه. وهو يقول (٨/٥٨):

أبعـد عمـارٍ وبعـد هاشـم وابـن بـديل فـارس الملاحـم

نرجـو البقـاء ضـل حلـم الحـالم لقـد غصصـنا أمـس بالأبـاهم

فـاليوم لا نقـرع سـن نـادم لـيس أمـرؤ مـن حتفـه بسـالم

فحمل وحمل الأشتر بعدها في أهل العراق كافة، فلم يبق لأهل الشام صف إلا أنتقض، و راهن أهل العراق أتوا عليه، وحتى أفضى إلا إلى مضرب معاوية، وعلي عليه السلام يضرب الناس بسيفه قُدُماً ويقول (٨/٥٨ـ٥٩):

أضـربهم ولا أرى معاويـة إلا خـزر العـين العظـيم الحاويـة

هـوت بـه للنـار أمٌّ هاويـة

فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه، فلما وضع رجله في الركاب توقف وتلّوم قليلاً، ثم أنشد قول عمرو بن الأطنابة (٨/٥٩):

أبـت لـي عفـتي وأبـى بلائـي وأخـذ الحمـد بـالثمن الـربيح

واقـدامي علـى المكـروه نفسـي وضـربي هامـة البطـل المشـيح

وقـولي كلمـا جشـأت وجاشـت مكانـك تحمـدي أو تسـتريحي

لأ دفـع عـن مـآثر صـالحاتٍ وأحمـي بعـد عـن عـرض صـحيح

بـذي شـطب كلـون الملـح صـافٍ ونفـس مـا تقـر علـى القبـيح

ثم قال: ـ

يا عمرو بن العاص، اليوم صبر وغداً فخر.

قال: -

صدقت، أنك ما أنت فيه كقول القائل (٨/٥٩):

ما علتي وأنا جلد نابل والقوس منها وتر عنابل

تزل عن صفحتها المعابل الموت حق والحياة باطل

فثنى معاوية رجله من الركاب، ونزل واستصرخ بعك والأشعريين، فوقفوا دونه، وجالدوا عنه حتى كره كل من الفريقين صاحبه وتحاجز الناس.

تعرض عمرو بن العاص لعلي عليه السلام يوماً من أيام صفين فحمل عليه علي عليه السلام، فلما كاد أن يخالطه إذ رمى نفسه عن فرسه ورفع ثوبه وشطر برجليه، فبدت عورته فصرف عليه السلام وجهه عنه، وقام معفراً بالتراب، هارباً على رجليه معتصماً بصفوفه، وقال معاوية في ذلك (٨/٦٠-٦١):

ألا لله من هفوات عمرو يعاتبني على تركي برازي

فقد لاقى أبا حسنٍ علياً فآب الوائليُ مآب خازي

فلو لم يبد عورته لطارت بمهجته قوادم أي بازي

فان تكن المنية أطفأته فقد أورى بها أهل الحجاز!

فغضب عمرو وقال:

ما أشد تعظيمك علياً، أبا تراب في أمري؟ هل أنا إلا رجل لقيه ابن عمه فصرعه؟ أفترى السماء قاطرة لذلك دما؟

قال:

لا، ولكنها معقبة لك خزياً.

ولما أشتد الأمر وعظم على أهل الشام بعث معاوية أخاه عتبة بن أبي سفيان إلى الأشعث فكلمه ليستميله فرد الأشعث عليه كلامه بما أفحمه، فلما عاد عتبة إلى معاوية وأبلغه قوله قال له:

لا تلقه بعدها.

وشاع في أهل العراق ما قاله عتبة للأشعث وما رد الأشعث عليه، فقال النجاشي يمدحه (٦٢/٨):

يــا ابــن قــيس وحــارث ويزيــد	أنــــت والله رأس أهــــل العــــراق
أنـــت والله حيـــة تنفـــث الســـم	قليــــل منهـــا غنـــاء الراقـــي
أنـــت كالشـــمس والرجـــال نجـــوم	لايـــرى ضـــوؤها مـــع الأشـــراق
قـد حميـت العـراق بالأسـل السـمر	وبـــالبيض كـــالبروق الرقـــاق
وســـعرت القتـــال بالشـــام بالبيـــ	ــض المواضـــي وبالرمـــاح الـــدقاق
لا تـــرى غـــير أذرع وأكـــفٍ	ورؤوس بهامهـــــا أفــــــلاق
كلمـا قلـت قـد تصـرفت الهيجـا	ســـقيتهم بكـــأس دهـــاق
قـد قضـيت الـذي عليـك مـن الحـق	وســـارت بـــه القـــلاس المنـــاقي
أنـــت حلـــو لمـــن تقـــرب بـــالود	وللشـــانئين مـــرّ المـــذاق
بئسـما ظنـه ابـن هنـد ومـن مثـــ	ــلك في النـاس عنـد ضـيق الخنـاق

ولما يئس معاوية من الأشعث طلب من عمرو بن العاص أن يكتب إلى عبد الله بن عباس يستميله إلى جانبه لعل الحرب تنتهي فكتب ابن العاص الكتاب وكتب في أسفل الكتاب (٨/٦٨):

طال البلاء وما يرجى له آسِ ... بعد الإله سوى رفق ابن عباس
قولا له قول من يرجو مودته: ... لا تنسى حظك أن الخاسر الناسي
أنظر فدى لك نفسي قبل قاصمة ... للظهر ليس لها راق ولا آسِ
أن العراق وأهل الشام لن يجدوا ... طعم الحياة مع المستغلق القاسي
يا ابن الذي زمزم سقيا الحجيج له ... أعظم بذلك من فخر على الناسِ
أني أرى الخير في سلم الشام لكم ... والله يعلم ما بالسلم من باسِ
فيها التقى وأمور ليس يجهلها ... وما رأي نوكي كأكياسِ

فأجابه ابن عباس بكتاب عنفه فيه وأظهر عيوبه وطلب من أخيه الفضل أن يذيّل الكتاب بأبيات ففعل وقال (٨/٦٤):

يا عمرو حسبك من مكرٍ ووسواس ... فاذهب فليس لداء الجهل من آس
إلا تواتر طعن في نحوركم ... يشجي النفوس ويشفي نحوه الراس
اما علي فأن الله فضله ... بفضل ذي شرف عال على الناس
أن تعقلوا الحرب نعقلها مخيّسة ... أو تبعتوها فانا غير أنكاس
قد كان منا ومنكم في عجاجتها ... ما لا يرد، وكل عرضة الباس
قتلى العراق بقتلى الشام ذاهبة ... هذا بهذا وما بالحق من باس

لا بـارك اللّه في مصـر لقـد جلبـت ... شـراً وحظـك منهـا حسـوة الكـأس

يـا عمـرو أنـك عـار عـن مغارمهـا ... -والراقصـات - ومـن يـوم الجـزا كـاس

ولما وصـل الكتـاب الى ابـن العـاص عرضـه علـى معاويـة فأجابـه بكتـاب مسْخِط فرده ابن عباس بكتاب أكثر أسخاطاً. ولما وصل الكتاب الى معاوية قال:

هذا عملي بنفسي، لا أكتب - والله - اليه كتاباً سنة كاملة وقال (٨/٦٧):

دعـوت ابـن عبـاس الى جـل حظـه ... وكـان أمـرأً أُهـدي إليـه رسـائلي

فـأخلف ظـني والحـوادث جمـة ... ومـا زاد أن أغلـى عليـه مراجلـي

فقـل لأبـن عبـاس أراك مخوِّفـاً ... بجهلـك حلمـي أنـني غـير غافـل

فـأبرق وأرعـد مـا اسـتطعت فـأنني ... إليـك بمـا يشـجيك سـبط الأنامـل

وفي أحد أيام صفين عقد معاوية الرئاسة على اليمن من قريش، قصد بذلك إكرامهم ورفع منازلهم، ومنهم عبيد الله بن عمر بن الخطـاب، ومحمـد وعتبـة ابـن أبي سفيان، وبُسر بـن أبي أرطـأة، وعبـد الـرحمن بـن خالـد بـن الوليـد، وذلـك في الوقعات الأول من صفين أفغمَّ ذلك أهل اليمن، وأرادوا أن لا يتأمر عليهم أحـد إلا منهم، فقام اليه رجل من كندة، يقال له عبد الله بن الحارث السَّكوتي، فقال:

أيها الأمير، إني قلت شيئاً فاسمعه وضعه مني على النصيحة.

قال: هات.

فأنشده:

معـاويَ أحييـت فينـا الأحـن ... وأحـدثت بالشـام مـا لم يكـن

عقدت لبسر وأصحابه وما الناس حولك إلا اليمن
فلا تخلطنَّ بنا غيرنا كما شيب بالماء صفو اللبن
وإلا فدعنا على حالنا فأنّا وإنّا إذا لم نهن
ستعلم أن جاش بحر العراق وأبدى نواجذه في الفتن
وشدَّ عليٌّ بأصحابه ونفسك إذ ذاك عند الذقن
بأنّا شعارك دون الدثار وإنّا الرماح وإنّا الجُفَن
وإنّا السيوف وإنّا الحتوف وإنّا الدروع وإنّا المحن

فبكى معاوية (لعله بكاء ضعيف ماكر) ونظر إلى وجوه أهل اليمن فقال:

أعن رضاكم يقول ما قال؟

قالوا:

لا مرحباً بما قال؛ إنما الأمر إليك، فاصنع ما أحببت.

فقال معاوية:

أنما خلطت بكم أهل ثقتي، ومن كان لي فهو لكم؛ ومن كان لكم فهو لي، فرضي القوم وسكتوا. فلما بلغ أهل الكوفة مقال عبد الله بن الحارث لمعاوية قام الأعور الشني إلى علي عليه السلام فقال: ـ

يا أمير المؤمنين، إنّا لا نقول لك كما قال صاحب أهل الشام لمعاوية، ولكن نقول: زاد الله في سرورك وهداك!نظرت بنور الله، فقدَّمت رجالاً واخَّرت رجالاً، عليك أن تقول، وعلينا أن نفعل، أنت الإمام، فأن هلكت فهذان من بعدك،

حسناً وحسيناً عليهما السلام وقد قلت شيئاً فأسمعه.

قال عليه السلام:

هاته

فأنشد (٨/٦٨ ـ ٦٩):

أبـا حسـن أنـت شمـس النهـار ... وهـذان في الحادثـات القمـر
وأنـت وهـذان حتـى الممـات ... بمنزلـة السـمع بعـد البصـر
وانـتم أنـاس لكـم سـوْرَةٌ ... تقصـر عنهـا أكـف البشـر
يخبرنـا النـاس عـن فضـلكم ... وفضـلكم اليـوم فـوق الخـبر
عقـدتَ لقـوم أولـي نجـدةٍ ... مـن أهـل الحيـاة وأهـل الخطـر
مسـابيح بـالموت عنـد اللقـاءِ ... منـا واخواننـا مـن مضـر
ومـن حـيٍّ ذي يمـنٍ جبلـةٌ ... يقيمـون في النائبـات الصَّعَر
فكـلٌ يسـرَّك في قومـه ... ومـن قـال، لا، فبفيـه الحجـر
ونحـن الفـوارس يـوم الـزبير ... وطلحـة إذ قيـل أودى غَـدر
ضـربناهم قبـل نصـف النهـار ... إلى الليـل حتـى قضـينا الـوطر
ولم يأخـذ الضـرب إلا الـرؤوس ... ولم يأخـذ الطعـن إلا الصـغَر
فـنحن أولئـك في أمسـنا ... ونحـن كـذلك فيمـا غـبر

فلم يبق أحد من الرؤساء إلا أهدى إلى الشني واتحفه.

إن بُسر بن أرطأة بارز علياً يوم صفين فطعنه علي عليه السلام فصرعه،

فأنكشف له، فكف عنه، كما عرض له مثل ذلك مع عمرو بن العاص. فقال الحارث بن نضير الخشعمي – وكان عدواً لعمرو بن العاص وبُسر بن أرطأة (٦/٣١٦-٣١٧):

أفي كل يوم فارس لك ينتهي — وعورته وسط العجاجة باديه
يكف لها عنه عليٌّ سنانه — ويضحك منها في الخلاء معاويه
بدت أمس من عمرو فقنع رأسه — وعورة بُسر مثلها حذو حاذيه
فقولا لعمرو وثم بُسرٍ: ألا انظرا — لنفسيكما: لا تلقيا الليث ثانيه
ولا تحمدا إلا الحيا وخصاكما — هما كانتا والله – للنفس واقيه
ولولاهما لم تنجوا من سنانه — وتلك بما فيها إلى العود ناهية
متى تلقيا الخيل المغيرة صبحه — وفيها عليٌّ فأتركا الخيل ناصية
وكونا بعيداً حيث لا يبلغ القنا — نحوركما، إن التجارب كافية

بعد أن تعاظمت الأمور على معاوية قبل قتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، دعا أركانه إلى شن هجوم على معسكر علي عليه السلام بعد أن وزعهم كل واحد أزاء فارس من أهل العراق، وخلال خمسة أيام، ثم قصد لهمدان بنفسه وارتجز فقال (٨/٦٩):

لا عيش إلا فَلّق قحف الهام — من أرحب وشاكر وشبام
لن تمنع الحرمة بعد العام — بين قتيل وجريح دام
سأملك العراق بالشام — أنعى ابن عفان مدى الأيام

فطعن في عرض الخيل ملياً، ثم أن همدان تنادت بشعارها، وأقحم سعيد بن قيس فرسه على معاوية، واشتد القتال، حتى حجز بينهم الليل، فهمدان تذكر أن سعيداً كان يقتنصه (معاوية) إلا أنه فاته راكضاً، وقال سعيد في ذلك (٧٠/٨):

يا لهف نفسي فأتني معاويه　　　فوق طمرٍ كالعقاب هاويه
والراقصات لا يعود ثانيه　　　إلا على ذات خصيل طاويه
أن يَعُدِ اليوم فكفّي عاليه

وانصرف معاوية في ذلك اليوم، ولم يصنع شيئاً، وغدا عمرو بن العاص في اليوم الثاني في حماة الخيل فقصد المرقال وارتجز عمرو فقال (٧٠/٨):

لا عيش أن لم القَ يوماً هاشما　　　ذاك الذي جشمني المجاشما
ذاك الذي أقام لي المآتما　　　ذاك الذي يشتم عرضي ظالما
ذاك الذي أن ينج مني سالما　　　يكن شجي حتى الممات لازما

فطعن في أعرض الخيل مزبداً، وحمل المرقال عليه وارتجز فقال (٧٠/٨):

لا عيش أن لم القَ يوماً عمروا　　　ذاك الذي أحدث فينا الغدرا
او يبدل الله بأمر أمرا　　　لا تجزعي يا نفس صبراً صبرا
ضرباً هذا ذيك وطعناً شزرا　　　يا ليت ما تجني يكون القبرا!

وفي اليوم الثالث برز بسر بن إرطأة فلقي قيس بن سعد بن عبادة فاشتدت الحرب بينهما، وأرتجز قيس وقال (٧١/٨):

أنا ابن سعد زانه عباده　　　والخزرجيون كماة سادة
ليس فراري في الوغى بعادة　　　أن الفرار للفتى قلادة

يـــا رب أنـــت لقـــني الشـــهادة　　　فالقتـــل خـــير مـــن عنـــاق غـــادة

حتـــى متـــى تـــثني لـــي الوســـادة

وطاعن خيل بُسر، ويرز بُسر فارتجز وقال (٧١/٨):

أنـــا ابـــن إرطـــأة العظـــيم القـــدر　　　مُـــــرَدَّدٌ في غالـــــبٍ وفهـــــر

لـــيس الفـــرار مـــن طبـــاع بُســـر　　　أن أرجـــع اليـــوم بغـــير وتـــر

وقـــد قضـــيت في العـــدو نـــذري　　　يـــا ليـــت شـــعري كـــم بقـــي مـــن عمـــري

ورجع القوم جميعاً، ولقيس الفضل، وتقدم عبيد الله بن عمر الخطاب في اليوم الرابع؛ لم يترك فارساً إلا جمعه؛ وأستكثر ما أستطاع، فلقيه الأشتر أمام الخيل مزبداً، وهو يقول (٧١/٨):

يـــا رب قـــيض لـــي ســـيوف الكفـــرة　　　واجعـــل وفـــاتي بـــأكف الفجـــرة

فالقتـــل خـــير مـــن ثيـــاب الجبَـــرة　　　لاتعـــدل الـــدنيا جميعـــاً وبـــرة

ولا بعوضـــــاً في ثـــــواب الـــــبررة

وشد على الخيل، خيل الشام فردها: فاستحيا عبيد الله وبرز أمام الخيل وقال (٧٢/٨):

أنعـــى ابـــن عفـــان وأرجـــو ربـــي　　　ذاك الـــذي يخـــرجني مـــن ذنـــبي

ذاك الـــذي يكشـــف عـــني كربـــي　　　إن ابـــن عفـــان عظـــيم الخطـــب

يـــأبى لـــه حـــبي بكـــل قلـــبي　　　إلا طعـــاني دونـــه وضـــربي

حســـبي الـــذي أنويـــه حســـبي حســـبي

فحمل عليه الأشتر، وطعنه واشتد الأمر، وانصرف القوم، وللأشتر الفضل، فغم ذلك معاوية، وغدا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد في اليوم الخامس وكان رجاء معاوية أن ينال حاجته، فقواه بالخيل والسلاح، وكان معاوية يُعدُّه ولدا، فلقيه عدي بن حاتم في مذحج، وقضاعة، فبرز عبد الرحمن إمام الخيل وقال (٧٢/٨):

قل لعديٍ ذهب الوعيد — أنا ابن سيف الله لا مزيد
وخالد يزيده الوليد — ذاك الذي قيل له الوحيد

ثم حمل فطعن الناس، فقصده عدي بن حاتم، وسدد إليه الرمح وقال (٧٢/٨):

أرجو إلهي وأخاف ذنبي — ولست أرجو غير عفو ربي
يا ابن الوليد بغضكم في قلبي — كالهضب بل فوق قنان الهضب

ولما كاد أن يخالطه بالرمح، توارى عبد الرحمن في العجاج، واستتر بأسنة أصحابه، ورجع عبد الرحمن مقهوراً، وانكسر معاوية، وبلغ أيمن ابن خزيم ما لقي معاوية واصحابه، فشمت بهم، وكان ناسكاً من أنسك أهل الشام، وكان معتزلاً الحرب في ناحية عنها فقال (٧٣/٨):

معاوي إن الأمر لله وحده — وإنك لا تستطيع ضراً ولا نفعا
عبأت رجالاً من قريش لعصبةٍ — يمانية لا تستطيع لها دفعا
فكيف رأيت الأمر إذ جدَّ جدَّه — لقد زادك المر الذي جئته جدعا
تعبيَّ لقيس أو عدي بن حاتم — والأشتر يا للناس أغمارك الجدعا

وتجعـــل للمرقـــال عمـــرو وأنـــه ... لليـــث لقـــي مـــن دون غايتـــه ضـــبعا
وأن ســـعيداً إذ بـــرزت لرمحـــه ... لفـارس همـدان الـذي يشـعب الصـدعا
علـــي بضـــرب الـــدارعين بســـيفه ... إذا الخيـل أبـدت مـن سـنابكه نقعـا
رجعـــت فلـــم تظفـــر بشـــيء تريـــده ... ســوى فَــرَثٍ أعيــت وآبــت بهــا طلعــا
فـــدعهم فـــلا والله لا تستصـــيعهم ... مجـــاهرة، فاعمـــل لقهـــرهم خـــدعا

وأن معاوية أظهر لعمرو شماتة، وجعل يقرعه، ويوبخه، وقال:

لقد أنصفتكم؛ أن لقيت سعيد بن قيس في همدان، وفررتم، وأنك لجبان يا عمرو.

فغضب عمرو، وقال:

فهل برزت إلى علي! إذ دعاك أن كنت شجاعاً كما تزعم!

وقال (٨/٧٣):

تســـير الى ابـــن ذي يـــزدٍ ســـعيدٍ ... وتـــترك في العجاجـــة مـــن دعاكـــا
فهـــل لـــك في أبـــي حســـن علـــيٍ ... لعـــل الله يمكـــن مـــن قفاكـــا
دعـــاك الى الـــبراز فلـــم تجبـــه ... ولـــو نازلتـــه شـــربت يـــداكا
وكنـــت أصـــم - أذنـــاواك-عنهـــا ... وكـــان ســـكوته عنهـــا مناكـــا
فـــآب الكـــبش قـــد طحنـــت رحـــاه ... بنجدتـــه ومـــا طحنـــت رحاكـــا
فمـــا أنصـــفت صـــحبك يـــاابن هنـــدٍ ... أتَفَرَّقُـــه وتغضـــب مـــن كفاكـــا
فـــلا والله مـــا أضـــمرت خـــيراً ... ولا أظهـــرت لـــي إلا هواكـــا

وخاطب معاوية فرسانه، الذين انقطعوا عنه بعد تلك المعركة، فقال (٨/٧٤):

لعمري لقد أنصفت والنصف عادتي ... وعاين طعناً في العجاج المعاين
ولولا رجائي أن تؤوبوا بنهزةٍ ... وان تغسلوا عاراً وعته الكنائن
لناديت للهيجا رجالاً سواكمُ ... ولكنها تحمي الملوك البطائن
أتدرون من لاقيتمُ فُلَّ جيشكم ... لقيتم ليوثاً أصحرتها العرائن
لقيتم صناديد العراق ومن بهم ... إذا جاشت الهيجاء تحمى الضعائن
وما كان منكم فارس دون فارسٍ ... ولكنه ما قدّر الله كائن

ولما سمع القوم ما قاله معاوية، أتوه فاعتذروا إليه، واستقاموا إليه على ما يجب.

وتقابل جيش عك من معاوية، وجيش همدان من الإمام علي عليه السلام، فشدت همدان على عكٍ رجّالة فأخذت السيوف أرجل عك، فنادى ابن مسروق (٨/٧٥):

يا لعكٍّ بَرْكاً كبرك الكَمَلْ

فبركوا تحت الجحف، فشجرتهم همدان بالرماح، وتقدم شيخ من همدان وهو يقول (٨/٧٥):

يا لبكيل لحمها وحاشد ... نفسي فداكم طاعنوا وجالدوا
حتى تخرَّ منكم القماصد ... وأرجل يتبعها سواعد
بذاك أوصى جدكم والوالد

وقام رجل من عك فارتجز، فقال (٨/٧٥):

تـــدعون همـــدان ونـــدعو عكـــا　　　بكـــوّ الرجـــال يـــا لعـــك بكّـــا
أن خـــدّم القـــوم فبركـــاً بركـــا　　　لا تـــدخلوا اليـــوم علـــيكم شـــكا
قـــد محـــك القـــوم فزيـــدوا محكـــا

والتقى القوم جميعاً بالرماح، وصاروا الى السيوف، وتجالدوا حتى أدركهم الليل، فأنصرف كل إلى ناحيته، وقال عمرو في ذلك (٨/٧٦):

إن عكـــا وحاشـــداً وبكـــيلا　　　كأســـود الضـــرا ولاقـــت أســـودا
وجثـــا القـــوم بالقنـــا وتســـاقوا　　　بضـــباة الســـيوف موتـــاً عتيـــدا
ازورار المناكـــب الغلـــب بالشـــم　　　وضـــرب المســـومين الخـــدودا
لـــيس يـــدرون مـــا الفـــرار ولوكـــا　　　ن فـــرار لكـــان ذاك ســـديدا
يعلـــم الله مـــا رأيـــت مـــن القـــوم　　　ازوراراً ولا رأيـــت صـــدودا
غـير ضـرب فـوق الطلـى وعلـى الهـام　　　وقـــرع الحديـــد يعلـــو الحديـــدا
ولقـــد قـــال قائـــل خـــدّموا الســـو　　　ق فخـــرّت هنـــاك عـــكٌّ قعـــودا
كـــبروك الجمـــال اثقلـــها الحمـــل　　　فمـــا مشـــتغل إلا وئيـــدا

ولما اشترطت عك والشعريون على معاوية ما اشترطوا من الفريضة والعطاء فأعطاهم. لم يبق من أهل العراق أحد في قلبه مرض إلا طمع في معاوية، وشخص ببصره اليه، حتى فشا ذلك في الناس، فبلغ علياً عليه السلام فساءه، وجاءه عدي بن حاتم يلتمس علياً عليه السلام أن يعود الى القتال، فأخبره الإمام

عليه السلام أن عامة من معه اليوم يعصيه، وان معاوية فيمن يطيعه ولا يعصيه، وجاء المنذر بن أبي حميصة الوداعي:

وكان شاعر همدان وفارسها – وطلب منه العودة الى الحرب قائلاً:

والله لآخرتنا خير من دنياهم، ولعراقنا خير من شامهم، ولإمامنا أهدى من إمامهم وأنشده: –

إن عكا سالوا الفرائض والاشـ	ـعر سالوا جوائزاً بثنية
تركوا الدين العطاء وللفر	ض فكانوا بذاك شر البرية
وسألنا حسن الثواب من الله	وصبراً على الجهاد ونيّة
فلكل ما ساله ونواه	كلنا يحسب الخلاف خطية
ولأهل العراق أحسن في الحرب	إذا تدانت السمهرية
ولأهل العراق أحمل للثقل	إذا عمت البلاد بليّة
ليس منا من لم يكن في الله	ولياً يا ذا الولا والوصية

فأثنى عليه علي عليه السلام، وانتهى شعره إلى معاوية، فقال: –

والله لأستميلن بالدنيا ثقاة علي، ولأعيش من فيهم الأموال حتى تغلب دنياي آخرته.

وطلب من فرسان عك بث العيون في معسكر علي عليه السلام، وعبأ منهم جيشاً لمقاتلة العراق، وهنا نادى علي عليه السلام: يا لهمدان.

فأجابه سعيد بن قيس، فقال له عليه السلام: احمل

فحمل حتى خالط بالخيل، واشتد القتال، وحطمتهم همدان وألحقتهم بمعاوية، فجزع جزعاً شديداً، فأثنى الإمام علي عليه السلام على همدان، وفي هذا اليوم قال عليه السلام (٨/٧٨):

ولو كنت بواباً على باب جنةٍ لقلت لهمدان ادخلي بسلام

ثم طلب عليه السلام من صاحب لواء همدان أن يكفيه أهل حمص فشدوا عليهم حتى ألجؤوهم قبة معاوية، فقال رجل من همدان عدادة في ارحب مرتجزاً (٨/٧٨):

قد قتل الله رجال حمص غُرّوا بقول كذب وخرص

حرصاً على المال وأي حرص قد نكص القوم وأي نكص

عن طاعة الله وفحوى النص

ولما ردت خيول معاوية أسف وجرد سيفه وحمل في كماة أصحابه فحملت عليه فوارس همدان ففاز منها ركضاً، وانكسرت كماته ورجعت همدان إلى مراكزها، فقال حجر بن قحطان الهمداني، يخاطب سعيد بن قيس (٨/٧٩):

ألا يا ابن قيس قرت العين إذ رأت فوارس همدان بن زيد بن مالك

على عارفات للقاء عوابسٍ طوال الهوادي مشرفات الحوارك

معودة للطعن في ثغراتها يجلن فيحطمن الحصى بالسنابك

عباها علي لأبن هند وخيله فلو لم يفتها كان أول هالك

وكانت له في يومه عند ظنه وفي كل يوم كاسف الشمس حالك

وكانــــت بحمــــد الله في كـــل كربـــةٍ　　حصـــوناً وعـــزاً للرجـــال الصـــعالك
فقـــل لأمـــير المـــؤمنين أن أدعنـــا　　متـــى شـــئت إنّـــا عرضـــة للمهالـــك
ونحـن حطمنـا السـمر في حـي حمـيرٍ　　وكنـــدة والحـــي الخفـــاف السكاســـك
وعـــك ولخـــم شـــائلين ســـياطهم　　حـــذار العـــوالي كالأمـــاء العـــوارك

وتقدم الأصبغ بن نباته الى الإمام علي عليه السلام واستأذنه أن يقدم فأذن له فتقدم وأخذ الراية ومضى بها وهو يقول (٨٢/٨):

إن الرجـــــاء بـــــالقنوط يُـــــدمغ　　حتـــى متـــى يرجـــو البقـــاء الأصـــبغ
أمـــا تـــرى أحـــداث دهـــر تنبـــغ　　فـــادبغ هـــواك، والأديـــم يـــدبغ
والرفـــق فيمـــا قـــد تريـــد أبلـــغ　　اليـــوم شـــغل وغـــداً لا تفـــرغ

نادى الأشتر يوماً أصحابه، فقال:

أما من رجل يشري نفسه لله؟

فخرج أثال بن حجل بن عامر المذهجي فنادى بين العسكرين:

هل من مبارز؟

فدعا معاوية – وهو لايعرفه – أباه حجل بن عامر المذهجي، فقال:

دونك الرجل.

فبرز كل واحد منهما إلى صاحبه، فبدره بطعنة، وطعنه الغلام، وانتسبا فإذا هو ابنه، فنزلا فاعتنق كل واحد منهما صاحبه، وبكيا، فقال له الأب:

يا بني: هلم الى الدنيا.

فقال له الغلام:

يا أبي هلم إلى الآخرة.

ثم قال:

يا أبتِ والله لو كان من رأيي الانصراف إلى أهل الشام لوجب عليك ان يكون من رأيك أن تنهاني، واسوأتاه!فماذا أقول لعلي عليه السلام وللمؤمنين الصالحين؟ كن على ما أنت عليه، وأنا على ما أنا عليه فانصرف كل منهما إلى معسكره، وقال في ذلك حجل (٨/٨٣):

إن حجل بن عامر وأثالا أصبحا يضربان في الأمثال
أقبل الفارس المدجج في النقع أثال يدعو يريد نزالي
دون أهل العراق يخطر كالفحل على ظهر هيكل ذيّال
فدعاني له ابن هند ومازا ل قليلاً في صحبه أمثالي
فتناولته ببادرة الرمح وأهوى بأسمرٍ عسّال
فأطعنا وذاك من حدث الدهر عظيم، فتى يشيخ بحال
شاجراً بالقناة صدر أبيه وعزيز علي طعن أثال
لاأبالي حين أعترضت أثالاً وأثال كذاك ليس يبال
فافترقنا على السلام والنفس يقيها مؤخر الآجال
لايراني على الهدى وأراه من هداي على سبيل ضلال

فلما انتهى شعره إلى أهل العراق، قال أثال ابنه مجيباً إيَّاه (٨/٨٣-٨٤):

إن طعـــني وســـط العجاجــة حجـــلا ... لم يكـــن في الـــذي نويـــت عقوقـــا
كنـــت أرجـــو بـــه الثـــواب مـــن الله ... وكـــوني مـــع الـــنبي رفيقـــا
لم ازل أنصـــر العـــراق علـــى الشـــام ... أرانـــــي بفعـــــل ذاك حقيقـــا
قـــال أهـــل العـــراق إذ عظـــم الخطـــب ... ونـــــق المبـــــارزون نقيقـــا
مـــن فتـــى يســـلك الطريـــق الى الله ... فكنـــت الـــذي ســـلكت الطريقـــا
حاســـر الـــرأس لا أريـــد ســـوى المـــو ... ت أرى الأعظـــم الجليـــل دقيقـــا
فـــإذا فـــارس تقحّـــم في الـــروع ... خِـــدِباً مثـــل الســـحوق عقيقـــا
فبـــادرني حجـــل ببـــادرة الطعـــن ... ومـــا كنـــت قبلـــها مســـبوقا
فتلقيتـــه بعاليـــة الـــرمح ... كلانـــا يطـــال القيّوقـــا
أحمـــد الله ذا الجلالـــة والقـــد ... رة حمـــداً يزيـــدني توفيقـــا
إذ كففـــت الســـنان عنـــه ولم أد ... ن قتـــيلاً منـــه ولا تفروقـــا
قلـــت للشـــيخ لســـت أكفـــر نعمـــاك ... لطيـــف الغـــذاء والتفنيقـــا
فبرانـــي أخـــاف أن تـــدخل النـــار ... فـــلا تعصـــني وكـــن لـــي رفيقـــا
وكـــذا قـــال لـــي فغـــرَّب تغريبـــاً ... وشـــرقت راجعـــاً تشـــريقا

دعا معاوية، النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري ومسلمة بن مخلد الأنصاري، ولم يكن معه من الأنصار غيرهما، وشكا لهما موقف الأنصار الذين مع علي عليه السلام منه في الحرب وأخذ يغمز الأنصار، فغضب الرجلان وردّا كلامه وغمزه، ولما وصل كلام معاوية والرجلين إلى أنصار علي عليه السلام جمع

قيس بن سعد الأنصار وخطب فيهم وحثهم على تشديد الحرب على معاوية، ثم قال في ذلك (٨٦/٨):

يـا ابـن هنـد دع التوثـب في الحـر ... ب إذا نحـن بالجيـاد سـرينا
نحـن مـن قـد علمـت فـادنُ إذا شئـ ... ـت بمـن شـئت في العجـاج إلينـا
إن برزنـا في الجمـع نلقـك في الخـز ... رج نـدعو في حربنـا أبوينـا
إن تشـأ منـك فـارس منـا ... وان شـئت بـاللفيف التقينـا
أيَّ هـذين مـا أردت فخـذه ... لـيس منـا ولـيس منـك الهوينـا
ثـم لانسـلخ العجاجـة حتـى ... تنجلـي حربنـا لنـا أو علينـا
ليـت مـا تطلـب الغـداة أتانـا ... أنعـم الله بالشـهادة عينـا

وتحركت خيل معاوية غدوة، فظن قيس بن سعيد أن فيها معاوية، فحمل على رجل يشبهه، فضربه بالسيف فإذا هو ليس به، ثم حمل على آخر يشبهه فقنعه بالسيف ثم أنصرف وهو يقول (٨٧/٨):

قولـوا لهـذا الشـاتمي معاويـة ... أن كلمـا أو عـدت ريـح هاويـة
خوفتنـا أكلـب قـوم عاويـة ... الـي يـا ابـن الخـاطئين الماضـية
ترفـل أرفـال العجـوز الجاريـة ... في أثـر السـاري ليـالي الشـاتية

فبعث معاوية النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري إلى قيس ليعاتبه ويسأله السلم فخرج النعمان فوقف بين الصفين وصار يخاطب قيساً فرد عليه قيس بما يفحمه ثم قال (٨٨/٨):

والراقصات بكل أشعث أغبر ... خوض العيون تحثها الركبان
ما ابن المخلد ناسياً أسيافنا ... فيمن نحاربه ولا النعمان
تركا البيان وفي العيان كفاية ... لو كان ينفع صاحبيه عيان

خرج عوف بن مجزأة المرادي/فارس الشام/فالتقى العكبر بن جرير الأسدي فارس أهل العراق، وقال (٨/٨٩):

بالشام أمن ليس فيه خوف ... بالشام عدل ليس فيه حيف
بالشام جود ليس فيه سوف ... أنا ابن مجزأة وأسمي عوف
هل من عراقي عصاهُ سيف ... يبرز لي وكيف لي وكيف

فقال له العكبر (٨/٨٩ـ٩٠):

الشام محل والعراق ممطر ... بها أمام طاهر مطهّر
والشام فيها أعور ومعور ... أنا العراقي وأسمي عكبر
ابن جرير وأبوه المنذر ... أدنُ، فأني في البراز قسور

فتطاعنا فقُتل عوف ثم تقدم عكبر يريد معاوية فحال أصحابه بينه وبين الوصول إليه ورجع إلى صف العراق، ولم يُكَلَّم. فقال له علي عليه السلام:

ما دعاك الى ما صنعت؟ لا تلق نفسك الى التهلكة.

قال: يا أمير المؤمنين أردت غرة ابن هند فحيل بيني وبينه، وكان العكبر شاعراً فقال (٨/٩٠ـ٩١):

قتلت المراديَ الذي كان باغياً ... ينادي وقد ثار العجاج: نزال

يقول أنا عوف بن مجزاة والمنى ... لقاء ابن مجزاة بيوم قتال
فقلت له لما علا القوم صوته! ... منيت بمشبوح اليدين طوال
فأوجرته في ملتقى الحرب صعرة ... ملأت بها رعباً صدور رجال
فغادرته يكبو صريعاً لوجهه ... ينوء مراراً في مكرِّ رجال
وقدَّمت مهري راكضاً نحو صفهم ... أصرِّفه في جريه بسمالي
أريد به التل الذي فوق رأسه ... معاوية الجاني لكل خبال
يقول - ومهري يعرف الجري جامحاً ... بفارسه - قد بان كل ضلال
فلما رأوني أصدق الطعن فيهمُ ... جلى عنهم رحم العيوب فعالي
فقام رجال دونهم بسيوفهم ... وقام رجال دونه بعوالي
فلو نلته نلت الذي ليس بعدها ... وفزت بفكر صالح وفعال
ولو مت في نيل المنى ألف موتةٍ ... لقلت إذا ما مت: - لست مبال

فأبكر أهل الشام لقتل عوف المرادي، وهدر معاوية دم العكبر فقال العكبر:

- يد الله فوق يده.

وقال الحضرمي يرثي ذا الكلاع وجوشعاً (٩٢/٨):

معاوي قد نلنا ونيلت سراتنا ... وجُدِّع احياء الكلاع ويَعصُب
فذو كلع لا يبعد الله داره ... وكل أيمان قد أصيب بحوشب
هما ما هما كانا معاوي عصمة ... متى قلت كانا عصمة لا أكذب
ولو قُبلتُ في هالك بذل فدية ... فديتهما بالنفس والأم والأب

طلب معاوية من بسر بن أرطأة مبارزة علي عليه السلام وكان عنده ابن عم له جاء من الحجاز يخطب ابنته، فأبى بسر، فقال له:

إني سمعت أنك وعدت من نفسك أن تبارز علياً، فما يدعوك الى ما أرى؟

قال:

الحياء، خرج مني كلام فأنا أستحي أن أرجع عنه،

فضحك الغلام وقال (٩٥/٨):

تنازلـــه يـــا بســـر إن كنـــت مثلـــه	وإلا فـــإن الليـــث للشـــاء آكـــل
كأنــك يــا بســر ابــن أرطــأة جاهــل	بآثـــاره في الحـــرب أو متجاهـــل
معاويـــة الـــوالي وصـــنواه بعـــده	ولـــيس ســـواء مســـتعار وثاكـــل
أولئــك هــم أولى بــه منــك أنــه	علـــي فـــلا تقربـــه أمـــك هابـــل
متــى تلقــه فــالموت في رأســه رمحــه	وفي ســيفه شــغل لنفســك شــاغل
ومــا بعــده في آخــر الخيــل عــاطف	ولا قبلـــه في أول الخيـــل حامـــل

فقال بسر:

هل هو إلا الموت؟ لابد من لقاء الله.

فغدا علي عليه السلام منقطعاً عن خيله ويده في يد الأشتر وهما يتسايران رويداً. يطلبان التل ليقفا عليه، إذ برز له بسر مقنعاً بالحديد، لا يعرف، فناداه أبرز ألي أبا حسن.

فانحدر إليه على تؤدة غير مكترث به حتى إذا قاربه طعنه وهو دارع فألقاه إلى

الأرض، ومنع الدرع السنان أن يصل إليه، فاتقاه بسر بعورته، وقصد أن يكشفها، يستدفع بأسه، انصرف عنه عليه السلام مستدبراً فعرفه الأشتر حين سقط. فقال:

ـ يا أمير المؤمنين هذا بسر بن أرطأة، هذا عدو الله وعدوك.

فقال:

ـ دعه عليه لعنة الله. أبعد أن فعلها.

فحمل ابن عم بسر من أهل الشام على علي عليه السلام، قال (٩٦/٨):

أرديت بسراً والغلام ثائره   أرديتَ شيخاً غاب عنه ناصره

وكلنا حام لبسر واتره

فلم يلتفت إليه علي عليه السلام وتلقاه الأشتر فقال له (٩٦/٨):

في كل يومٍ رجلُ شيخ شاغره   وعورة وسط العجاج ظاهره

تبرزها طعنة كف واتره   عمروٌ وبسر منيا بالفاقره

فطعنه الأشتر فكسر صلبه وقام بسر من طعنة علي عليه السلام مولياً، وفرت خيله، وناداه علي عليه السلام:

يا بسر، معاوية كان أحق بها منك.

فرجع بسر الى معاوية، فقال له معاوية:

ارفع طرفك، فقد أدال الله عمراً منك.

قال الشاعر في ذلك (٩٦/٨ـ٩٧):

أفي كل يوم فارسٌ تندبونه — له عورة تحت العجاجة بادية
يكف بها عنه علي سنانه — ويضحك منها في الخلاء معاوية
بدت أمس من عمرو فقنع رأسه — وعورة بسر مثلها حذو حانية
فقولا لعمر وابن أرطأة أبصرا — سبيلكما لا تلقيا الليث ثانية
ولا تحمدا إلا الحيا وخصاكما — هما كانتا للنفس - والله - واقية
فلولاهما لم تنجوا من سنانه — وتلك بما فيها عن العود ناهية
وكونا بعيداً حيث لا يبلغ القنا — ونار الوغى، إن التجارب كافية
وإن كان منه بعد للنفس حاجة — فعود إلى ما شئتما هي هاهي

بعد ملاومة وخصام ومعاتبة في مجلس معاوية بين رهطه وقريش خرج عتبة بن أبي سفيان فنادى على مبعدة من فرسان علي عليه السلام وحاول استرضاءه ومفاوضته إلا ان جعدة رده بحزمٍ، فغضب عتبة وفحش على جعدة فلم يجبه وأعرض عنه، وجمع كل عسكره وباشر جعدة يوم ذاك القتال بنفسه، وجزع عتبة فأسلم خيله وأسرع هارباً إلى معاوية فقال له:

فضحك جعدة، هَزْمَتُك لا تغسل رأسك منها أبداً.

وحظي جعدة بعدها عند علي عليه السلام.

وقال النجاشي، فيما كان من فحش عتبة على جعدة (٨/٩٩-١٠٠):

إن شتم الكريم يا عتب خطب — فاعلمنه من الخطوب عظيم
أمه أم هانئٍ وأبوه — من معدٍّ ومن لؤي حميم

ذاك منهـــا هــــبير بـــن أبــــي وهـــ ـــــب أقـــرت بفضـــــله مخـــــزوم
كـــــان في حربـــــهُ يُعــــدَّ بــــألفٍ حيـــث يلقـــى بهـــا القـــروم القـــروم
وابنـــه الجعـــدة الخليفـــة منـــه هكـــــذا تنبـــــت الفـــــروع الأروم
كـــل شـــيء تريـــده فهـــو فيـــه حســـــبه ثاقــــب وديـــــن قـــــويم
وخطيـــب إذا تمعَّـــرت الأوجــــه يخشـــــى بــــه الألـــــد الخصـــــيم
وحلـــيم إذا الحُبـــى حلّـــه الجهـــ ـــل، وخفـــت مـــن الرجـــال الحلـــوم
وشـــكيم الحـــروب قـــد علـــم النـــا س إذا دحـــل في الحـــروب الشـــكيم
وصـــحيح الأديـــم نَفَـــل العيـــب إذا كــــــان لا يصـــــح الأديــــــم
حامـــل للعظـــيم في طلـــب الحمـــد إذا عظـــــم الصـــــغير اللئـــــيم
مـــا عســـى أن تقـــول للـــذهب الأحمـــر عيبـــــاً هيهـــــات منـــــك النجـــــوم
كـــل هـــذا بحمـــد ربـــك فيـــه وســـــوى ذاك كـــــان وهـــــو نظـــــيم

وقال الأعور الشني في ذلك يخاطب عتبة بن أبي سفيان (٨/١٠٠):

مـــا زلـــت تظهـــر في عطفيـــك أبهـــةً لا يرفـــع الطـــرف منـــك النيـــة الصـــلف
لا تحســـب القـــوم إلا فقـــع قرقـــرةٍ او شـــحمةٍ بزّهـــا شـــاوٍ لهـــا نطـــف
حتـــى لقيـــت ابـــن مخـــزوم وأيّ فتـــىً أحيـــا مـــآثر أبـــاء لـــه ســـلفوا
إن كـــان رهـــط أبـــي وهـــب جحاجحـــةً في الأولـــين فهـــذا مـــنهم خلـــف
أشـــجاك جعـــدة إذ نـــادى فوارســـه حـــاموا علـــى الـــدين والـــدنيا فمـــا وقفـــوا
هـــلا عطفـــت علـــى قـــومٍ بمصـــرعةٍ فيهـــا الســـكون وفيهـــا الأزد والصـــدف

قد كنت في منظر من ذا ومستمعٍ — يا عُتب لولا سفاه الرأي والصَّلفُ
فاليوم يقرع منك السن من ندمٍ — ما للمبارز إلا العجز والنصفُ

كان رجل من أهل الشام يقال له الأصبغ بن ضرار الأزدي، من مسالح معاوية وطلائعه، فندب له علي عليه السلام الأشتر، فأخذه الأشتر أسيراً من غير قتال، فجاء به ليلاً فشده وثاقاً، وألقاه عند أصحابه ينتظر به الصباح، وكان الأصبغ شاعراً مفوها، فأيقن بالقتل، ونام أصحابه، فرفع صوته فأسمع الأشتر، وقال (٨/١٠١):

ألا ليت هذا الليل أصبح سرمداً — على الناس لا يأتيهمُ بنهار
يكون كذا حتى القيامة أنني — أحاذر في الإصباح يوم بواري
فيا ليل أطبق، أن في الليل راحةً — وفي الصبح قتلي أو فكاك أساري
ولو كنت تحت الأرض ستين وادياً — لما روعتني ما أخاف حذاري
فيا نفس مهلاً إنما الموت غاية — فصبراً على ما ناب يا ابن ضرار
أأخشى ولي في القوم رحم قريبة — أبى الله أن أخشى وما لك جاري
ولو انه كان الأسير ببلدةٍ — أُطاعُ بها، شمرت ذيل إزاري
ولو كنت جار الأشعث الخير فكّنى — وقلَّ من الأمر المخوف فراري
وجار سعيد أو عدي بن حاتم — وجار شريح الخير قرَّ قراري
ولو أنني كنت الأسير لبعضهم — دعوت فتى منهم لفك أساري
أولئك قومي لا عدمت حياتهم — وعفوهمُ عني وستر عواري

فغدا به الأشتر إلى علي عليه السلام، فقال:

يا أمير المؤمنين، أن هذا الرجل من مسالح معاوية، أصبته أمس وبات عندنا الليل، فحركنا بشعره، وله رحم، فإن كان فيه القتل فاقتله؛ وان ساغ لك العفو عنه فهبه لنا؛ فقال:

هو لك يا مالك وإذا أصبت منهم أسيراً فلا تقتله، فإن أسير أهل القبلة لا يقتل، فرجع به الأشتر إلى منزله وخلى سبيله.

بعد ليلة الهرير خطب الأشعث أصحابه من كندة، فذكرهم بهذا اليوم العصيب وإنه لم ير مثله من قبل، ومما قال:

- إنا نحن إن تواقفنا غداً، إنه لفناء العرب وضيعة الحرمات... أخاف على النساء والذراري غداً إذا فنينا.

فاستغل معاوية خطبة الأشعث فقال:

- أصاب ورب الكعبة.

ثم قال لأصحابه:

- اربطوا المصاحف على أطراف القنا، وأصبحوا وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح، وقد قلدوها الخيل، والناس على الرايات قد اشتهوا ما دُعوا إليه، مصحف دمشق الأعظم يحمله عشرة رجال على رؤوس الرماح وهم ينادون:

- كتاب الله بيننا وبينكم.

فقام إلى الإمام علي عليه السلام كل من أبي الأعور السلمي وعدي بن

حاتم الطائي والأشتر وعمرو بن الحمق، والأشعث بن قيس وطلبوا منه الموادعة.

فقال عليه السلام:

- هذا أمر ينظر فيه.

وبعد خطبة له عليه السلام بيّن فيها أن معاوية وأصحابه ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وإنه يعرفهم مذ كانوا صغاراً فكانوا شر صغار وشر رجال، وإن رفع المصاحف كلمة حق يراد بها باطل، وإنها الخديعة والوهن والمكيدة.

فجاءه من أصحابه زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد شاكي السلاح سيوفهم على عواتقهم، وقد اسودت جباههم من السجود، يتقدمهم مسعر بن فذكي وزيد بن حصين وعصابة من القراء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين:

- يا علي أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إذا لم تجبهم.

وعبثاً حاول إخبارهم وإقناعهم بأنه هو أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجاب إليه، وإنه إنما قاتلهم ليدينوا بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه، وأنهم ليس العمل بالقرآن يريدون.

قالوا:

فابعث إلى الأشتر ليأتينك.

وقد كان الأشتر صبيحة ليلة الهرير أشرف على عسكر معاوية ليدخله،

فأرسل إليه يزيد بن هانيء، ولكن الأشتر رفض قائلاً ليزيد:

- إئته فقل له: ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني عن موقفي؛ إني قد رجوت الفتح فلا تعجلني.

فرجع يزيد إلى علي عليه السلام فأخبره، وفي هذه الأثناء ارتفع الرهج، وعلت الأصوات من قبل الأشتر، وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق، ودلائل الخذلان والإدبار على أهل الشام فقال القوم لعلي عليه السلام:

- والله ما نراك أمرته إلا بالقتال.

فبعث يزيد ثانية إلى الأشتر ولما عاد الأشتر صار يخاطب أهل العراق ويزيدهم تقريعاً، فسبوه وسبهم، وضربوا بسياطهم وجه دابته وضرب بسوط وجوه دوابهم، وصاح بهم علي عليه السلام فكفوا، فقام الإمام علي عليه السلام فخطب فيهم ومما قال:

إني كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت منهياً، وقد أجبتكم البقاء، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون ثم قعد.

ثم إن أهل الشام لما أبطأ عنهم علم حال أهل العراق، هل أجابوا إلى الموادعة أم لا؟ جزعوا وطلبوا من معاوية أن يكررها عليهم فأرسل إليهم عبد الله بن عمرو بن العاص، فأجابه سعد بن قيس الهمداني، فقام الناس إلى علي عليه السلام فقالوا له:

- أجب القوم إلى المحاكمة، ونادى إنسان من أهل الشام في جوف الليل

بشعر سمعه الناس وهو (٢/٢١٤-٢٢٢):

رؤوس العــراق أجيبــوا الــدعاء فقـــد بلغـــت غايـــة الشـــدة
وقـــد أودت الحـــرب بالعـــالمين وأهـــل الحفـــائظ والنجـــدة
فلســـنا ولســـتم مـــن المشـــركين ولا المجمعـــين علـــى الـــردة
ولكـــن انـــاس لقـــوا مثلـــهم لنـــا عـــدّة ولكـــم عـــدّة
فقاتـــل كـــل علـــى وجهـــه يقحمـــه الجـــد والحـــدّة
فـــان تقبلوهـــا ففيهـــا البقـــاء وامـــن الفـــريقين والبلـــدة
وان تـــدفعوها ففيهـــا الفنـــاء وكـــل بـــلاءٍ الى مـــدّة
فحتـــى متـــى مخـــض هـــذا الســـقاء ولابـــد أن تخـــرج الزبـــدة
ثلاثـــة رهـــطٍ هـــمُ أهلـــها وان يســـكتوا تخمـــد الوقـــدة
ســـعيد بـــن قـــيس وكـــبش العـــراق وذاك المســـوّد مـــن كنـــدة

وكتب معاوية كتاباً الى الامام علي عليه السلام. ومما قاله: أن نحكم بيني وبينكم حكمين مرضيين، أحدهما من أصحابي والاخر من أصحابك، فيحكمان بيننا بما أنزل الله، فهو خيرٌلي ولك)).

فكتب اليه الامام علي عليه السلام، ومما قاله عليه السلام:

((ثم إنك قد دعوتني الى حكم القرآن وقد علمت أنك لستَ من أهل القرآن ولاحكمه تريد، والله المستعان، فقد اجبنا القرآن الى حكمه ولسنا اياك أجبنا، ومن لم يرض بحكم القرآن فقد ضل ضلالاً بعيداً)).

وتكاتب الامام علي مع عمروبن العاص عدة كتب وعضه فيها ودعاه الى دين الحق وقال له:

((فان الذي اعجبك من الدنيا مما نازعتك اليه نفسك، ووثقت به منها لمقلب عنك، ومفارق لك فلاتطمئن الى الدينا فانها غرارة، ولوا عتبرت بما مضى لحفظت مابقي، وانتقصت منها بماوعظت به)).

وجاء الاشعث الى علي عليه السلام واخبره برضى الناس وسرورهم الى مادعوا إلية من حكم القرآن، وقال:

-فإن شئت أتيت معاوية فسألته مايريد.

فأمره الإمام عليه السلام فذهب الى معاوية وسأله:

- لأي شيء رفعتم هذه المصاحف؟

قال:

- لنرجع، نحن وانتم إلى ما أمر الله به فيها، فابعثوا رجلاً منكم ترضون به، ونبعث منا رجلاً، ونأخذ عليهما ان يعملا بما في كتاب الله ولا يعدوانه، ثم نتبع ما اتفقا عليه.

فقال الأشعث: هذا هوالحق.

ولما عاد الى الإمام فأخبره فبعث عليه السلام قراء من أهل العراق وبعث معاوية قراء من أهل الشام. فاجتمعوا بين الصفين ومعهم المصحف، فنظروا فيه وتدارسوا. . فرضي قراء الشام بعمرو بن العاص ورضي قراء العراق بأبي موسى

الاشعري، ولكن الامام علي عليه السلام لم يرضَ بالاشعري بل رشح ابن عباس. ولكن الاشعث عارض فاقترح الإمام عليه السلام ان يكون الاشتر، ولكن الاشعث أصر أن يكون الاشعري هو الحكم. فنزل الامام عند طلبه فجاء الاشتر والاحنف بن قيس وابن الكواء علياً عليه السلام وطلبوامنه عدم النزول عند رأي الاشعث وأصحابه.

فلما بلغ ذلك أهل الشام، بعث ايمن بن خزيم الاسدي، وكان معتزلاً معاوية بهذه الأبيات، وكان هواه أن يكون الأمر لأهل العراق (٢/ ٢٣١):

لو كان للقوم رأي يعصمون به ... من الضلال رموكم ياابن عباس
لله درّ ابيه انما رجل ... ما مثله لفصال الخطب في الناس
لكن رموكم بشيخ من ذوي يمنٍ ... لايهتدي ضرب أخماس لاسداس
ان يخلُ عمرو به يقذفه في لججٍ ... يهوي به النجم تيساً بين أتياس
ابلغ لديك علياً غير عاتبه ... قول امرىءٍ لايرى بالحق من باس
ما الاشعري بمأمون أبا حسنٍ ... فاعلم هديت فليس العجز كالراس
فاصدم بصاحبك الادنى زعيمهم ... ان ابن عمك عباس هو الآسي

ولما بلغ الناس هذا الشعر، طارت أهواء قوم من اولياء علي عليه السلام وشيعته الى ابن عباس، وأبت القرّاء إلا أبا موسى.

وكان أيمن بن خزيم رجلاً عابداً مجتهداً، وقد كان معاوية جعل له فلسطين، على أن يتابعه ويشايعه على قتال علي عليه السلام، فقال أيمن وبعث بها اليه (٢/ ٢٣٢):

ولســـت مقـــاتلاً رجـــلاً يصـــلّي على ســـلطان آخـــر مـــن قـــريش
لـــــه ســـــلطانه وعلـــــيّ إثمـــــي معـــــاذا للّه مـــــن ســـــفهٍ وطـــــيش
أأقتـــل مسـلماً مـن غـير جـرم فلـيس بنـافعي ماعشـت عيشـي

فلما رضي أهل الشام بعمرو، وأهل العراق بابي موسى، أخذو في سطر كتاب الموادعة، وكانت صورته:

(هذا ماتقاضى عليه على أمير المؤمنين ومعاوية أبن أبي سفيان).

فقال معاوية:

- بئس الرجل أنا أن اقررت انه أمير المؤمين ثم قاتلته!

وقال عمرو:

- بل نكتب اسمه واسم ابيه؟ انما هو اميركم، فاما اميرنا فلا.

فلما اعيد الكتاب امر بمحوه. فقيل للامام علي عليه السلام ان لا يمحو صفحتة امير المؤمنين فذكرهم بان هذا اليوم صلح الحديبية، اذ حذفت كلمة (رسول الله) من النبي محمد صلى الله عليه وأله عندما طلب النبي من الامام علي عليه السلام ذلك قائلاً:

((ياعلي، إني لرسول الله. وان محمد بن عبد الله، لن يمحو عني الرسالة كتابي لهم: من محمد بن عبد الله، فاكتبها وامحُ ما اراد محوه، اما انك مثلها ستعطيها وانت مضهد)).

وكتبوا كتاب الصلح وشهد على الكتاب شهود وقريء الكتاب على أهل

العراق والشام فرضو به. وارتفعت أصوات تعارض في الكتاب وتطالب الرجوع عنه، فقال الامام علي عليه السلام:

- بعد ان كتبناه ننقضه! ان هذا لايحل.

وقال عليه السلام:

- ان ما فعلت مافعلت لما بدا فيكم من الخور والفشل عن الحرب.

وهكذا دعا معاوية عمرو بن العاص وصار يحذره من الاشعري ويوصيه. وخرج عمرو مغضباً كانه كره ان يوصي ثقة بنفسه. وقال لاصحابه حين خرج:

- انما اراد معاوية ان يصغّر امر ابي موسى لأنه علم اني خادعه غدا. فاحب ان يقول: ان عمرو لم ينخدع اريبا. فقد كدته بالخلاف عليه.

وقال في ذلك (٢ /١ ٤ ٢ - ٢ ٤ ٢):

يشجعني معاوية بن حرب ... كأني للمؤدب مستكين
واني عن معاويةٍ غنيٌّ ... بحمد الله والله المعين
وهون امرعبد الله عمداً ... وقال له على ما كان دين
فقلت له ولم اردد عليه ... مقالته وللشاكي أنين
توى أهل العراق يذب عنهم ... وعن جيرانهم رجلٌ مهين
فلو جهلوه لم يجهل علي ... وغث القول يحمله السمين
ولكن خطبهم فيهم عظيم ... وفضل المرء فيهم مستبين
فإن أظفر فلم أظفر بوعد ... وإن يظفر فقد قطع الوتين

الا ياعمرو عمرو قبيل سهم ... امن طب اصابك ذا الجنون
دع البغي الذي أصبحت فية ... فان البغي صاحبه لعين
الم تهرب بنفسك من عليٍ ... بصفينٍ وانت بها حنين
حذاراً ان تلاقيك المنايا ... وكل فتىً سيدركه المنون
ولسنا عائبين عليك الا ... لقولك انني لا استكين

ثم أقبل الناس على قتلاهم فدفنوهم.

كان حابس بن سعد الطائي قد قتل في صفين فمر به عدي بن حاتم، ومعه ابنه زيد، فرآه قتيلاً فأخبر أباه أنه خاله فلعنه أبوه ولعنه خاله ولما سأل عن قاتل خاله خرج اليه رجل من بكر بن وائل، فقال: أنا قتلته.

فحمل عليه زيد فطعنه بالرمح وقتله، فصار أبوه يسبه ويشتمه فضرب زيد فرسه فلحق بمعاوية وادنى مجلسه، وقال زيد في قتل البكري (٢ / ٢٤٣ - ٢٤٤):

(و) من مبلغ ابناء طبيٍ بأنني ... ثأرت بخالي ثم لم اثأثم
تركت أخا بكر ينوء بصدره ... بصفين مخضوب الجبين من الدم
وذكرني تأري غداة رأيته ... قتيلاً عن الاهوال ليس بمحجم
قتيلاً يظل الحي يثنون بعده ... عليه بايدٍ من نراه وأنعم
لقد فجعت طي بحلم ونائل ... وصاحب غارات ونهب مقسم
لقد كان خالي ليس خال كمثله ... دفاعاًلظيم واحتمالاً لمغرم

ولما اراد أبو موسى المسير قام اليه شريح بن هاني فاخذ بيده واوصاه بالثبات

في الحق والحذر من الخديعة وقال له (٢ /٢٤٥):

ابـا موسـى رميـت بشـر خصـمٍ	فـلا تضـع العـراق فـد تـك نفـسِ
واعـط الحـق شـامهمُ وخـذه	فـان اليـوم في سـهل كـأمسِ
وان غـداً يجـيء بمـا عليـه	كـذاك الـدهر مـن سـعدونحسِ
ولا يخـدعك عمـرو ان عمـرواً	عـدو الله مطلـع كـل شمـسِ
لـه خـدع يحـار العقـل منهـا	مموهـة مزخرفـة بلـبسِ
فـلا تجعـل معاويـه بـن حـربٍ	كشـيخٍ في الحـوادث غـير نكـسِ
هـداه الله للاسـلام فـرداً	سـوى عـرس الـنبي واي عـرسِ

فقال ابو موسى:

- ماينبغي لقوم اتهموني ان يرسلوني لادفع عنهم باطلاً، او اجرّ اليهم حقا.

وبمثل هذا نصحه عبد الله بن عباس بكلام بليغ، ومما قاله:

- ان الناس لم يرتضوك لفضل عندك لم تشارك، فقال بعض شعراء قريش (٢ / ٢١٢):

والله مـاكلم الاقـوام مـن بشـرٍ	بعـد الوصـيّ علـيٍّ كـابن عبـاس
اوصـى ابـن قـيس بـامرٍ فيـه عصـمته	لـو كـان فيهـا ابـو موسـى مـن النـاس
انـي اخـاف عليـه مكـر صـاحبه	ارجـو رجـاء مخـوفٍ شـيب باليـاس

وكان النجاشي صديقاً لابي موسى، فكتب اليه يحذره من عمرو بن العاص (٢/٢٤٦ ـ ٢٤٨):

يؤمـل اهـل الشـام عمـروأ وانـني لآ مـل عبـد الله عنـد الحقـائق
وان ابـا موسـى سـيدرك حقنـا اذامـارمى عمـروأ باحـدى البوائـق
وحققـه حتـى يـدر وريـده ونحـن علـى ذاكـم كـاحنق حـانق
علـى أن عمـرواً لا يشـق غبـاره اذا مـاجرى بالجهـد اهـل السـوابق
فللـه مـا يرمـي العـراق وأهلـه بـه منـه ان لم يرمـه بالصـواعق

فكتب اليه ابو موسى:

- اني لارجو ان ينجلي هذا الامر، وأنا فيه على رضا الله سبحانه.

ثم ان شريح بن هاني جهز أباموسى جهازاً حسناً، وعظّم امره في الناس ليشرُف في قومه، فقال الاعور الشني في ذلك يخاطب شريحاً (٢ /٢٤٨):

زففـت ابـن قـيس زفـاف العـروس شـريح الى دوحـة الجنـدل
وفي زقـك الاشـعري الـبلاءُ ومـايقضِ مـن حـادث ينـزل
ومـا الاشـعري بـذي اربـهٍ ولاصـاحب المظهـر الفيصـل
ولا آخـذاً حـظ أهـل العـراق ولا قيـل هـا خـذه لم يفعـل
يحـاول عمـروا وعمـرو لـه خـداع ويـأتي مـن علـي
فـان يحكمـا بالهـدى يتبعـا وان يحكمـا بـالهوى الاميـل
يكونـا كتيسـين في قفـرةٍ يكونـا نقيقـا مـن الحظنـل

فقال شريح:

- والله لقد تعجلت رجال مساءتنا في ابي موسى، واطعنوا عليه بأسوء

الطعن، وظنوا فيه ما لا عصمة منه ان شاء الله.

وسار مع عمرو بن العاص شرحبيل بن السمط في خيل عظيمة، حتى اذا أمن عليه خيل أهل العراق ودعه. واوصاه، وودعه كما ودع شريح ابا موسى بعد ان اوصاه. وكان آخر من ودع ابا موسى الاحنف بن قيس؛ اخذ بيده واوصاه بكلام له معنى تاريخي، ولكي يختبر مافي نفسه لعلي عليه السلام قال له:

- فان لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي، فليختر أهل العراق من قريش الشام من شاؤوا، أو فليختر أهل الشام من قريش العراق من شاؤوا.

فقال ابو موسى:

- قد سمعت ما قلت.

ولم ينكر ما قاله من زوال الامر عن علي عليه السلام

فرجع الاحنف الى علي عليه السلام فقال له:

- اخرج ابو موسى والله زُبدة سقائه في أول مخضه: لا ارانا الابعثنا رجلاً لاينكر خلعك.

وشاع وفشا أمر الاحنف وأبي موسى في الناس، فبعث الصلتان العبدي وهو بالكوفة الى دومة الجندل بهذه الابيات (٢/٢٤٩-٢٥٠):

لعمرك لا الفى مدى الدهر خالعاً ... علياً بقول الاشعري ولاعمرو

فان يحكما بالحق نقبله منهما ... والا اثرناها كراغية البكر

ولسنا نقول الدهر ذاك اليهما ... وفي ذاك لوقلناه قاصمة الظهر

ولكــن نقــول: الامــر والنهــي كلــه اليــــه، وفي كفيــه عاقبـــة الامـــر
ومــا اليـــوم الا مثــل امــسٍ وانـنــا لفـي وشـل الضحضـاح اولجـة البحـر

فلما سمع الناس قول الصلتان شحذهم ذلك على ابي موسى واستبطأه القوم وظنوا به الظنون.

ولما ابطأت الاخبار على معاوية بعث المغيرة بن شعبة، وكان مقيماً بالطائف لم يشهد الحرب - فاتى دومة الجندل فدخل على أبي موسى كالزائر له فقال:

- يا اباموسى، ما تقول فيمن أعتزل هذا الامر وكره الدماء؟

قال:

- أولئك خير الناس، خفت ظهورهم من دمائم، وخمصت بطونهم من أموالهم.

ثم أتى عمرواً فاجابه على سؤاله فقال:

- أولئك شر الناس، لم يعرفوا حقاً، ولم ينكروا باطلاً.

فرجع المغيرة الى معاوية فقال له:

- قد ذقت الرجلين: اما عبد الله بن قيس (الاشعري) فخالع صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الامر. وهو في عبد الله بن عمر، واماعمرو بن العاص فهو صاحبك الذي تعرف وقد ظن الناس انه يرومها لنفسه، وانه لايرى انك احق بهذا الامر منه. وكان عمرو بن العاص يقدم اباموسى الاشعري في الكلام في دومد الجندل بقوله:

ـ انك حميت رسول الله صلى الله علبه وآله وسلَّم قبلي، وانت اكبر مني سناً فتكلم أنت، ثم اتكلم أنا. فجعل ذلك سنّة وعادة بينهما، وانما كان مكراً وخديعة واغتراراً ان يقدمه. فيبدأ يخلع علي ثم يرى رأيه. وزيادة في طمأنته اعطاه صدر المجلس، وكان لا يتكلم قبله، واعطاه التقدم في الصلاة والطعام، لا يأكل حتى يأكل، وإذا خاطبه فانمايخاطبه بأجل الأسماء، ويقول له:

ـ يا صاحب رسول الله

حتى اطمأن اليه، وظن انه لايغشّه، وبعد ان اطمأن عمرو ممابيته لأبي موسى سأله رأيه فقال:

ـ أرى ان نخلع هذين الرجلين، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، يختارون من شاؤوا.

فقال ابوموسى:

ـ الرأي والله مارأيت.

فأقبلا الى الناس وهم مجتمعون فبدأ أبو موسى الكلام فأخبرهم بما اتفقا عليه، وصدّق عمرو. وقدمه ليتكلم فدعاه ابن عباس أن يترك الكلام لعمرو أولاً ومما قاله له ابن عباس:

ـ ولا أمن ان يكون قد اعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فاذا قمت في الناس خالفك.

وكان أبو موسى رجلاً مغفلا.

فقال:

- ايها عنك انّا قد اتفقنا:

فتقدم أبوموسى، وبعد الحمد قال: وقد أجمع رأيي ورأي صاحبي على خلع معاوية وعلي، وان يستقبل هذا الامر فيكون شورى بين المسلمين يولون امورهم من احبوا. واني خلعت علياً ومعاوية؛ فاستقبلوا اموركم، وولوا من رأيتموه لهذا الامر، اهلاً. ثم تنحى.

فقام عمرو بن العاص فقال:

ان هذا قد قال ماسمعتم. وخلع صاحبه، وانا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة فانه ولي عثمان والطالب بدمه، واحق الناس بمقامه.

فقال له ابو موسى:

- مالك لا وفقك الله قد غدرت وفجرت انما مثلك. . كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث وان تتركه يلهث)).

فقال عمرو:

انما مثلك ((كمثل الحمار يحمل اسفارا)).

وحمل شريح بن هانيء على عمرو فقنعه بالسوط، وحمل ابن عمرو على شريح فقنعه بالسوط، فقام الناس فحجزوا بينهما. والتمس أصحاب علي عليه السلام أبا موسى فركب ناقته ولحق بمكة

وكان ابن عباس يقول:

- قبح الله اباموسى، لقد حذرته، وهديته الى الرأي فماعقل.

ورجع عمرو الى منزله من دومة الجندل فكتب الى معاوية (٢ /٢٥٥ - ٢٥٧):

اتتك الخلافة مزفوفةً ... هنيئاً مريئاً تقر العيونا
تزف اليك زفاف العروس ... بأهون من طعنة الدار عينا
وما الاشعري بصلد الزناد ... ولا خامل الذكر في الاشعرينا
ولكن اتيحت له حيّة ... يظل الشجاع لها مستكينا
فقالوا وقلت وكنت امرءاً ... اجهجه بالخصم حتى يلينا
فخذها ابن هند على بعدها ... فقد دافع اللّه ماتحذرونا
وقد صرف اللّه عن شامكم ... عدواً مبيناوحرباً زبوناً

وقام كردوس بن هاني مغضباً فقال (٢ /٢٥٧):

الا ليث من يرضى من الناس كلهم ... بعمرو وعبد اللّه في لجة البحر
رضينا بحكم اللّه لا حكم غيُرُه ... وباللّه رباً والنبي وبالذكر
وبالاصلع الهادي علي أمامنا ... رضينا بذاك الشيخ بالعسر واليسر
رضينا به حياً وميتاً وانه ... أمام هدىً في الحكم والنهي والامر
فمن قال لا قلنا بلى ان امره ... لأفضل ما يعطاه في ليلة القدر
وما لابن هند بيعة في رقابنا ... وما بيننا غير المنقفة السمر

وضـــرب يزيــل الهــام عــن مســتقره   وهيهــات هيهــات الرضــا آخــر الامــر
ابـــتُ لـــي اشـــياخ الاراقـــم ســـبّة   أُســب بهــا حتـــى أُغيّـــب في القـــبر

فتشـاتم عمـرو وابـو موسـى مـن ليلتـه، فـاذا ابـن عـم لابي موسـى يقـول (٢٥٩٢):

ابا موسى خدعت وكنت شيخاً   قريب القمر مدهوس الجنان
رمى عمرو صفاتك يا ابن قيس   بـــامر لاتتـــوء بـــه بـــدان
وقــد كنــا نجمجــم عــن ظنــونٍ   فصرحت الظنون عن العيان
مفـض الكـف مـن نـدم ومـاذا   يـرد عليـك عظـك بالبنـان

وشمت أهـل الشـام بأهـل العـراق، وقـال كعـب بـن جميـل شـاعر معاويـة (٢٥٨/٢ ـ ٢٥٩)

كـــأن اباموســـــى عشـــية اذرح   يطـــوف بلقمـــان الحكـــيم بواربـــه
ولمـــا تلاقـــوا في تـــراب محمـــد   نحـــتُ بـــابن هنـــد في قـــريش مناســـيه
ســعى بــابن عفــان ليــدرك ثــأره   وآوى عبــــاد اللّه بالثــــار طالبــــه
وقــد غشــيتنا في الــزبير غضاضــة   وطلحـــة اذقامـــت عليـــه نوادبـــه
فــرد ابــن هنــد مكلــه في نصــابه   ومــن غالــب الاقــدار فــاللّه غالبــه
ومــا لابــن هنــد مــن لــؤي بــن غالــب   نظـــير وان جاشـــت عليـــه اقاربـــه
فهــذاك ملــك الشــام وافٍ ســنامه   وهــذاك ملــك القــوم قــد جــب غاربــه
يحـــاول عبـــد اللّه عمـــروا وانـــه   ليضـــرب في بحـــرٍ عـــريض مذاهبـــه

دحـــا دهـــوة في صـــدره فهـــدت بـــه　　　الى اســـفل الجـــب الظنـــون كواذبـــه

فرد عليه رجل من أصحاب علي عليه السلام (٢ /٢٥٩):

غـــدرتم وكـــان الغـــدر مـــنكم ســـجية　　　فمـــا ضـــرنا غـــدر الليـــئم وصـــاحبه

وسميـــــتمُ شـــــر البريـــــة مؤمنــــاً　　　كـــذبتم فشـــر النـــاس للنـــاس كاذبـــه

وقال كعب بن جميل - وهو شاعر أهل الشام - بعد رفع المصاحف، يذكرايام صفين ويحرض معاوية (٨ /٤٠):

معــــاويَ لاتــــنهض بغــــير وثيقــــةٍ　　　فانــــك بعــــد اليــــوم بالــــذل عــــارف

تــــركتم عبيــــد الله بالقــــاع مســــنداً　　　يمــــج ثجيعــــاً والعــــروق نــــوازف

الا انمــــا تبكــــي العيــــون لفــــارسٍ　　　بصــــفين جلــــت خيلــــه وهــــو واقــــف

ينــــوء وتعلــــوه شــــآبيب مــــن دمٍ　　　كمــــا لاح في جيــــب القمــــيص اللفــــائف

تبــــدل مــــن أسمــــاء اســــياف وائــــل　　　وايّ فتــــى لــــو أخطأتــــه المتــــالف

وفــــرّت تمــــيم: ســــعدها وربابُهــــا　　　وخالفــــت الجعــــراء فــــيمن يخــــالف

وكتب معاوية الى ابي ايوب خالد بن زيد الانصاري، . صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم وكان سيداً معظماً من سادات الانصار، وكان شيعة علي عليه السلام كتاباً من سطر واحد: حاجيتك: ((لا تنس الشيباء ابا عذرها، ولا قاتل بكرها))

وكتب في أسفل كتابه (٨ /٤٤):

ابلــــغ لــــديك ابــــا ايــــوب مالكــــة　　　انــــا وقومــــك مثــــل الــــذئب والنَّقَــــد

اماقتلتم امير المؤمنين فلا ... ترجو الهوادة منا آخر الابد
ان الذي نلتموه ظالمين له ... ابقت حزازته صدعاً على كبدي
اني حلفت يميناً غير كاذبةٍ ... لقد قتلتم اماماً غير ذي أود
لاتحسبوا انني انسى مصيبته ... وفي البلاد من الانصار من احد
قد ابدل اللّٰه منكم خير ذي كلع ... واليحصبيين أهل الخوف والجند
ان العراق لنا فقع بقرقرةٍ ... او شحمة بزّها شاوٍ ولم يكد
والشام ينزلها الابرار بلدتها ... أمنٌ، وبيضتها بحرّية الاسد

فكتب أيوب الى معاوية:

- اما بعد: فانك كتبت ((لاتنس الشيباء اباعذرها ولاقاتل بكرها)) فضربتها مثلاً بقتل عثمان. وما نحن وقتل عثمان! ان الذي تربص بعثمان وثبّط يزيد بن أسد، واهل الشام عن نصرته لأنتَ، وان الذين قتلوه لغير الأنصار.

وكتب في آخر كتابه (٨ /٤٥):

لا توعدنّا ابن حرب اننا نفر ... لانبتغي ودّ ذي البغضاء من أحد
واسطوا جميعاً بني الاحزاب كلكم ... لسنا نريد رضاكم آخر الابد
نحن الذين ضربنا الناس كلهم ... حتى استقاموا وكانوا عرضة الاود
والعامَ قصرك منا ان تبث لنا ... ضرب يزيل بين الروح والجسد
اما عليٌّ فانا لانفارقه ... مارفرف الأل في الدوية الجرد
اما تبدلتَ منا بعد نصرتنا ... دين الرسول - اناساً ساكني الجلد

لايعرفـــون أضـــل الله ســـعيهم الاوتبـــاعكم يـــاراعي النقـــد
فقـد بغـى الحـق حتمـاً اثـر ذي كلـع واليحصـبيون طـراً بيضـة البلـد

فلما اتى معاوية كتاب أبي أيوب كسره بن الضحاك بن سفيان صاحب راية بني سَليم مع معاوية مبغضاً اياه واهل الشام وله هوىً مع أهل العراق: وعلي بن ابي طالب عليه السلام وكان يكتب باخبار معاوية الى عبد الله بن الطفيل العامري وهو مع أهل العراق فينجد بها عليا عليه السلام ولما كان الامام علي عليه السلام قد بعث بكتابه الى معاوية قبل ليلة الهرير بيومين أو ثلاثة. انه:

((مصبح معاوية ومناجز له)).

بعث ابن الضحاك الى ابن الطفيل:

- اني قائل شعراً اذ عربه أهل الشام وارغم به معاوية. فقال ليلاً لبستمع أصحابه (١٥/ ١٢٠ - ١٢١):

الا ليـت هـذا الليـل اطبـق سـرمدا علينـــا وانـــا لانـــرى بعـــده غـــدا
ويااليتـــه ان جاءنـــا بصـــباحه وجـدنا الى مجـرى الكواكـب مصـعدا
حـــذار علـــيٍّ انـــه غـــير مخلـــفٍ مـــدى الـــدهر مـــالبى الملبـــون موعـــدا
كـأني بـه في النـاس كاشـف رأسـه علـى ظهـر خـوار الرحالـة اجـردا
يخـوض غمـار المـوت في مرحجنـةٍ ينـــادون في نقـــع العجـــاج محمـــدا
فـــوارس بـــدر والنضـــير وخيـــبرٍ وأحـــد فيهـــزون الصـــفيح المهنـــدا
ويـــوم حـــنينٍ جالـــدوا عـــن نبـــيهم فريقـــاً مـــن الأحـــزاب حتـــى تبـــددا

هنالــك لا تلــوي عجــوز علــى أبنهــا وأن كثــرت مــن قــول: نفســي لــك الفــدا
فقـل لأبـن حـرب مالـذي أنـت صـانع أتثبــت أم نــدعوك في الحــرب قُعَّــدُدا
وظـني بـأن لا يصـبر القـوم موقفـا يقفــه وأن لم يحــر في الــدهر للمــدى
فــلا رأي إلا تركنــا الشــام جهــرةً وأن أبــرق الفجفــاج فيهــا وارعــدا

وتناقل الناس كلمة علي عليه السلام:

((لأُناجزهم مصبحا)).

فقال الأشتر (١٥/١٢١-١٢٢):

قــد دنــا الفضــل وللســلـــ ــــم رجــال وللحــروب رجــال
فرجــال الحــروب كــل خــبرٍّ سـرِ ومقحــم لا تهــدّه ألأهــوال
يضــرب الفــارس المــدجج بالسيــ ــف إذا خــر في الــوغى الأكفــال
يــا ابــن هنــد شُــدَّ الحيــازيم للمــو ت ولا تــذهبن بــك الأمــال
إن في الصــبح أن بقيــت لأمــراً تتهــاوى مــن هولــه الأبطــال
أن تكونــوا قتلــتم النفــر البــيض وغالــت أولئــك الآجــال
فلنــا مثلــهم غــداة التلاقــي وقليــل مــن مثلــهم إبــدال
يخصــبون الوشــيج طعنــاً إذا جــرّ ت مــن المــوت بيــنهم أذيــال
طلــب الفــوز في المعــاد وفيــه تســتهان النفــوس والأمــوال

فلما أتى معاوية كتاب علي عليه السلام أكتمه عن عمرو بن العاص أياماً. ثم دعاه فاقرأه أياه فشمت به عمر، ولم يكن أحد من قريش أشد أعظاماً لعلي

عليه السلام من عمرو بن العاص منذ لقيه وصفح عنه، فقال عمرو فيما كان أثار به على معاوية (١٥/٢٠٧):

ألا للّه درك يـــا ابـــن هنـــد ... ودر الآمـــرين لـــك الشـــهود
أتطمـــع لا أبالـــك في علـــيٍ ... وقـــد قـــرع الحديـــد علـــى الحديـــد
وترجـــو أن تخـــبره بشـــكٍ ... وتأمـــل أن يهابـــك بالوعيـــد
لقـــد كشـــف القنـــاع وجـــرَّ حربـــاً ... يشـــيب لهولهـــا رأس الوليـــد
لـــه جـــأواء مظلمـــة طحـــون ... فوارســـها تلَهّـــث كالأســـود
يقـــول لهـــا إذا رجعـــت اليـــه ... وقـــد ملَّـــت طعـــان القـــوم عـــودي
فـــان وردت فأولهـــا ورودا ... وأن صـــدّت فلـــبس بـــذي صـــدود
ومـــا هـــي مـــن أبـــي حســـن بنكـــرٍ ... ولا هـــو مـــن مســـائك بالبعيـــد
وقلـــت لـــه مقالـــة مســـتكين ... ضـــعيف الـــركن منقطـــع الوريـــد
دعـن لـي الشـام حسـبك يـا ابـن هنـد ... مـــن الســـوءات والـــرأي الزهيـــد
ولـــو أعطاكهـــا مـــا زدت عـــزاً ... ولا لـــك لـــو أجابـــك مـــن مزيـــد
فلـــم تكســـر بـــذاك الـــرأي عـــوداً ... لركّتـــه ولا مـــا دون عـــود

وبعد التحكيم سمع معاوية أن علياً عليه السلام تحمَّل إليه مقبلاً، هاله ذلك فخرج من دمشق معسكراً وبعث إلى كور الشام فصاح بها:

ـ إن علياً قد سار إليكم.

وكتب إليهم نسخة واحدة فقرئت على الناس؛ ذكر في الكتاب كيف أن

الحكمين قد اتفقا على عدم نكث العهد الذي ثبتاه في كتاب التحكيم، ودعاهم الى أن يتجهزوا للحرب فمكثوا يجيلون الرأي يومين أو ثلاثة، حتى قدمت عليهم عيونهم أن علياً أختلف عليه أصحابه ففارقته منهم فرقة أنكرت أمر الحكومة وأنه قد رجع عنكم إليهم.

وكان عمار بن عقبة بن معيط مقيماً بالكوفة، وكان يكتب إلى معاوية بالأخبار سراً، وكان أخوه الوليد يبعث إليه شعراً يحرضه منه (٢/١١٥ـ١١٦):

وان يك ظني في عمارة صادقاً ... ينم ثم لا يطلب بدهل ولا وتر
يبيت وأوتار ابن عفان عنده ... مجييمة بين الخورفق والقصر
تمشّى رخيَّ البال مستشذر القوى ... كأنك لم تسمع بقتل أبي عمرو
إلا أن خير الناس بعد ثلاثةٍ ... قتيل التجيبي الذي جاء من مصر

فأجابه الفضل بن عباس بن عتبة (٢/١١٥ـ١١٦):

أتطلب ثأراً لست منه ولا له ... ولا لأبن ذكوان الصفوري والوتر
كما أفتخرت بنت الحمار بأمها ... وتنس أباها إذ تسامي أولو الفخر
ألا أن خير الناس بعد نبيهم ... وصي النبي المصطفى عند ذي الذكر
وأول من صلى وصنو نبيّه ... واول من أردى الغواة لدى بدر
فلو رأت الأنصار ظلم ابن عمكم ... لكانوا له من ظلمة حاجزي النصر
كفى ذاك عيباً أن يشيروا بقتله ... وأن يسلموه للأحابيش من مصر

فعند ذاك دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري إلى التجهز والذهاب إلى

الكوفة لأغراب الأعراب هناك والإغارة على المسالح، فأقبل الضحاك فنهب الأموال وقتل من لقي من الأعراب، فاستصرخ أمير المؤمنين عليه السلام الناس، عقب غارة الضحاك، فتقاعدو عنه، فخطبهم فقال:

ما عزّت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم. .

فخرج حجر بن عدي حتى مر بالسماوة فلم يزل مغذاً في اثر الضحاك حتى لقيه بناحية تدمر، فوافقه فاقتتلوا ساعة فقتل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلاً، ومن أصحاب حجر رجلان، وحجز الليل بينهم، فمضى الضحاك، فلما أصبحوا لم يجدوا له ولأصحابه أثراً.

وأصاب الضحاك في هربه من حجر عطش شديد، وفيما هو يبحث عن الماء سمع قائلاً يقول (٢/١٢٢):

دعاني الهوى فازددت شوقاً وربما	دعاني الهوى من ساعة فأجيب
وأرقني بعد المنام وربما	أرقت لساري الهم حين يؤوب
فان أك قد أحببتكم ورأيتكم	فأني بداري عامر لغريب

وعلى أثر هذه الوقفة كتب عقيل بن أبي طالب إلى أخيه أمير المؤمنين عليه السلام حين بلغه خذلان أهل الكوفة، وتقاعدهم به، طلبه فيه السماح له باللحوق به فكتب الإمام عليه السلام إلى أخيه بأنه لا حاجة له بذلك قائلاً: -

والله ما أحب أن تهلكوا معي أن هلكت، ولا تحسبن ابن أمك - ولو أسلمه الناس - متخشعاً ولا متضرعاً، أنه لكما قال أخو بني سليم (٢/١٢٠):

فأن تسألينى كيف أنت فأنني صبور على ريب الزمان صليب
يعز عليَّ إن تُرى بي كآبة فيشمت عاد أو يُساء حبيب

ولما وضعت حرب صفين أوزارها وسلم الحسن عليه السلام الأمر إلى معاوية أخذ عبد الله بن هاشم بن عتبة الأمر قال أسير إلى معاوية ولما مثل بين يديه، وعنده عمرو بن العاص، طلب منه أن يقتله قائلاً: -

لم تلد الحية إلا الحية.

ولما أجابه عبد الله جواباً مفحماً، إذ ذكّره بهزيمته أمام علي عليه السلام في صفين، أمر معاوية به إلى الحبس، فكتب عمرو إلى معاوية (٣١/٨و٣٤):

أمرتك أمراً حازماً فقصيتني وكان من التوفيق قتل ابن هاشم
وكان أبوه يا معاوية الذي رماك على حرب بحز الغلاصم
فقتّلنا حتى جرت من دمائنا بصفين أمثال البحور الخضارم
وهذا أبنه والمرء يشبه أهله ستقرع أن أبقيته سن نادم

فبعث معاوية بالشعر إلى عبد الله بن هاشم، فكتب في جوابه من السجن:

معاوي أن المرء عمراً أبت له ضغينة صدر ودها غير سالم
يرى لك قتلي يا ابن حرب، وإنما يرى ما يرى عمرو ملوك الأعاجم
على انهم لا يقتلون أسيرهم إذا كان فيه منعة للمسالم
وقد كان منا يوم صفين نغرة عليك، جناها هاشم وابن هاشم
قضى الله فيها ما قضى ثمتَ انقضى وما ما مضى إلا كأخفات حالم

فـأن تعـفُ عـني تعـف عـن ذي قرابـة	وأن تـــرَ قتلـــي تســـتحل محـــارمي

فأطرق معاوية طويلاً حتى ظن أنه لن يتكلم، ثم قال :

أرى العفـو عـن عليـا قـريش وسـيلة	الى الله في اليــوم العبــوس القمــاطر

ولســت أرى قتلـــي فتـــى ذا قرابـــةٍ	لـــه نســـب في الحـــي كعـــب وعـــامر

بـل العفـو عنـه بعـدما خـاب قدِحـه	وزلـــت بـــه إحـــدى الجـــدود العـــواثر

وكـــان أبـــوه يـــوم صـــفين محنقـــاً	علينـــا ، فاردتـــه رمـــاح بحـــابر

٨ - الخوارج

غلّس علي عليه السلام بالناس صلاة الغداة يوم الثلاثاء، عاشر شهر ربيع الاول، سنة سبع وثلاثين - وقيل عاشر شهر صفر، ثم زحف الى اهل الشام بعسكر العراق. والناس على راياتهم واعلامهم، وزحف اليهم اهل الشام وقد كانت الحرب أكلت الفريقين، ولكنها في أهل الشام اشد نكاية، واعظم وقعا، فقد ملّوا الحرب، وكرهوا القتال وتضعضعت اركانهم.

اذ كان الاشتر قد حمل على اهل الشام فكسر فيهم رمحه ثم رجع وخرج رجل من اهل الشام طالباً من الامام علي عليه السلام ان يرجع أهل العراق الى عراقهم. فيخلي اهل الشام بينه وبين العراق. ويرجع أهل الشام الى شامهم فيخلي أهل العراق بينهم وبين الشام. ولكن الامام عليه السلام رفض هذه الدعوة قائلاً:

- إن الله تعالى ذكره لم يرضَ من أوليائه أن يعص في الأرض وهم سكوت مذعنون؛ لا يأمرون بمعروف، ولا ينهون عن منكر، فوجدت القتال أهون عليَّ من معالجة في جهنم.

فاشتد القتال بالنبل والحجارة والرماح والسيوف وعمد الحديد فاجتلدوا من صلاة الغداة من اليوم المذكور الى نصف الليل. وافترقواعن سبعين الف قتيل في ذلك اليوم وتلك لليلة وهي ليلة الهرير المشهورة.

وكان الاشتر في ميمنة الناس وابن عباس في الميسرة، وعليٌّ عليه السلام في القلب والناس يقتتلون. ثم استمر القتال من نصف الليل الثاني الى ارتفاع الضحى. ولما بلغ معاوية اندحار جيشه وانتصار جيش الامام علي عليه السلام لجأ الى عمرو بن العاص، فقال:

- ياعمرو: انما هي الليلة حتى يغدو علي علينا بالفيصل، فما ترى؟ فنصحه ان يلقي الى القوم امراً ان قبلوه. اختلفوا، وان ردوه اختلفوا، وهو: ان يدعوهم الى كتاب الله. وكان رفع المصاحف المار ذكره في وقعة صفين، فوافقه معاوية، فاختلف اصحاب علي عليه السلام في الرأي: فطائفة قالت: القتال، وطائفة قالت المحاكمة الى كتاب الله، وكانت خديعة عمرو بن العاص، مع ابي موسى الاشعري. ونتيجة الاختلاف في الرأي خرج جماعة وفيهم قراء على الامام عليه السلام فسموا بـ ((الخوارج))

ولما دخل الامام علي عليه السلام الكوفة دخل معه كثير من الخوارج، وتخلف منهم بالنخيلة، وغيرها خلق كثير لم يدخلوها. فدخل نفر من رؤوسهم عليه عليه السلام فقالوا له:

- تُبْ من خطيئتك، واخرج بنا الى معاوية، نجاهده.

فاجابهم الامام عليه السلام:

ـ اني كنت قد نهيتكم عن الحكومة فابيتم. ثم الآن تجعلونها تبا؟

فقال له عليه السلام احدهم:

ـ اما والله لئن لم تتب من تحكيمك الرجال لاقتلنك! اطلب بذلك وجه الله ورضوانه فقال عليه السلام:

ـ بؤساً لك ما اشقاك!

وكانت الخوارج في اول ماانصرفت عن رايات علي عليه السلام تهدد الناس قتلاً، فاتت منهم طائفة على النهر الى جانب قرية فقتلوا هناك عبد الله بن خباب، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وبقروا بطن جارية له. فعزم علي عليه السلام على الخروج من الكوفة الى الحرورية، وهي قرية على بعد ميلين من الكوفة كان اجتماع الخوارج فيها فنسبوا اليها.

ولما انتهى اليها هو وعسكره رماهم الخوارج والامام عليه السلام يمنع عسكره الرد عليهم حتى تكرر الرمي منهم ثلاث مرات، فقال عليه السلام لهم:

ـ الان طاب القتال، احملوا عليهم. وكان أميرهم، اول ما اعتزلوا، ابن الكواء، ثم بايعوا لعبد الله بن وهب الراسبي، ولما واقفهم علي عليه السلام بالنهروان، قال: لاتبدؤوهم بقتال حتى يبدؤوكم.

فحمل منهم رجل على صف علي عليه السلام فقتل منهم ثلاثة ثم قال (٢/ ٢٦٥ ـ ٢٧٢):

أقتلهم ولا أرى علياً ولو بدا اوجرته الخطّيّا

فخرج اليه علي عليه السلام فضربه فقتله.

وكان الامام علي عليه السلام قد وجه اليهم عبد الله بن عباس ليناظرهم ولكن دون جدوى؟

اذ اعتقدوا ان الامام مذنب، وعليه ان يتوب!وهو الشرط الذي وضعوه لعودتهم الى صفه. وهكذا بدأ القتال بينه عليه السلام وبين الخوارج في النهروان فقتل منهم خلقاً كثيراً.

وبعد وقعة النهروان اجتمع نفر من الخوارج بمكة فتذاكروا امر المسلمين، فعابوهم وعابوا اعمالهم عليهم، وذكروا اهل النهروان، فترحمواعليهم وقال بعضهم لبعض:

- لو أن شرينا انفسنا لله عزّوجل فاتينا أئمة الضلال وطلبنا غرتهم، وارحنا منهم العباد والبلاد وثأرنا باخوتنا الشهداء بالنهروان. فتعاقدوا عند انقضاء الحج، فقال عبد الرحمن بن ملجم: انا اكفيكم علياً،

وقال البُرَك بن عبد الله التميمي انه صاحب معاوية.

وقال عمروبن ابي بكر التميمي: انا اكفيكم عمرو بن العاص.

وتّعدوا لشهر رمضان في الليلة التي قتل فيها ابن ملجم علياً عليه السلام. وفيما يخص الامام علي عليه السلام فقد تنبأ بمقتله وبمن يقتله وذلك يوم جمع عليه السلام الناس للبيعة، فجاءه عبد الرحمن بن ملجم فرده علي عليه السلام مرتين اوثلاثاً، ثم مدَّ يده فبايعه، فقال له علي عليه السلام:

ما يحبس أشقاها!فوالذي نفسي بيده لتخضبن هذه من هذه. ثم أنشد (٦/ ١١٢ ـ١١):

اشـــدد حيازيمـــك للمـــوت ... فـــان المـــوت لاقيكـــا

ولاتجـــزع مـــن المـــوت ... اذا حـــلَّ بواديكـــا

وفي رواية اخرى. . . فلما بلغ ابن ملجم اعطاه عليه السلام وقال له (٦/ ١١٥):

اريـــد حياتـــه ويريـــد قتلـــي ... عـــذيرك مـــن خليلـــك مـــن مـــراد

وصدق الامام عليه السلام اذ كمن له ابن ملجم في المسجد ـ بعد اتفاقه مع قطام بنت الاخضر فبعثت معه من يساعده ـ وضرب الامام على جبهته وذلك في ليلة الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة اربعين، وقيل ليلة سبع عشرة من شهر رمضان. فأُدخِلَ ابن ملجم على علي عليه السلام فقال عليه السلام:

ـ النفس بالنفس؛ إن انا مِت فاقتلوه كما قتلني، وان سلمت رأيت فيه رأيي.

فقال ابن ملجم:

ـ ولقد اشتريته بالف ـ يعني السيف ـ وسممته بالف فان خانني فابعده الله.

فنادته أم كلثوم: ياعدو الله، قتلت أمير المؤمنين!

قال: انما قتلت أباك.

قالت: ياعدوالله، اني لارجو ان لايكون عليه بأس.

قال: فاراك انما تبكين علياً، اذاً لقد ضربته ضربة لو قُسِمَتْ بين أهل الارض لاهلكتهم. واخرج ابن ملجم من بين يديه عليه السلام وهو يقول (٦ /١١٨ - ١١٩):

(و) نحن ضربنا، ياابنة الخير اذ طغى	أباحسن مأمومة فتغطرا
ونحن حللنا ملكه من نظامه	بضربة سيف اذ علا وتجبرا
ونحن كرام في الصباح أعزة	اذا المرء بالموت ارتدى وتأزرا

وبعد ان فاضت روح الامام علي عليه السلام الى الخبير اللطيف فدفنه الحسن عليه السلام دعا بابن ملجم وامر بضرب عنقه، فاستوهبت أم الهيثم بنت الاسود النخعية جثته منه عليه السلام فوهبها لها، فاحرقتها بالنار.

فقال ابن ابي مياس الفزاري، وهو من الخوارج (٦ /١٢٥):

فلم أرَ مهراً ساقه ذو سماحةٍ	كمهر قطام من غنيٍّ ومُعدِمِ
ثلاثة آلاف وعبد وقينة	وضرب عليٍّ بالحسام المصمم
فلا مهر أغلى من علي وان غلا	ولا فتك إلاّ دون فتك ابن ملجم

وقال عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (٦ /١٢٥ -١٢٦):

وهز علي بالعراقين لحية	مصيبتها جلت على كل مسلم
وقال سيأتيها من الله نازل	وينضبها اشقى البرية بالدم
فعاجله بالسيف شلت يمينه	لشؤم قطام عند ذاك ابن ملجم

فياضــربة مــن خاســر ضــل ســعيه   تبـــواً منهـــا مقعـــداً في جهـــنم
ففـــاز أمـــير المـــؤمنين بحظـــه   وان طرقــت احــدى الليــالي بمعظــم
الا انمـــا الـــدنيا بـــلاء وفتنـــة   حلاوتهـــا شـــيبت بصـــاب وعقلـــم

وقـال احـد بـني عبـد المطلـب يرثـي علياً عليـه السـلام ولم يـذكر أسمـه (٦ /١٢٦):

يـــاقبر ســـيدنا المجـــنّ سماحـــة   صـــلى الالـــه عليـــك يـــاقبر
مـــا ضـــرّ قـــبراً انـــت ســـاكنه   ان لايحـــل بارضـــه القطـــر
فليـــذرينَّ سمـــاح كفـــك بـــالثرى   وليـــورقنَّ بجنبـــك الصـــخر
واللّه لوبـــك لم اجـــد أحـــداً   الا قتلـــت لفـــاتني الـــوتر

ويجدر ان نذكر انه فيمن فارق الامام علي عليه السلام والتحق بمعاوية يزيد بن حجبية التميمي من بني تيم بن ثعلبة بن بكر بن وائـل وكـان عليـه السـلام قـد استعمله على الري ودستَ بني فكسر الخوارج. واحتجن المال لنفسه، فحبسه عليه السلام. وجعل معه سعداً مولاه، فقرب يزيد ركائبه، وسعد نائم، فالتحق بمعاوية وقال (٤ /٨٣ ـ٨٤):

(و) خادعت سعداً وارتحتُ بي ركابي   الى الشـام واخـترت الـذي هـو افضـل
وغـــادرت ســـعداً نائمـــاً في عبـــادةٍ   وســـعد غـــلام مســـتهام مضـــلل

وعندما وصل الرقة، وهي من حيزِّ معاوية، عليها الضحاك بـن قـيس قـال يهجوا الامام علي عليه السلام (٤ /٨٤):

يــــاطول ليلـــــيَ بالرقـــــات ولم أنم   مـن غـير عشـق حيـث نفسـي ولاسـقم
لكـــن لـــذكر امـــور جمّـــة طرقـــت   أخشـى علـى الاصـل منهـا زلـة القـدم
اخشـــى علياً علـــيهم ان يكـــون لهـــم   مثـل العقـور الـذي عفـىّ علـى إرَم

وقد كان زياد بن خصفة اليمني، قال لعلي عليه السلام يوم هرب يزيد بن حُجية:

ابعثني يا أمير المؤمنين في اثره ارده اليك. فبلغ قوله يزيد بن حجية فقال في ذلك (٤ /٨٤ ـ٨٥):

(و) ابلــغ زيــاداً انــني قــد كفيتــه   امـــوري وخليـــت الـــذي لا أعاتبـــه
وبـــاب شـــديد موثـــق قـــد كفيتـــه   عليـك، وقـد اعيـت عليـك مذاهبـه
هبلـت امـا ترجـو غنـائي ومشـهدي   اذا الخصـم لم يوجـد لـه مـن يجاذبـه
فاقســـم لـــولا ان امـــك أمنـــا   وانـــك موســـى مـــا طفقـــت اعاتبـــه
واقســم لــو أدركــتني مــا رددتــني   كــلالاً قــد اصــطفت إليــه جلائبــه

وكتب إلى العراق شعراً يذم فيه علياً عليه السلام، فدعا عليه وقال لأصحابه عقب الصلاة:

ارفعوا أيديكم فأدعوا عليه.

فدعا عليه وأمَّنَ أصحابه، وكان دعاؤه عليه السلام عليه: ـ

"اللهم أن يزيد بن حُجية هرب بمال المسلمين ولحق بالقوم الفاسقين، فاكفنا مكره وكيده واجزه جزاء الظالمين ".

ورفع القوم أيديهم يؤمِّنون.

وكان في المسجد عفاف بن شرحبيل بن أبي رهم اليمني شيخاً كبيراً، فقال عفاف:

على من يدعو القوم؟

ولما أخبروه عنَّفهم فضربوه حتى كاد يهلك، فطلب زياد بن خصفة أن يتركوا له ابن عمه فأمرهم عليه السلام بتركه ومشى معه ومسح التراب عن وجهه وعفاف يقول:

والله لا أحبكم ما سعيت ومشيت، والله لاأحبكم ما أختلفت الدّرَّة الجرّة، وزياد يقول: -

ذلك أضرُّ لك، ذلك شرٌّ لك.

وقال زياد بن خصفة يذكر ضرب الناس عفافاً (٤/٨٥-٨٦):

دعوت عفافاً للهدى فأستغشني	وولى فرياً قوله وهو مغضب
ولولا دفاعي عن عفاف ومشهدي	هوى بعفاف - عَوضَ- عنقاء مغرب
أنبئه أن الهدى في أتباعنا	فيأبى، ويضر به المراء فيشغب
فان لا يشاعنا عفاف فأننا	على الحق ما غنى الحمام المطرِّب
سيغني الآله عن عفاف وسعيه	إذا بعثت للناس جوآة محرب
قبائل من حيّي معدٍ ومثلها	يمانية لاتثني حين تُندب
لهم عدد مثل التراب وطاعة	تود، ويأس في الوغى لا يؤنب

ومن كلام له عليه السلام كلم به الخوارج قوله (١٢٩/٤):

أصابكم حاصب، ولا بقي منكم أبر: أبعد أيماني بالله، وجهادي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم أشهد على نفسي بالكفر، لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين، فأؤبوا شر قاب، وأرجعوا على أثر الأعقاب. أما أنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً، وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنّة.

واعلم أن الخوارج على أمير المؤمنين صلى الله عليه وآله وسلَّم كانوا أصحابه وأنصاره في الجمل وصفين قبل التحكيم! وهذه المخاطبة لهم وهذا الدعاء عليهم، وهذه الأخبار عن حالهم، وقد وقع ذلك. . ولقد كان لهم من سيف المهلب بن أبي صفرة وبنيه الحتف القاضي، والموت الزؤام.

ونحن نذكر من أخبار الخوارج ها هنا طرفاً.

فمنهم نجدة بن عويمر الحنفي، وكان من رؤسائهم، وله مقالة مفردة من مقالة الخوارج. وله أتباع وأصحاب؛ واليهم أشار الصلتان العبدي بقوله (١٣٢/٤ـ١٣٣):

أرى أمـــــةً شــــــهرت ســـــــيفها ... وقـــد زيـــد في ســـوطها الأصـــبحي
بنجديـــــــــة أو صـــــــــرورية ... وأزرق يـــــــدعو إلى أزرقـــــــي
فملتنـــــا أننـــــا مســــــلمون ... علــــى ديـــن صـــديقنا والـــنبي
أشـــاب الصـــغير وأفتـــى الكـــبير ... مـــــرّ الغـــــداة وكـــــرُّ العشـــــي
إذا ليلـــــة أهرمـــــت يومهـــــا ... أتـــى بعـــد ذلـــك يـــوم فـــتي

نـــــــروح ونغـــــــدو لحاجتنـــــــا　　　وحاجـــــة مـــــن عـــــاش لا تنقضـــــي
تمـــــوت مـــــع المـــــرء حاجاتـــــه　　　وتبقـــــى لـــــه حاجـــــة مـــــا بقـــــي

وكان نجدة يصلي بحذاء عبد الله بن الزبير في جمعة في كل جمعة وعبد الله يطلب الخلافة فيمسكان عن القتال من أجل الحرم.

وقال الراعي يخاطب عبد الملك (١٣٣/٤):

أنـــــي حلفـــــت علـــــى يمـــــينٍ بـــــرةٍ　　　لا اكـــــذب اليـــــوم الخليفـــــة قـــــيلا
مـــــا أن أتيـــــت بمـــــا خبيـــــت وافـــــداً　　　يومـــــاً أريـــــد لبـــــيعتي تبـــــديلا
ولمـــــا أتيـــــت نجيـــــدة بـــــن عـــــويمرٍ　　　أبغـــــي الهـــــدى فيزيـــــدني تضـــــليلا
مـــــن نعمـــــة الـــــرحمن لا مـــــن حـــــيلتي　　　أنـــــي أعـــــد لـــــه علـــــيّ فضـــــولا

ولما حارب عثمان بن عبد الله بن مقمر الخوارج متحدياً أياهم ولم ياخذ بنصيحة حارثة بن بدر الغداني، وحاربهم عثمان الى أن غربت الشمس فاجلت الحرب عنه قتيلاً وانهزم الناس، وأخذ حارثة بن بدر الراية وصاح بالناس:

أنا حارثة بن بدر فثاب إليه قوم فعبر بهم دجيلاً، وبلغ قتل عثمان البصرة فقال شاعر من بني تميم (١٤٢/٤):

مضـى ابـن عبـيس صـابراً غـير عـاجزٍ　　　وأعقبنـــــا هـــــذا الحجـــــازي عثمـــــان
فارعـد مـن قبـل اللقـاء ابـن معمـرٍ　　　وابـــــرق، والـــــبرق اليمـــــاني خـــــوّان
فضـــــمّت قـــــريش غثّهـــــا وسمينهـــــا　　　وقيـــــل بنـــــو تـــــيم بـــــن مـــــّرة عُـــــزلان
فلـــــولا ابـــــن بـــــدر للعـــــراقين لم يقـــــم　　　بمـــــا قـــــام فيـــــه للعـــــراقين إنســـــان

إذا قيل من حامي الحقيقة؟ أومأت إليه معد بالأكف وقحطان

وكان حارثة بن بدر صاحب شراب معاقراً الخمرة فقال فيه رجل من قومه (١٤٣/٤):

ألم ترَ أن حارثة ابن بدرٍ يصلي وهو أكفر من حمار

ألم ترَ أن للفتيان حظاً وحظك في البغايا والعقار

وأن حارثة لما عقدوا له الحراسة، وسلموا إليه الراية، أمرهم بالثبات، وقال لهم:

إذا فتح الله لهم فللعرب زيادة فريضتين، وللموالي زيادة فريضة، وندب الناس فالتقوا وليس بأحد منهم قوة قد فشت فيهم الجراحات، وماتطأ الخيل الا على القتلى، فبينا هم كذلك، إذ أقبل جمع من الشراة من جهة اليمامة يقول المكثّر: أنهم مئتان، والمقلّل أنهم أربعون، فاجتمعوا وهم مريحون مع أصحابهم، فصاروا كوكبة واحدة فلما رآهم حارثة بن بدر ركض برايته منهزماً، وقال لأصحابه (١٤٣/٤-١٤٤):

وكربنوا ودولبوا أو حيث شئتم فأذهبوا

وقال: -

أير الحمار فريضة لعبيدكم والخصيتان فريضة الأعراب

ولما استطاع المهلب بن أبي صفرة أن يهزم الخوارج قال شاعر من أزد (١٤٦/٤):

أن العـــــراق وأهلـــــه لم يخـــــبروا　　　مثـــل المهلـــب في الحـــروب فســـلموا
أمضـــى وأيمـــن في اللقـــاء نقيبـــة　　　وأقـــل تهلـــيلاً إذا مـــا أحجمـــوا

وأبلى مع المغيرة - يؤميذ - عطية بن عمرو العنبري، من فرسان تميم وشجعانهم، ومن شعر عطية (١٤٦/٤):

يـــدعى رجـــال للعطـــاء وإنمـــا　　　يـــدعى عطيـــة للطعـــان الأجـــرد

وقال فيه شاعر من بني عطية (١٤٦/٤):

مـــا فـــارس إلا عطيـــة فوقـــه　　　إذا الحـرب أيـدت عـن نواجـذها الفمـا
بـــه هـــزم الله الأزارق بعـــدما　　　أبـاحوا مـن المصـرين حـلاً ومَحرمـا

وحمل رجل من الأزارق على رجل من أصحاب المهلب فقتله، فحمل عليه المهلب فطعنه فقتله، ومال الخوارج - بأجمعهم - على العسكر فأنهزم الناس وقتل منهم سبعون رجلاً، وثبت المهلب وأبنه المغيرة يومئذ، وعرف مكانه.

ويقال جال المهلب جولة، ويقول الأزد، بل كان يرد المنهزمة ويحمي أدبارهم، وبنو تميم تزعم أنه فر، وقال شاعرهم (١٤٩/٤):

بســـولافٍ أضـــعت دمـــاء قـــومي　　　وطـــــرت علـــــى مواشـــــكةٍ درور

وقال آخر من بني تميم (١٤٩/٤-١٥٠):

تبعنـــا الأعـــور الكـــذاب طوعـــاً　　　يزجـــي كـــل أربعـــة حمـــاراً
فيـــا نـــدمي علـــى تركـــي عطـــائي　　　معاينـــــة وأطلبـــــه ضـــــمارا
إذا الـــرحمن يسّـــر لـــي قفـــولاً　　　فخـــرَّق في قـــرى ســـولاف نـــارا

دعى المهلب بـ(الأعور الكذاب) لأصابة عينه بسهم، ولأنه كان يصطنع الأحاديث النبوية في صلاح الكذب في ثلاثة:

"الصلح بين رجلين، ورجل يرضي أمرأته، والحرب أنها خدعة ".

وفيه يقول رجل من الأزد (٤/١٥٠):

أنت الفتى كل الفتى   لو كنت تصدق ما يقول

وأن المهلب بن أبي صغرة عندما عبر دخيلاً وصار الى عاقول لا يؤتى إلا من حهة واحدة فأقام به، وأقام الناس ثلاثة مستريحين. وفي عاقول وسولاف يقول ابن الرقيات (٤/١٥١):

ألا طرقت من آل مية طارق   على أنها معشوقة الدل عاشقة

تراءت وأرض السوس بيني وبينها   ورستاق سولاف حمته الأزارقة

أجازت علينا العسكرين كليهما   فباتت لنا دون اللحاف معانقة

فأقام المهلب في ذلك العاقول ثلاثة أيام ثم أرتحل، والخوارج بسلي وسِلّبَري فنزل قريباً منهم.

وبعد قتال شرس في اليوم الثالث حتى الليل ولما أصبحوا غدوا على القتلى؛ فأصابوا ابن المحاوز قتيلاً (أحد قادة ابن المهلب)، ففي ذلك يقول رجل من الخوارج (٤/١٥٣-١٥٤):

بسلّي وسَلّبِّري جماجم فتية   كرام وعقرى من كميت ومن ورد

وقال آخر (٤/١٥٤):

بسلّي وسَلّبِّري جماجم فتية كرام وصرعى لم توسد خدودها

وقال رجل من موالي المهلب: -

لقد صرعت يومئذ بحجرٍ واحدٍ ثلاثة رميت به رجلاً فصرعته ثم رميت به رجلاً فأصبت به إذنه فصرعته، ثم أخذت الحجر وصرعت به ثالثاً؛ وفي ذلك يقول، رجل من الخوارج (١٥٤/٤):

أتانا باحجار ليقتلنا بها وهل يقتل الأبطال- ويحك- بالحجر

وقال رجل من أصحاب المهلب في يوم سلّي سلّبري وقتل ابن المحاوز (١٥٤/٤):

ويوم سلّي وسَلّبرَّي أحاط بهم منا صواعق لاتبقي ولا تذر

حتى تركنا عبيد الله منجدلاً كما تجدّل جذع مال منقعر

ويروى أن رجلاً من الخوارج يوم سلّي حمل على رجل من أصحاب المهلب؛ فطعنه، فلما خالطه الرمح صاح: -

يا أمتاه.

فصاح به المهلب:

لا كثر الله منك في المسلمين!

فضحك الخارجي وقال (١٥٤/٤):

أُمك خير لك مني صاحبا تسقيك محضاً وتعل رائبا

وقال رجل من الخوارج في هذا اليوم (١٥٥/٤):

فـان تـك قتلـى يـوم سـلّي تتابعـت   فكـم غـادرت أسـيافنا مـن قمـاقم
غـداة نكـر المشـرفية فـيهم   بسـولاف يـوم المـأزق المـتلاطم

وقال رجل من بني يربوع (٤/١٥٧):

سـقى اللّه المهلـب كـل غيـث   مـن الـوسمي ينتحـر أنتحـارا
فمـا وهـن المهلـب يـوم جـاءت   عـوابس خيلـهم تبغـي الغـوارا

وقال رجل من أصحاب المهلب من بني تميم (٤/١٥٧-١٥٨):

ألا يـا مـن لصـلب مسـتهامٍ   مـريح القلـب قـد مـلَّ المزونـا
لهـان علـى المهلـب مـا لقينـا   إذا مـا راح مسـروراً بطينـا
يمـر السـابريُّ ونحـن شـعثٌ   كـأن جلودنـا كُسـيت طحينـا

وفي إحدى المعارك قاتل عمر بن عبيد بن مَعمر والي فارس في عهد المهلب فهزمهم وفلق جبين زعيمهم قطري بن الفجاءة وبينما هم ينهزمون مرَّ بهم الغرز بن يهزم العبدي، فسألوه عن خبره وأرادوا قتله فأقبل على قطري وقال: -

أني مؤمن مهاجر.

فسأله عن أقاويلهم، فأجابه إليها. فخلا عنه، ففي ذلك يقول في كلمة له (٤/١٦١):

فشـدو وثـاقي ثـم الجـوا خصـومتي   إلى القطـري ذي الجـبين المفلّـق
فحـاججتهم في ديـنهم فحجـتهم   ومـا ديـنهم غـير الهـوى والتخلـق

ثم رجعوا وتكاتفوا، فسار إليهم عمر بن عبيد الله ومعه عطية بن عمرو،

ومجاعة بن سعر فالتقوا فألح عليهم عمر حتى أخرجهم، وصار يضربهم بعود في يده فركض إليه قطري في فرس طِمر وعمر على مهر فأستعلاه قطري بقوة فرسه حتى كاد يصرعه فبصر به مجاعة فأسرع إليه، فصاحت الخوارج : -

يا ابا ثمامة، أن عدو الله قد رهقك فأنحط قطر على فرسه (سرجه) وطعنه مجاعة وعلى قطري درعان فهتكهما وأسرع السنان في رأس قطري فكشط جلده ونجا.

فقال يزيد بن الحكم لمجاعة (١٦٢/٤) :

ودعاك دعوة مرهق فأجيته عُمَرٌ وقد نسي الحياة وضاعا
فرردت عادية الكتيبة عن فتى قد كاد يترك لحمه أوزاعا

وبعد مقتل يزيد بن رويم وزوجته (لطيفة) على أيدي الخوارج قال الشاعر (١٦٠/٤):

مواقفنا في كل يوم كريهة أسر وأشفى من مواقف حوشب
دعاه أبوه والرماح شوارع فلم يستجب بل راغ تروواغ ثعلب
فلو كان شهم النفس أو ذا حفيظة رأى مارأى في الموت عيسى بن مصعب

وقال آخر (١٦٥/٤) :

نجّى حليلته وأسلم شيخه نصب الأسنة حوشب بن يزيد

وقال قائل يذكر أحدى المعارك مع الخوارج :

ويوم بجيٍّ تلاقيته ولولاك لا صطلم العسكر

وقال آخر (٤/١٦٦-١٦٧):

خرجت من المدينة مستميتاً ولم اك في كتيبة ياسمينا

أليس من الفضائل أن قومي غدوا مستلئمين مجاهدينا

وياسمين جارية للزبير نصب لواءاً لها وقال:

من أراد فليلحق بلواء ياسمين، ومن أراد الجهاد فليخرج معي وكان رجل من أصحاب عتّاب يقال له شريح، ويكنى أبا هريرة، إذا تحاجز القوم مع المساء نادى بالخوارج والزبير بن علي (٤/١٦٧):

يا ابن أبي الماحوز والأشرار كيف ترون يا كلاب النار

شدَّ أبي هريرة الهرار يهركم بالليل والنهار

ألم تروا جيّاً على الضمار تمسي من الرحمن في جوار

وفي المعركة في الأحواز حارب المهلب الخوارج فدفعهم إلى رام هرمز؛ وكان الحارث بن عميرة الهمداني قد صار إلى المهلب مراغماً لعتاب بن ورقاء، ويقال: أنه لم يرضه عن قتله الزبير بن علي، وكان الحارث بن عميرة هو الذي قتله وخاض إليه أصحابه، ففي ذلك يقول أعشى همدان:

ان المكارم أكملت أسبابها لأبن الليوث الغرَّ من همدان

للفارس الحامي الحقيقة معلماً زاد الرفاق وفارس الفرسان

حتى تداركهم أعز سميدعٍ فحماهم إن الكريم يماني

الحارث بن عميرة الليث الذي يحمي العراق إلى قرى نجران

ومن الخوارج كانت امراة مع قطري بن الفجاة يقال لها أم حكيم وكانت من أشجع الناس وأجملهم وجهاً، وأحسنهم بالدين تمسكاً، وخطبها جماعة منهم فردهم ولم يجبهم، فأخبر من شاهدها في الحرب أنها كانت تحمل على الناس وترتجز، فتقول (٤/١٧٠-١٧١):

أحمل رأساً قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني ثقله

والخوارج يعدونها بالآباء والأمهات.

وفي إحدى معارك الخوارج نودي على السبي يومئذ فغُولِيَ بأم حفص فبلغ بها رجل سبعين ألفاً، وكان ذلك الرجل من مجوس كانوا اسلموا، ولحقوا بالخوارج، ففرض لكل رجل منهم خمس مائة، فكاد ذلك الرجل يأخذ أم حفص، فشق ذلك على قطري بن الفجأة، وقال: -

ما ينبغي لرجل مسلم أن يكون عنده سبعون الفاً، أن هذه لفتنة فوثب عليها أبو الحديد العبدي فقتلها، فأُتي به قطري، فبارك عمله فقال رجل من الخوارج (٤/١٧٥):

كفانا فتنة عظمت وجلت بحمد الله سيف أبي الحديد

أهاب المسلمون بها وقالوا على فرط الهوى هل من مزيد

فزاد أبو الحديد بنصل سيف رقيق الحد فعل فتىً رشيد

وكان العلاء بن مطرف السعدي بن عمر القنا، وكان يحب أن يلقاه في صدر

مبارزة فلحقه عمرو القنا يومئذ؛ وهو منهزم، فضحك منه وقال متمثلاً (١٧٥/٤):

تمنـــــاني ليلقـــــاني لقـــــيط اعـــام لـــك ابـــن صعصـعة بـــن سـعد

ثم صاح به:

انجُ يا ابا المصدى.

وهي كنية عمرو القنا، وكان عمرو القنا قد حمل معه امرأتين إحداهما من بني جنّية، يقال لها أم جميل، والأخرى بنت عمه، يقال لها فلانة بنت عقيل فطلق الضبية، وحملها أولاً، وتخلص بابنة عمه، فقال في ذلك (١٧٦/٤):

الســت كريمـــاً إذ أقـــول لقيـــتني قفـــوا فاحملوهـــا قبـــل بنـــت عقيـــل

ولـو لم يكـن عـودي نضـاراً لأصـبحت تجـــر علـــى المتـــنين ام جميـــل

ولما هُزم عبد العزيز بن عبد الله أسيد أمام جيش الخوارج جاء حبيب بن المهلب الى أخيه خالد (وكان أميراً على البصرة) فأخبره فغضب ولم يصدقه فأستتر حبيب في بني عامر بن صعصعة، وتزوج هناك في أستتاره الهلالية وهي أم أبنة عباد بن حبيب، وقال الشاعر يخطِّئ رأيه (١٧٧/٤):

بعثـــت غلامـــاً مـــن قـــريش فَروقـــةً وتـــترك ذا الـــرأي الأصـــيل المهلبـــا

أبـــى الـــذم وأختـــار الوفـــاء وأحكمـــت قـــواه، وقـــد ســـاس الأمـــور وجربـــا

وقال الحارث بن خالد المخزومي (١٧٧/٤):

مـــر عبـــد العزيـــز إذ راءَ عيســـى وابـــــن داود نـــــازلاً قطريّـــــا

عاهـــد اللّه أن نجـــا ملمنايـــا ليعـــــودن بعــــــدها حرميّـــــا
يســـكن الخـــل والصـــفاح فغوريـــا مـــــراراً ومـــــرة نجـــــديا
حيـــث لا يشـــهدوا القتـــال يســـمع يومـــــاً لكســـــر خيــــل دويـــــاً

وفي معركة بين الخوارج بقيادة قطري بن الفجأة وبين المهلب بن أبي صفرة في مدينة كازرون، وهي من أخصب مدن سابور، قال النعمان بن عقبة (١٨٥/٤):

ليـث الحواضـن في الخـدور شـهدننا فيريـــن مـــن وغـــل الكتيبـــة أوّلا
وقـــروا وكنـــا في الوقـــار كمثلـــهم إذ لـــيس تســـمع غـــير قـــدِّم أو هـــلا
رعـــدوا فأبرقنـــا لهـــم بســـيوفنا ضـــرباً تـــرى منـــه الســـواعد تخـــتلا
تركـــوا الجمـــاجم والرمـــاح تحيلـــها في كـــازرون كمـــا تحيـــل الحـــنظلا

بعد تلك المعركة اختار الخوارج لهم رئيساً يـدعى صـالح بـن مخراق أعـدهم للبيات. فلما انتصف الليل وكان المهلب قد بعث ابنه المغيرة يستطلع أمـرهم رجـع المغيرة إلى أبيه فسرى صالح بن المخـراق في القـوم الـذين كـان أعـدهم للبيـات إلى ناحية بني تميم وعليهم الحريش بن هلال، وهو يقول (١٨٧/٤):

أنـــــي لمـــــذكٍ للشـــــراة نارهـــــا ومـــــانع ممـــــا أتاهـــــا دارهـــــا
وغاســـــل بالســـــيف عنهـــــا عارهـــــا

فوجد بني تميم أيقاظاً متحارسين، وخرج اليهم الحريش بن هلال وهو يقول (١٨٨/٤):

وجـــــدتمونا وقـــــراً انجـــــادا لاكشّـــــفاً مـــــيلاً ولا أوغـــــادا

هيهـــــات لا تلفوننــــا رقــــادا   لا بـــل إذا صـــيح بنـــا أســـيادا

ومن إفرازات هذه الحرب أن أبا حرملة العبدي – وهو من عسكر المهلب – قال يوماً يهجو المهلب (١٩٠/٤):

عـــدمتك يـــا مهلـــب مـــن أمـــير   أمـــا تنـــدى يمينـــك للفقـــير؟

بـــدولاب أضـــعت دمـــاء قـــومي   وطـــرت علـــى مواشـــكة درور

فقال له المهلب:

ويحك! والله أني لاقيكم بنفسي وولدي.

قال: –

جعلني الله فداء الأمير! فذاك الذي نكرهه منك، ما كلنا يحب الموت.

قال: –

ويحك! وهل عنه من محيص؟

قال:

لا، ولكننا نكره التعجيل؛ وأنت تقدم عليه أقداماً.

قال المهلب:

ويلك! أما سمعت قول العلجة اليربوعي (١٩٠/٤):

ونـادى منـادي الحـي أن قـد أتيـتم   وقـــد شـــربت مـــاء المـــزادة أجمعـــا

فقلـــت لكـــأسٍ الجميهـــا فأنمـــا   نزلنـــا الكثيـــب مـــن زرود لنفزعـــا

فقال:

بلى وقد سمعت، ولكن قولي أحب الي منه:

ولمـــا وقفـــتم غـــدوة وعـــدوكم الى مهجـتي وليـت أعـداءكم ظهـري
وطـرت ولم أحفـل ملامـة جاهـل يسـاقي المنايـا بالردينيـة السـمر

فقال المهلب:

- بئس حشو الكتيبة أنت، والله يا أبا حرملة، أن شئت إذنت لك فانصرفت إلى أهلك.

قال:

بل أقيم معك أيها الأمير.

فوهب له المهلب وأعطاه، فقال يمدحه (١٩١/٤):

يـرى حتمـاً عليـه أبـو سـعيدٍ جـلاد القـوم في أولى الـنفير
إذا نـادى الشـراة أبـا سـعيد مشـى في رفـل محكمـة القـتير

كانت ركب الناس قديماً من الخشب ...فأمر المهلب بضرب الركب من الحديد: - فهو أول من أمر بضربها وفي ذلك يقول عمران بن عصام الغزي (١٩٤/٤):

ضـربوا الـدراهم في إمـارتهم وضـربت للحـدثان والحـرب
حَلَقَـاً تـرى منهـا مـرافقهم كمراكـب لجمالـة الجـرب

وجه الحجاج إلى المهلب رجلين يستحثانه لمناجزة القوم، وهما زياد بن عبد الرحمن، من بني عامر بن صعصعة، والآخر من آل عقيل من رهط الحجاج، فظم

المهلب زياداً الى أبنه حبيب، وضم الثقفي الى إبنه يزيد ، وأوصاهما بمفاداة الخوارج، وبعد قتال شديد قتل زياد بن عبد الرحمن، وفقد الثقفي، وفي اليوم الثاني قد وجد الثقفي فدعاه المهلب، ودعا بالغداء فجعل النبل يقع قريباً منهم ويتجاوزهم، والثقفي بعجب من أمر المهلب، فقال الصلتان العبدي (١٩٥/٤) :

ألا يا أصبحاني قبل عوق العوائق وقبل اخـتراط القوم مثل العقائق

غداة حبيب في الحديد يقودنا يخوض المنايا في ظلال الخوافق

حرون إذا ما الحرب طار شرارها وهاج عجاج النقع فوق المفارق

فمن مبلغ الحجاج أن أمينة زياد أطاحته رماح الأزارق

كان الحجاج قد رزق أهل البصرة دون أهل الكوفة فقال له عتاب وقد طلبه الحجاج :

ما أنا ببارح حتى ترزق أهل الكوفة.

فرفض المهلب، فتلاسنا وكادت أن تنشب حرب بينهما لولا المغيرة الذي مشى بين أبيه وبين عتاب وقال لعتاب : –

يا أبا ورقاء إن الأمير يصير إلى كل ما تحب.

وسال أباه أن يرزق أهل الكوفة ففعل فصلح الأمر : – فقال رجل من الأزد من بني أياد بن الأسود (١٩٦/٤) :

ألا أبلغ أبا ورقاء عنا فلولا أننا كنا غضابا

على الشيخ المهلب إذ جفانا للاقت خيلكم منا خرابا

وخرج عمرو بن القنا – وهو من بني سعد بن زيد مناة بن تميم فنادى على جيش الخوارج.

يا أيها المحلّون هل لكم في الطرد، فقد طال عهدي به، ثم قال (١٩٨/٤):

ألم تـرَ إنـا مـذ ثلاثـين ليلـة　　　جـديب وأعـداء الكتـاب علـى خفـض

فالتحم القوم وصرع المغيرة، وكان الذي صرعه عبيدة بن هلال بن يشكر بن بكر بن وائل، وكان يقول يومئذ (١٩٨/٤):

أنـا ابـن خـير قـوم هـلال　　　شـيخ علـى ديـن أبـي بـلال

وذاك ديـني آخـر الليـالي

وبعد أن غار صالح بن مخراق (الخارجي) على السرح شق على المهلب فطلب من أولاده ان يأخذوا الطريق عليهم، فبادر بشر بن المغيرة، ومدرك والمفضل أبنا المهلب؛ فسبق بشر الى الطريق، فإذا رجل أسود من الأزارقة يشل السرح وهو يقول (١٩٩/٤):

نحـن قمعنـاكم بشـل السـرح　　　وقـد نكأنـا القـرح بعـد القـرح

فتناخوا عليه وأستردوا السرح منه بعد أن قتلوه.

وأبلى يومئذ ابن المنجب السدوسي، فقال غلام له يقال له حلاج:

والله لوددنا أن فضضنا عسكرهم حتى نصير إلى مستقرهم، فأستلب مما هناك جاريتين.

فقال له مولاه ابن المنجب:

وكيف تمنيت، ويحك، أثنتين؟

فقال:

لأعطيك أحداهما وآخذ الأخرى.

فقال ابن المنجب (٤/٢٠٠):

حـــلاج أنـــك لـــن تعـــانق طفلـــة　　　شَـــرِقاً بهـــا الجـــاديُّ كالتمثـــال

حتـــى تلاقـــي في الكتيبـــة مُعلِمـــاً　　　عمـــرو القنـــا وعبيـــدة بـــن هـــلال

وتـــرى المقطـــر في الفـــوارس مقـــدماً　　　في عصـــبة نشـــطوا علـــى الضُـــلاّل

أو أن يعلّمـــــك المهلـــــب غـــــزوةً　　　وتـــرى جبـــالاً قـــد دنـــت لجبـــال

وكان بدر بن الهذيل، من أصحاب المهلب شجاعاً، وكان لحّانة؛ كان إذا أحس بالخوارج ينادي: -

يا خيل الله اركبي؛ واليه يشير القائل (٤/٢٠١):

وإذا طلبـــت إلى المهلـــب حاجـــةً　　　عرضـــت توابـــع دونـــه وعبيـــد

العبـــد كُـــردُس وبـــدرٌ مثلـــه　　　وعـــلاج بـــاب الآخـــرين شـــديد

وولى الحجاج كُردُساً فارسا، ووجهه إليها والحرب قائمة، فقال رجل من أصحاب المهلب (٤/٢٠١):

(و) لـــو رآه كـــردم لكردمـــاً　　　كردمـــة العـــير أحـــس الضـــيغما

كان المغيرة بن المهلب والرقاد يجبان ولا يعطيان الجند شيئاً، ففي ذلك يقول رجل من بني تميم في كلمة له (٤/٢٠٢):

ولو علم ابن يوسف ما تلاقي ... من الآفات والكُرَب الشداد
لفاضت عينه جزعاً علينا ... واصلح ما أستطاع من الفساد
ألا قل للأمير جزيت خيراً ... أرحنا من مغيرة والرقاد
فما رزق الجنود بهم قفيزاً ... وقد ساست مطامير الحصاد

ومن الخوارج: عبد ربه الصغير، أحد موالي قيس بن ثعلبة ولما أختلف الخوارج على قطري بايعه جمع منهم كثير، وكان قطري قد عزم على أن يبايع للمقمطر العبدي، فأختلف الخوارج فيما بينهم، فصال بن مخراق وجماعة كرهوا أن يحل المقمطر العبدي محل قطري بن الفجاءة في الخلافة، وقطري يريد ذلك، فخلعه جماعة وبايعوا عبد ربه الصغير، وهو معلم كَتّاب، فنشبت الحرب بينهم؛ فقال الصلت بن مرّة القطري: -

يا أمير المؤمنين إن كنت إنما تريد الله فأقدم على القوم، وإن كنت إنما تريد الدنيا فأعلم أصحابك حتى يستأمنوا، ثم قال (٤/٢٠٥):

قل للمُحلِّين قد قرت عيونكم ... بفرقة القوم والبغضاء والهرب
كنا أناساً على دين فغيرنا ... طول الجدال وخلط الجد باللعب
ما كان أغنى رجالاً قلَّ جيشهم ... عن الجدال وأغناهم عن الخطب
أني لأهونكم في الأرض مضطرباً ... ما لي سوى فرسي والرمح من نشب

ثم قال: أصبح المهلب يرجو منا ما كنا نطمع فيه.

وارتحل القطري إلى منزل آخر ونزل المهلب خندق قطري فجعل يقال عبد

ربه أحياناً بالغداة وأحياناً بالعشي، فقال رجل من سدوس يقال له المعتق وكان فارساً (٢٠٦/٤):

ليث الحرائر بالعراق شهدننا ورأيننا بالسفح بالأجبال
فنكحت أهل الجد من فرساننا والضاربين جماجم الأبطال

وسقط رمح لرجل من مراد، من الخوارج، فقاتلوا عليه حتى كثر الجراح والقتل؛ وذلك مع المغرب، والمرادي يرتجز، ويقول (٢٠٨/٤):

الليل ليل فيه ويلٌ ويلُ قد سال بالقوم الشراة السيلُ
أن جاز في الأعداء فينا قول

وقال المهلب لحبيب بن أوس:

كُر على القوم.

فلم يفعل، وقال (٢٠٩/٤):

يقول لي الأمير بغير علم تقدم حين جد به المراس
فمالي إن أطعتك من حياة ومالي غير هذا الرأس راس

وقال لمعن بن المغيرة بن أبي صفرة:

إحمل.

فقال:

لا، إلا أن تزوجني ابنتك أم مالك.

فقال:

زوجتك.

فحمل على الخوارج فكشفهم، وطعن فيهم وقال (٤/٢٠٩-٢١٠):

ليت من يشتر الحياة بمالٍ ... ملكة كان عنده ميزانا

يضل الكل عند ذاك بطعنٍ ... أن للموت عندنا ألوانا

ثم جال الناس جولة عند حملة حملها عليهم الخوارج، فالتفت المهلب فقال للمغيرة أبنه:

ما فعل الأمين الذي كان معك؟

قال:

قتل وهرب الثقفي.

فقال ليزيد:

ما فعل عبيد بن أبي ربيعة؟

قال:

لم أره منذ كانت الجولة.

فقال الأمين الآخر للمغيرة:

أنت قتلت صاحبي.

فلما رجع العشي رجع الثقفي، فقال رجل من بني عامر بن صعصعة (٤/٢١٠):

مـا زلـت يـا ثقفـي تخطـب بيننـا وتغمنــا بوصــية الحجــاج

حتـى إذا مـا المـوت أقبـل زاخـراً وسـقى لنـا صـرفاً بغـير مـزاج

وليـت يـا ثقفـي غـير منـاظر تنسـاب بـين أحـزة وفجـاج

ليسـت مقارعـة الكمـاة لـدى الـوغى شـرب المدامـة في أنـاء زجـاج

ولما أصبح المهلب أشرف على وادٍ فإذا هو برجلٍ معه رمح مكسور مخضوب بالدم ينشد (٤/٢١٠ـ٢١١):

وأنـي لأعفـي ذا الخمـار وصـنعتي إذا راح اطـواءً بـني الأصـاغر

أخـادعهم عنـه ليغبـق دونهـم واعلـم غـير الظـن أنـي مغـادر

كـأني وأبـدان السـلاح عشـية يمـر بنـا في بطـن فيحـان طـائر

ووجه كعب بن معدان الأشقري ومرّة بن بليد الأزدي فوردا على الحجاج، فلما طلعا عليه، تقدم كعب فانشد (٤/٢١٣ـ٢١٤):

يـا حفـص أنـي عـداني عـنكم السـفر وقـد أرقـت فـآذى عـيني السـهر

علّقـت يـا كعـب بعـد الشـيب غانيـة والشـيب فيـه عـن الأهـواء مزدجـر

أممسـك أنـت عنهـا بالـذي عهـدت أم حبلـها مـذ ناتـك اليـوم منـبتر

علقـت خـوداً بـأعلى الطـف منزلهـا في غرفـة دونهـا الأبـواب والحجـر

دُرهـاً مناكبهـا ريـاً مآكُمهـا تكـاد إذ نهضـت للمشـي تنـبتر

وقـد تركـت بشـط الـزابيين لهـا داراً بهـا تَسـعَد البـادون والحضـر

وأفـتر داراً بهـا حـيٌّ أُسـربهم مـازال فـيهم لمـن تختـارهم خِـير

لمـا نبـت بـي بـلادي صـرت منتجعـاً ... وطالـــب الخـــير مرتـــاد ومنتظـــر
أبـــا ســـعيد فـــأني جئـــت منتجعـــاً ... أرجـــو نوالـــك لمـــا مســـني الضـــرر
لـــولا المهلـــب مـــا زرنـــا بلادهـــم ... مـــا دامـــت الأرض فيهـــا المـــاء والشـــجر
فمـــا مـــن النـــاس مـــن حـــي علمـــتهم ... إلا يـــرى فـــيهم مـــن ســـيبهم أثـــر
كنّـــا نهـــون قبـــل اليـــوم شـــانهم ... حتـــى تفـــاقم أمـــر كـــان يُحتقـــر
فمـــا يجـــاوز بـــاب الجســـر مـــن أحـــد ... قد عضت الحرب أهل المصر فانجمروا
لمـــا وهنـــا وقـــد حلـــوا بســـاحتنا ... فأســـتنفر النـــاس ثـــارات فمـــا نفـــر
نـــادى أمـــرؤ لا خـــلاف في عشـــيرته ... عنـــه ولـــيس بـــه عـــن مثلـــه قِصَـــر
خبّـــوا كميـــنهم بالســـفح إذ نزلـــوا ... بكـــازرون فمـــا عـــزوا ولا نصـــروا
بانـــت كتائبنـــا تـــردي مســـوّمةً ... حـــول المهلـــب حتـــى نـــوّر القمـــر
هنـــاك ولـــوا خزايـــا بعـــدما هزمـــوا ... وحـــال دونهـــم الأنهـــار والجـــدر
تـــأبى علينـــا حـــزازات النفـــوس فمـــا ... نبقـــي علـــيهم ولا يبقـــون أن قـــدروا

فضحك الحجاج، وقال:

انك لمنصف يا كعب.

وأمر له بعشرين ألف درهم وحمله على فرس، وأوفده على عبد الملك فامر له بعشرين الفاً اخرى .

وكعب الاشقري من شعراء المهلب ومادحيه، ومما مدحه هذه القصيدة (٤/٢١٦):

طربـــت وهـــاج لـــي ذاك ادكـــارا بكــشٍّ وقــد اطلــت بــه الحصــارا
وكنــت الــذ بعــض العــيش حتــى كــبرت وصــار لــي همــي شــعارا
رأيــت الفانيــات كــرهن وصــلي وابــدين الصــريحة لــي جهــارا
غرضــن بمجلســي وكــرهن وصــلي أوانَ كُسِــيتُ مــن شــحطٍ عــذارا
زريــن علــيَّ حــين بــدا مشــيي وصــارت ســاحتي للــهم دارا
أتــاني والحــديث لــه نمــاءٌ مقالــة جــائر احفــى وجــارا
ســلوااهل الابــاطح مــن قــريش عــن المجــد المؤثــل ايــن صــارا
ومــن يحمــي الثغــور اذا اســتحّرت حــروب لا ينــون لهــا غــرارا
لقــوم الازد في الغمــرات أمضــى وآخــى ذمــة واعــز حــارا
هــم قــادوا الجيــاد علــى وجاهــا مــن الانصــار يقــذفن المهــارا
بكــل مفــازة وبكــل شــهب بســابس لايــرون لهــا منــارا
الى كرمــان يحملــن المنايــا بكــل ثنيــة يوقــدن نــارا
شــوازب مــا اصــبنا النــار حتــى رددنــا هــا مكلمــة مــرارا
ويشــجرن العــوالي الســمر حتــى تــرى فيهــا عــن الاســل ازورارا
غــداة تــركن مصــرع عبــد رب نثــرن عليــه مــن رهــج غبــارا
ويــوم الزحــف بــالاهواز ظلنــا نــرويّ مــنهم الاســل الحــرارا
فقــرت أعــين كانــت حزينــاً قلــيلاً نومهــا الاَّ غــرارا
صــنائعنا الســوابغ والمــذاكي ومــن بالمصــر يحتلــب العشــارا

وهـــن يـــبجن كـــل صـــحىً عزيـــز ... ويحمــــين الحقـــائق والـــذمارا
طـــــوالات المنـــــون بضـــــن الا ... اذا ســـار المهلـــب حيـــث ســـارا
ولـــولا الشـــيخ بالمصـــرين ينفـــي ... عـــدوهم لقـــد نزلـــوا الـــديارا
ولكـــــن قـــــارع الابطـــــال حتـــــى ... اصـــابوا الامـــن واحتلـــوا القـــرارا
اذا وهنـــوا وحـــل بهـــم عظـــيم ... بـــدق العظـــم كـــان لهـــم جبـــارا
ومبهمـــــة يحيـــــد النـــــاس عنهـــــا ... تشـــب المـــوت شـــد لهـــا ازارا
شـــهاب تنجلـــي الظلمـــاء عنـــه ... يـــرى في كـــل مظلمـــة منـــارا
بنـــوك الســـابقون الى المعـــالي ... اذا مـــا أعظـــم النـــاس الخطـــارا
كـــأنهم نجـــوم حـــول بـــدرٍ ... تكمـــــل اذ تكمـــــل فاســـــتدارا
ملـــوك ينزلـــون بكـــل ثغـــرٍ ... اذامـــا الهـــام يـــوم الـــروع طـــارا
رزان في الخطـــوب تـــرى علـــيهم ... مـــن الشـــيخ الشـــمائل والنجـــار ا
نجـــوم يهتـــدى بهـــم إذامـــا ... اخـــو الغمـــرات في الظلمـــاء حـــارا
بـــراك اللّه حيـــث بـــراك بحـــراً ... وفجـــرّ منـــك انهـــاراً غـــزارا

كتب الحجاج الى المهب يأمره بمناجزة الخوارج، وسيتبطئه ويضعفه ويعجزه من تأخيره امرهم، فاجابه المهلب بوساطة رسوله:

انما البلاء ان يكون الامر لمن يملكه لالمن يعرفه، ثم طلب منه ان يبعث من يرى مكانه، واخبر عبد الملك بذلك فكتب الى الحجاج ان لايعارض المهلب فيما يراه.

فقام كعب الاشعري الى المهلب، فانشده بمحضر رسول الحجاج (٤ / ٢١٩ _٢٢٠):

ان ابـن يوسـف غـره مـن امـركم   خفـض المقـام بجانـب الانصـار
لـو شـاهد الصـفين حيـث تلاقيـا   ضـاقت عليـه رحيبـة الاقطـار
مـن ارض سـابوا والجنـود وخيلنـا   مثـل القـداح بريشهـا يشـتار
مـن كـل صـنديد يـرى بلبانـه   وقـع الضباة مـع القنـا الخطـار (٧٥)
لـرأى معـاودة الريـاح غنيمـة   ازمـان كـان محـالف الاقتـار
فـدع الحـروب لشـيبها وشـبابها   وعليـك كـل غريـدة معطـار

بعد ان انتصر المهلب على الخوارج وكتب بـذلك الى الحجـاج، قـدم المهلـب على الحجاج فأجلسه الى جانبه، وأظهر بره وأكرمه، وقال:

- يا أهل العراق. انتم عبيد قِن للمهلب.

ثم قال: انت والله كما قال لقبط (٤/٢٢٢):

فقلـدوا امـركم لله دركـم   رحـب الـذراع بـامر الحـرب مضـطلعا
لايطعـم النـوم الاريـث يبعثـه   هـم يكـاد حشـاه يقصـم الضـلعا
لامترفـان رخـاء العـيس سـاعده   ولا اذا عـض مكـروه بـه خشـعا
مـازال يحلـب هـذا الـدهر اشـطُرَه   يكـون متَّبِعـا طـوراً ومتّسـعَا
حتـى استمرت علـى شـزر مريرتـه   مسـتحكم الـرأي لاقحمـاً ولاضـرعا

وطلب الحجاج ان يذكر له القوم الذين ابلوا فذكرهم المهلب على مراتبهم

في البلاء وتفاضلهم في الفناء، وقدم بنيه، وقال: والله لو واحد قدمهم في البلاء لقدمته عليهم، ولو لا ان اظلمهم لاخرهم. ثم ذكر معن بن المغيرة والرقّاد واشباههما. فامر الحجاج بتفضيل قوم على قوم على قدر بلائهم. وزاد ولد المهلب الفين الفين. وفعل بالرقّاد وبجماعة شبيهاً بذلك. وقال يزيد بن صبغاء من الازارقة (٤ /٢٢٣ ـ٢٢٤):

دعي اللوم ان العيس ليس بدائم — ولاتعجلي باللوم ياأم عاصم
فان عجلت منك الملامة فاسمعي — مقالة معني بحقك عالم
ولاتفدلينا في الهدية إنما — تكون الهدايا من فضول المغانم
وليس بمُهدٍ من يكون نهاره — جلاداً ويمسي ليله غير نائم
يريد ثواب الله يوماً بطعنةٍ — غموس كشدم العنبري بن سالم
ابيت وسربالي دلاص حصينة — ومفقرها والسيف فوق الحيازم
حلفت برب الواقفين عشية — لدى عرفاتٍ حلفة غير آثم
لقد كان في القوم الذين لقيتهم — بابور شغل عن بروز اللطائم
فتوقد في ايديهمُ زاغبية — ومرهفة تفري شؤون الجماجم

وقال المغيرة الحنظلي من اصحاب المهلب (٤ /٢٢٤):

إني امرؤٌ كفَّني ربي واكرمني — عن الامور التي في غبها وخمُ
وإنما انا انسان اعيش كما — عاشت رجال وعاشت قبلها أممُ
ما عاقني عن قفول الجند ان قفلوا — عيٌّ بما صنعوا حولي ولاصممُ

ولــــو اردت قفـــولاً مــــا تجهّمـــــني | اذن الامـــــير ولا الكتــــاب اذ رقمــــوا
ان ان المهلـــــب ان اشــــتق لرؤيتـــــه | اوامتدحـــه فـــان النـــاس قـــد علمـــوا
والقائـــــل الفاعـــــل الميمـــــون طــــائره | ابـــو ســـعيد اذا مـــا عُـــدَّت الـــنعم
االزمــان كرمــان اذ غـص الحديـد بهـم | وإذ تمنـــــى رجــــال انهـــم هزمـــوا

وقال حبيب بن عوف من قواد المهلب (٤ /٢٢٥):

ابـــا ســـعيد جـــزاك اللّه صـــالحةً | فقــد كفيــت ولم تعنــف علــى أحــد
داويـت بـالحلم اهـل الجهـل فـانقمعوا | وكنـــت كالوالــد الحــاني علــى ولــد

وقال عبيدة بن هلال الخارجي يذكر رجلاً من اصحابه (٤/ ٢٢٥):

يهــــوى فترفعـــــه الرمــــاح كأنــــه | شــــلو تنشــــب في مخالـــب ضـــار
يهــــوى صــــريعاً والرمـــاح تنوشـــه | ان الشـــــراة قصـــــيرة الاعمــــــار

ومن الخوارج شبيب بن يزيد الشيباني. اذ دخل الكوفة والحجاج عليها، حتى انتهى الى السوق، وشد حتى ضرب باب القصر بعموده حتى احدث فيه ضربة، ثم أقبل حتى وقف عند باب المصطبة، وانشد (٤ /٢٤٧):

وكــــأن حافرهـــــا بكــــل ثنيـــــة | فـــدّقٌ يكيـــل بـــه شـــحيح معِـــدم
عبــــدٌ دعــــيٌّ مـــــن ثمــــود أصــــله | لا بـــل يقـــال أبـــو البهـــيم يقـــدم

ومضى شبيب حتى اخذ على شاطىء الفرات، ثم اخذ على الانبار، ثم دخل داقوق (كركوك) ثم ارتفع الى اداني آذربيجان، وخلال مسيرته تلك دارت معارك بينه وبين الحجاج، فقال الجهري بن ابي همام الذهلي يرثيهم (٤ /٢٤٥):

شـــبابٌ اطـــاعوا اللّه حتـــى احـــبهم ... وكلـــــهم شـــــار يخـــــاف ويطمـــــع
فلمـــا تَبَـــدَّوا مـــن دقوقـــا بمنـــزلٍ ... لميعـــاد اخـــوانٍ تـــداعوا فـــاجمعوا
دعـــوا خصـــمهم بالمحكمـــات وبينـــوا ... ضـــلالتهم، واللّه ذو العـــرش يســـمع
بنفســـيَ قتلـــى في دقوقـــاءغودرت ... وقـــد قطعـــت منهـــا رؤوس واذرع
للتبـــكِ نســـاء المســـلمين علـــيهم ... وفي دون مـــالاقين مبكـــى ومســـمع

ورثت اخت الوليد بن طريف الشيباني الخارجي اخاها بعد ان قتله يزيد بن مزيد الشيباني، وحمل رأسه الى الرشيد، وقالت انه من اهل التقى والدين على قاعدة شعراء الخوارج (٥/٧٣-٧٤):

أيـــا شـــجر الخـــابور مالـــك مـــورقٌ ... كأنـــك لم تجـــزع علـــى ابـــن طريـــف
فتـــىً لا يحـــب الـــزاد الامـــن التقـــى ... ولا المـــال الامـــن قنـــا وســـيوفِ
ولا الـــذخر الاَّ كـــل جـــرداء شـــطبة ... وكـــل رقيـــق الشـــقرتين خفيـــف
فقـــدناك فقـــدان الربيـــع وليتنـــا ... فـــديناك مـــن ســـاداتنا بـــالوف

وقال مسلم بن الوليد بن يزيد بن مزيد، ويذكر قتله الوليد (٥/٧٤).

والمـــارق بـــن طريـــف قـــد دلفـــت لـــه ... بعـــارض للمنايـــا مســـبل هطـــل
لـــوان شـــيئاً بكـــى ممـــا اطـــاف بـــه ... فـــاز الوليـــد بقـــدح الناضـــل الحصـــل
ماكـــان جمعهـــم لمـــا لقيـــتهم ... الاكرجـــل جـــراد ربـــع منجفـــل
فاســـلم يزيـــد فمـــا في الملـــك مـــن أودٍ ... اذا ســـلمت، ولا في الـــدين مـــن خلـــل

خرج في أيام المتوكل بن عمرو الخثعمي بالجزيرة فقطع الطريق، وتسمى

بالخلافة، فحاربه ابو سعيد محمد بن يوسف الطائي الثغري الصامني، فقتل كثيراً من اصحابه، واسر كثيراً منهم، ونجا بنفسه هارباً فمدحه ابو عبادة البحتري، فقال (٥/ ٧٤ ـ ٧٦):

كنــا نكفّـــر مـــن اميـــة عصـــبة ... طلبـــوا الخلافـــة فجـــرة وفســـوقا

ونلـــوم طلحـــة والـــزبير كليهـــا ... ونعنـــــف الصـــــدّيق والفاروقــــا

ونقـــول تـــيم اقربـــت وعـــدّيها ... امرأبيعـــداً حيـــث كـــان ســـحيقا

وهمـــوا قـــريش الابطنـــون اذا انتمـــوا ... طـــابوا اصـــولاً في العـــلا وعروقـــا

حتـــى غـــدت جســـم بـــن بكـــر تبتغـــي ... ارث الـــــنبي وتدعيـــــه حقوقـــــا

جـــاؤوا بـــراعيهم ليتخـــذوا بـــه ... عمـــداً الى قطـــع الطريـــق طريقـــا

عقـــدوا عمامتـــه بـــرأس قناتـــه ... ورأوه بـــــرأ فاســــــتحال عقوقـــــا

واقـــام ينفـــذ في الجزيـــرة حكمـــه ... ويظـــن وعـــد الكـــاذبين صـــدوقا

حتـــى اذا مـــا الحيـــة الـــذكر انكفـــى ... مـــن ارزن حربـــاً يمـــج حريقـــا

غضـــبان يلقـــى الشـــمس منـــه بهامـــه ... يعشـــي العيـــون تألقـــاً وبروقـــا

اوفـــى عليـــه وظـــل مـــن دهـــش يظـــن ... الـــبر بحـــراً والفضـــاء مضـــيقا

غـــدرت امانيـــه بـــه وتمزقـــت ... عنـــه غيابـــة ســـكره تمزيقـــا

طلعـــت جيـــادك مـــن ربـــا الجـــوديّ قـــد ... حُمّلـــن مـــن دفـــع المنـــون وســـوقا

فـــدعا فريقـــاً مـــن ســـيوف حـــتفهم ... وشـــددت في عقـــد الحديـــد فريقـــا

ومضـــى ابـــن عمـــر قـــد اســـاء بعمـــره ... قعـــب علـــى بـــاب الكُميَـــل اريقـــا

لــو خاضــها عمليــق او عـــوج اذن ... مـــاجوزت عوجـــاً ولا عمليقـــا
لــولا اخضــرار الخــوف في أحشــائه ... رســب العبــاب بــه فمــات غريقــا
لــو نفّســته الخيــل لفتــة نــاظر ... مـــلأ الـــبلاد زلازلاً وفتوقـــا
لثنــى صــدور الخيــل تكشــف كربــه ... ولــوى رمــاح الخــط تفــرج ضــيقا
ولبكـــرت بكـــر وراحـــت تغلـــب ... في نصـــر دعوتـــه اليـــه طروقـــا
حتــى يعــود الــذئب ليثــاً ضــيغماً ... والغصـــن ســـاقاً والقـــرارة نيقـــا
هيهـــات مـــارس فيلقـــاً متيقظـــاً ... قلقـــاً اذا ســـكن البليـــد رشـــيقا
متســـلفاً جعـــل الغبـــوق صـــبوحة ... ومـــرى صـــبوح غـــد فكـــان غبوقـــا

وممن يعظمه الخوارج مرداس بن حدير ابو بلال، احد بني ربيعة بـن حنظلـة وكان ناسكاً، وكان قد شهد مع علي عليه السلام صفين ثم انكر التحكيم، وشهد النهروان، ونجا فيمن نجا، عبيد الله بن زياد، وخرج من حبسه فغادر هو واصحاب له، ومضى حتى نزل آسك، وهي مابين رامهرهزوارجان، فمرَّبه مال يحمل الى ابن زياد، وقد قارب اصحابه الاربعـين فحـط ذلـك المـال، وأخـذ منـه عطـاءه وعطـاء أصحابه وردَّ الباقي على الرسل. ولأبي بلال مرداس هذا في الخروج أشعار، منهـا قوله (٨٥/٥):

أبعــد ابــن وهــب في النزاهــة والتقــى ... ومــن خــاض في تلــك الحــروب المهالكــا
احـــب بقـــاءً أو ارجّـــي ســـلامة ... وقــد قتلــوا زيــد بــن حصــن ومالكــا
فيـــا رب ســـلم نـــيتي وبصـــيرتي ... وهــب لــي التقــى حتــى الاقــي أولئكــا

فندب ابن زياد جيشاً إلى خراسان بقيادة أسلم بن زرعة الكلابي من ألفي رجل، يتعقبون أبا بلال واصحابه، ولما التقوهم صاح بهم أبو بلال:

اتق الله يا اسلم، فأنّا لانريد فساداً في الأرض، ولا تحتجر فيئا.

ولكن أسلم أصر على أن يأخذهم لأبن زياد، فحملوا على أسلم حملة رجل واحد، فانهزم هو وأصحابه من غير قتال، وكان يأسره معبدا أحد الخوارج، ولما عاد إلى ابن زياد غضب عليه غضباً شديداً.

وكان إذا خرج الى السوق، أو مَّر بصبيان صاحوا به:

أبو بلال وراءك.

وربما صاحوا به:

معبد خذه.

ففي ذلك يقول عيسى بن فاتك، من بني تيم اللات بن ثعلبة أحد الخوارج (٥/٨٦-٨٧):

فلما أصبحوا صلوا وقاموا ... الى الجرد العتاق مسومينا

فلما أستجمعوا حملوا عليهم ... فظل ذوو الجعائل يقتلونا

أألفا مؤمن فيكم زعمتم ... ويهزمكم بآسك أربعونا؟

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا

هم الفئة القليلة غير شك ... على الفئة الكثيرة ينصرونا

وبعث ابن زياد في أثرهم عباد بن علقمة المازني فلما لقيهم حاوره أبو بلال

مثلما حاور أسلماً قبله وبينما هم كذلك مَّر القعقاع وكان في طريقه الى الحج ولما علم أنهم الخوارج حمل عليهم فأسروه، ولكن أبا بلال أطلقه بحيله أحتالها القعقاع مدعياً أنه ليس من أعداء الخوارج بل هو في طريقه إلى الحج فغرر به فقاتلهم، ولما أطلقه حمل عليهم ثانية وهو يقول (٥/٨٩):

أقاتلهم وليس عليَّ بعث ... نشاطاً ليس هذا بالنشاط
أكرُّ على الحروريين مهري ... لا حملهم على وضح الصراط

فحمل عليه حُريرث بن حجر السدوسي وكهمس بن طلق الصريمي فأسراه وقتلاه، ولم يأتيا به أبا بلال، ولم يزل القوم يجتلدون حتى جاء وقت صلاة الجمعة فناداهم أبو بلال:

يا قوم ......

أن يكفوا ليصلوا، فاجابوه على طلبه، ولكن عباداً وجماعة أسرعوا في صلاتهم والخوارج مبطئون، وبينما هم في صلاتهم مال عليهم عباد ومن معه فقتلوهم جميعاً، وأُتي برأس أبي بلال.

ففي مقتلهم يقول عيسى بن فاتك الخطيّ (٥/٩٠):

ألا في الله لا في الناس سالت ... بداود وأخوته الجذوع
مضوا قتلاً وتمزيقاً وصلباً ... تحوم عليهم طير وقوع
إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهم وهمُ ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا ... وأهل الأرض في الدنيا هجوع

وقال عمران بن حطان (٥/٩١):

يـــا عـــين بكـــي لمـــرداس ومصـــرعه   يـــارب مـــرادس أجعلـــني كمـــرادس
تـــركتني هائمـــاً أبكيـــي لمرزئـــه   في منـــزل مـــوحش مـــن بعـــد أينـــاس
أنكـرت بعـدك مـن قـد كنـت أعرفـه   فالنـــاس بعـــدك يـــا مـــرادس بالنـــاس
أمـــا شـــربت بكـــأس دار أولهـــا   علـــى القـــرون فـــذاقوا صـــرعة الكـــأس
فكـــل مـــن لم يـــذقها شـــارباً عجـــلاً   يشـــقى بأنفـــاس ورد بعـــد أنفـــاس

وقال أيضاً (٥/٩١):

لقـــد زاد الحيـــاة الـــيَّ بغضـــاً   وحبـــاً للخـــروج أبـــو بـــلال
أحـــاذر أن أمـــوت علـــى فراشـــي   وارجـــو المـــوت تحـــت ذرا العـــوالي
ولـــو أنـــي علمـــت بـــأن حتفـــي   كحتـــف أبـــي بـــلال لم أبـــالِ
فمـــن يـــك همّـــه الـــدنيا فـــأني   لهـــا - والله رب البيـــت - قـــالِ

وعمران هذا أحد بني عمرو بن يسار بن ذهل بن ثعلبة بن عكاية بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، وكان راس العقد من الصُفرية وفقيههم وخطيبهم، وشاعرهم، وشعره هذا بخلاف أبي خالد القناني، وكان من قَعَد الخوارج أيضاً، وقد كان كتب قطري ابن الفجاءة المازني يلومه على القعود (٥/٩١-٩٢): -

أبـــا خالـــد أيقـــن فلســـت بخالـــدٍ   ومـــا جعـــل الـــرحمن عـــذراً لقاعـــد
أتـــزعم أن الخـــارجي علـــى الهـــدى   وأنـــت مقـــيم بـــين لـــصٍ وجاحـــد

فكتب إليه أبو خالد (٥/٩٢):

لقــــد زاد الحيــــاة الــــيَّ حبّســــاً بنـــــاتي أنهــــن مــــن الضـــــعافِ
أحــــاذر أن يــــرين الفقــــر بعــــدي وأن يشـــربن رنقـــاً بعـــد صــــافِ
وأن يعــــرين أن كســــي الجــــواري فتبــــدو العــــين عــــن كــــرم عجــــاف
ولــــولا ذاك قــــد ســــوّقت مهــــري وفي الرحمــــان للضـــــعفاء كـــــافِ

وأن عمران بن حطان، لما طرده الحجاج، جعل يتنقل في القبائل، وكان إذا نزل بحي أنتسب نسباً يقرب منهم؛ ففي ذلك يقول (٥/٩٢):

نزلنــــا في بــــني ســــعد بــــن زيــــدٍ وفي عــــــكٍ وعــــــامر عوثبــــــان
وفي لخــــم وفي أود بــــن عمــــروٍ وفي بكــــر وحــــي بــــني الفُــــدان

وطلبه عبد الملك يوماً فبعث روح بن زنباع الجذامي (وكان أثيراً لديه) ليجيء به إليه، ولما جاء روح قال له عمران: -

قد أردت أن أسالك ذاك فاستحييت منك، فاذهب فإني في الأثر فرجع روح إلى عبد الملك فخبّره، فقال:

أما أنك سترجع فلا تجده.

فرجع فوجد عمران قد احتمل (أي غادر) وخلف رقعة فيها (٥/٩٣-٩٤):

يـا روح كـم مـن أخـي مثـوى نزلـت بـه قــد ظــن ظنــك مــن لخــم وغســان
حتــــى إذا خفتــــه زايلــــت منزلــــه مــن بعــد مــا قيــل عمــران بــن حطــان
قــد كنــت جــارك حــولاً لا يــروعني فيــه طــوارق مــن أنــس ولا جــان

حتـــى أردت بـــي العظمـــى فـــأدركني ‏ ‏ مـا أدرك النـاس مـن خـوف بـن مـروان
فاعـذر أخـاك ابـن زنبـاغٍ فـأن لـه ‏ ‏ في الحادثـــات هنـــات ذات ألـــوان
يومـــاً جـــان إذا لاقيـــت ذا يمـــن ‏ ‏ وأن لقيـــت معـــدياً فعـــدنان
لـــو كنـــت مســـتغفراً يومـــاً لطاغيـــة ‏ ‏ كنـــت المقـــدم في ســـري وأعلانـــي
لكـــن أبـــت ذاك آيـــات مطهـــرة ‏ ‏ عنـــد الـــتلاوة في طـــه وعمـــران

وكان عبد الملك قد عرف أنه عمران بن حطان من خلال بيتين رواهما له روح بن زنباغ الجذامي، عندما كان عمران ضيفاً عند روح، والبيتان هما (٥/٩٥):

يـا ضـربة مـن تقـي مـا أراد بهـا ‏ ‏ ألا ليبلـغ مـن ذي العـرش رضـوانا
أنـــي لأذكـــره حينـــاً فأحســـبه ‏ ‏ أوفـــى البريـــة عنـــد الله ميزانـــا

وقد قلبها الفقيه الطبري فقال (٥/٩٣):

يـا ضـربة مـن شـقي مـا أراد بهـا ‏ ‏ إلا ليهـدم مـن ذي العـرش بنيانـا
أنـــي لأذكـــره يومـــاً فألعنـــه ‏ ‏ والعـن الوغـد عمـران بـن حطانـا

وقال محمد بن أحمد الطيب يرد على عمران بن حطان (٥/٩٤):

يـا ضـربة مـن عـدو صـار ضـاربها ‏ ‏ أشـقى البريـة عنـد الله إنسـانا
إذا تفكـــرت فيـــه ظلـــت ألعنـــه ‏ ‏ وألعـن الكلـب عمـران بـن حطانـا

ثم ارتحل، حتى نزل بزفر بن الحارث أحد بني عمرو بن كلاب، فأنتسب له أوزاعياً (نسبة الى بطن من همدان) فاتاه رجل ممن كان عند روح، فقال له زفر:

من هذا؟

فقال:

رجل من الأزد رأيته ضيفاً لروح بن زنباع.

فقال زفر لعمران:

- هذا أزدياً مرة وأوزاعياً أخرى؟ إن كنت خائفاً أمنّاك؛ وإن كنت فقيراً أجرناك، فلما أمسى خلف في منزله رقعة وهرب فوجدوا فيها (٩٤/٥):

إن التي أصبحت يعيا بها زفرٌ ... أعيت عياءً على روح بن زنباع

ما زال يسألني حولاً لأخبره ... والناس ما بين مخدوع وخدّاع

حتى إذا انقطعت مني رسائله ... كف السؤال ولم يولع بأهلاع

فاكفف لسانك عن لومي ومسألتي ... ماذا تريد الى شيخ بلا راعي؟

فأكفف كما كفّ عني أنني رجل ... أما ضييم وإما فقعة القاع

اما الصلاة فأني غير تاركها ... كل امريء للذي يعني به ساع

اكرم بروح بن زنباع وأسرته ... قوم دعا اوليهم للعلا داع

جاورتهم سنة من ما أسَرٌّ به ... عرضي صحيح ونومي غير تهجاع

فأنعم فأنك منعيٌّ بواحدة ... حسب اللبيب بهذا الشيب من داع

ثم ارتحل حتى أتى عُمان فوجدهم يعظمون أمر أبي بلال، فأظهر أمره فيهم، فبلغ ذلك الحجاج، فكتب إلى أهل عُمان، فهرب حتى أتى قوماً من الأزد في سواد الكوفة، فنزل بهم، فلم يزل عندهم حتى مات. وفي نزوله فيهم يقول (٩٥/٥):

نزلنـــا بحمـــد اللّه في خـــير منـــزلٍ نسَـــرُّ بمـــا فيـــه مـــن الأنـــس والخفـــر
نزلنـــا بقـــوم يجمـــع اللّه شملـــهم وليس لهم دعوى سوى المجد يعتصر
مـــن الأزد أن الأزد أكـــرم أســـوةٍ يمانيـــة طـــابوا إذا أنتبـــه البشـــر
فأصـــبحت فـــيهم أمنـــاً لا كمعشـــرٍ أتـوني فقـالوا: -مـن ربيعـةٍ أو مضـر
أم الحـــيِّ قحطـــان وتلـــك ســـفاهة كمـــا قـــال لـــي روح وصـــاحبه زفـــر
ومـــا منهمـــا إلا يسَـــرُّ بنســـبةٍ تقـــربني منـــه وان كـــان ذا نفـــر

ومن الخوارج الرهين المرادي أحد فقهاء الخوارج ونسّاكها وكان لايرى القعود عن الحرب، وكان في الدهاء والمعرفة والشعر والفقه بقول الخوارج بمنزلة عمران بن حطان، ومن شعر الرهين المرادي قوله (٥/٩٩):

يـا نفس قد طـال في الـدنيا مـراوغتي لا تـــأمنن لصـــرف الـــدهر تنقيصـــا
أنـــي لبـــائع مـــا يفنـــى لباقيـــةٍ أن لم يعقـــني رجـــاء العـــيس تربيصـــا
وأســـأل اللّه بيـــع الـــنفس محتســـباً حتـــى ألاقـــيَ في الفـــردوس حرقوصـــا
وابـــن المشـــيح ومرداســـاً وأخوتـــه إذ فـــارقوا هـــذه الـــدنيا مخاميصـــا

وقال العزيز يرثي عباد بن أخضر المازني قاتل أبي بلال مرداس بن أدِّيه الخارجي (وقد ذكرنا قصته) إذ كمن له الخوارج في الطريق وبعد مساءلة فقهية قتلوه فقال الفرزدق يذكر ذلك (٥/١٠١):

لقـــد أدرك الأوتـــار غـــير ذميمـــة إذا ذُمَّ طـــلاب الـــتراث الأخاضـــر
هـم جـردوا الأسـياف يـوم ابـن أخضـر فنـــالوا الـــتي مـــا فوقهـــا نـــال ثـــائر

افـادوا بـه أسـداً لهـا في أقتحامهـا — إذا بـرزت نحـو الحـروب - بصـائر
كفعـل كليـب إذ أخلـت بجارِهـا — ونصـر اللئـيم معصـر وهـو حاضـر
ومـا لكليـب حـين تـذكر أول — ومـا لكليـب حـين تـذكر آخـر

ومن الخوارج أبو الوازع الراسبي من مجتهدي الخوارج ونسّاكها.

وقد أتى نافع بن الأزرق وهو في جماعة من أصحابه، يصف لهم جور السلطان وفساد العامة، فقال له أبو الوازع: -

- إنك أعطيت لساناً صادقاً، وقلباً كليلاً فلوددت إن صرامة لسانك كانت لقلبك، وكلال قلبك كان للسانك! أتمضي على الحق وتقعد عنه؟ وتقبح الباطل وتقيم عليه؟

فقال نافع: إنما ننتظر الفرص، الى أن تجمع من أصحابك من تنكيء به عدوك فقال أبو الوازع (١٠٣/٥):

لسـانك لا تنكـيء بـه القـوم إنمـا — تنـال بكفيـك النجـاة مـن الكـرب
فجاهـد أناسـاً حـاربوا الله واصـطبر — عسىالله أن يجزي نحويّ بن بني حرب

ويعني بني حرب: معاوية.

ومن الخوارج عمران بن الحارث الراسبي؛ فهو من نسّاكها قتل في يوم دولاب، إذ التقى هو والحجاج بن باب الحميري، وكان الأمير يومئذ على البصرة، وصاحب رايتهم، فأختلفا حربتين فخّرا ميتين، فقالت أم عمران ترثيه (١٠٣/٥-١٠٤):

اللّه أيـــــدّ عمرانـــــاً وطهّـــــره | وكــان عمــران يــدعوا اللّه في الســحر
يـــدعوه ســـراً وأعلانـــاً ليرزقـــه | شـــهادة بيـــدي ملحـــادة عُـــذُر
ولىّ صـــحابته عـــن حـــر ملحمـــةٍ | وشـــد عمـــران كالضـــرغامة الـــذكر

وممن قتل من رؤسائهم يوم دولاب نافع بن الأزرق، وكان خليفتهم - خاطبوه بأمرة المؤمنين، فقال رجل يرثيه (١٠٤/٥):

شمــت ابــن بــدر والحــوادث جمــة | والجـــائرون بنـــافع بـــن الأزرق
والمـــوت حـــتم لا محالـــة واقـــع | مـــن لا يصـــبحه نهـــاراً بطـــرق
فلـــئن أمـــير المـــؤمنين أصـــابه | فمـــــن يصـــــبه بغلـــــق

وقال قطري بن الفجاءة يذكر يوم دولاب (١٠٤/٥-١٠٦):

لعمـــرك أنـــي في الحيـــاة لزاهـــد | وفي العـــيش مـــا لم الـــق أم حكـــيم
مـن الخفـرات البـيض لم يـرض مثلـها | شـــفاء لـــذي بـــثٍ ولا لســـقيم
لعمـــرك أنـــي يـــوم الطـــم وجههـــا | علـــى نائبـــات الـــدهر جـــد لئـــيم
إذا قلـت يصـبوا القلـب أو ينتهـي المنـى | أبـــى القلـــب إلا حـــب أم حكـــيم
منعمـــة صـــفراء حلـــو دلالهـــا | أبيـــت بهـــا بعـــد الهـــدو أهـــيم
قطـوف الخطـى مخطوطـة المـنن زانهـا | مـــع الحـــر خلـــق في الجمـــال عمـــيم
فلـــو شـــهدتنا بعـــد دولاب شـــاهدت | طعـــان فتـــى في الحـــرب غـــير ذمـــيم
غـداة طغـت علمـاء بكـر بـن وائـل | وعجنـــا صـــدور الخيـــل نحـــو تمـــيم
وكـــان بعبـــد القـــيس أول جـــدنا | وأحلافهـــا مـــن يحصـــب وســـليم

وظلت شيوخ الأزد في حومة الوغى ... تقوم فمن مستنزل وهزيم
فلم أرَ يوماً كان أكثر مُقمحاً ... يمج دماً من قائظ وكليم
وضارية خداً كريماً على الفتى ... أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطناً ... له أرض دولاب وأرض حميم
فلو شهدتنا يومذاك وخيلنا ... تبيّح الكفار كل صريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

ومن الخوارج عبد الله بن يحيى طالب الحق من رؤساء الخوارج وكبارهم قد أقام بصنعاء بعد أن استولى على اليمن، ولما كان وقت الحج وجّه أبا حمزة المختار بن عوف وبلج بن عقبة وأبرهة بن الصباح إلى مكة والأمير عليهم أبو حمزة في ألف، وأمره أن يقيم في مكة إلى صدر الناس ويوجه بلجاً إلى الشام، فأقبل المختار رأى مكة يوم التروية. وعليها وعلى المدينة عبد الواحد بن سلمان بن عبد الملك في خلافة مروان بن محمد بن مروان، وبعد حوار ومراسلات، كره عبد الواحد محاربتهم، ولما كان النفر الأخير نفر عبد الواحد وخلى مكة لأبي حمزة، فدخل بغير قتال، فقال بعض الشعراء يهجو عبد الواحد (١٠٨/٥):

زار الحجيج عصابة قد خالفوا ... دين الإله ففر عبد الواحد
ترك الأمارة والمواسم هارباً ... ومضى يخبط كالبعير الشارد
فلو إن والده تخير أمه ... لصفت خلائقه بعرق الوالد

ورثت إحدى نائحات المدينة قتلى قريش في حربهم الخوارج (١١٣/٥):

مـــــال الزمــــــان ومــــــا ليـــــه   أفنـــــــت قُدَيـــــــد رجاليـــــــه
فلأبكـــــــــــين ســـــــــريرة   ولأبكـــــــــــين علانيـــــــــــة
ولأبكـــــــين علـــــــى قديــــــــ   ـــــد بســـــوء مـــــا أولانيـــــه
ولا عويـــــــــــق إذا خلـــــــــو   ت مـــــــع الكـــــــلاب العاويـــــــة

وقال سهيل مولى زينب بنت الحكم بن أبي العاص وهو يذكر قتال الخوارج (١٢٢/٥):

ليـــــــــت مـــــــــروان رآنـــــــا   يـــــــوم الاثـــــــنين عشـــــــية
إذ غســــــلنا العـــــار عنـــــا   وانتضـــــــــينا المشـــــــــرفية

وارتجزت زوجة أبي حمزة الخارجي قبل أن تقتل مع زوجها قائلة (١٢٢/٥-١٢٣):

إن الجــــديعاء وبنـــــت الأعلـــــم   مــن ســال عــن اسمــي فــأسمر مــريم
بعــــث ســــواري بضــــبن مخــــذم

وقيل في بشكت النحوي الذي شايع الخوارج في المدينة وقتل (١٢٤/٥):

لقـــد كــــان بشـــكت عبـــد العزيـــز   مــــن أهـــــل القـــــراءة والمســـــجد
فبعـــــداً لبشـــــكت عبـــــد العزيـــــز   وأمــــــا القُـــــرآن فــــــلا تبعـــــد

وبعد أن جرت معركة بين ابن عطية في الطائف وبين عبد الله بن يحيى الخارجي فقتل جميع من كان مع عبد الله، فقال أبو صخر الهذلي يذكر ذلك (١٢٣/٥-١٢٥):

قتلنـــا عبيـــداً والـــذي يكـــتني الكنـــى　　أبـــا حمـــزة القـــاري المصـــلي اليمانيـــا
وأبرهـــة الكنـــدي خاضـــت رماحنـــا　　وبلجـــاً منحنـــاه الســـيوف المواضـــيا
ومـــا تركـــت أســـيافنا منـــذ جـــردت　　لمـــروان جبـــاراً علـــى الأرض عاصـــيا

وقال عمرو بن الحصين العنبري يرثي أبا حمزة وغيره من الشراة (١٢٥/٥-١٢٨):

هبـــت قبيـــل تـــبلج الفجـــر　　هنـــد تقـــول ودمعهـــا يجـــري
إذ أبصـــرت عـــيني وأدمعهـــا　　تتهـــلُّ وأكفـــه علـــى النحـــر
أنـــى اعـــتراك وكنـــت عهـــدي لا　　ســـرب الـــدموع وكنـــت ذا صـــبر
أقـــذي بعينـــك لا يفارقهـــا　　أم عـــاثر، أم مـــا لهـــا تـــذري؟
أم ذكـــر أخـــوان فجعـــت بهـــم　　ســـلكوا ســـبيلهم علـــى قـــدر؟
فأجبتهـــا بـــل ذكـــر مصـــرعهم　　لا غـــيره عبراتهـــا تجـــري
يـــا رب أســـلكني ســـبيلهم　　- ذا العـــرش- وأشـــدد بـــالتقى أزري
في فتنـــة صـــبروا نفوســـهمُ　　للمشـــرفية والقنـــا الســـمر
تللـــه مـــا في الـــدهر مثلـــهم　　حتـــى أكـــون رهينـــة القـــبر
أوفي بـــذمتهم إذا عقـــدوا　　واعـــف عنـــد العســـر واليســـر
متـــأهبون لكـــل صـــالحة　　نـــاهون مـــن لاقـــوا عـــن النكـــر
صـــمت إذا حضـــروا مجالســـهم　　مـــن غـــير مـــا عـــيٍّ يهـــم يـــزري
ألا تجيـــئهم فـــأنهمو　　رجـــف القلـــوب بحضـــرة الـــذكر

متــــأوهون كـــأن جمـــر غضـــاً　　للمـــوت بـــين ضـــلوعهم يســـري
تلقـــــــاهمُ إلا كـــــــأنهمو　　لخشـــوعهم صـــدروا عـــن الحشـــر
مـــنهم كـــان بهـــم جـــرى مـــرض　　أو مســـهم طـــرف مـــن الســـمر
لا ليلـــــهم ليـــــلٍ فيلبســــــهم　　فيــــه غواشــــي النــــوم بالســـكر
إلا كـــــرى خلســـــاً وأواثــــــةً　　حـــذر العقـــاب مـــنهم علـــى ذعـــر
كـــم مـــن أخ لـــك قـــد فجعـــت بـــه　　قـــــوام ليلتـــــه إلى الفجـــــر
متأوهـــــاً يتلـــــو قـــــوارع مـــــن　　آي الكتـــــاب مفـــــزع الصـــــدر
ظمــــآن وقـــــدة كـــــل هــــاجرةٍ　　تـّـــراك لذتــــه علـــــى قـــــدر
رفـــاض مـــا تهـــوى النفـــوس إذا　　رُغَـــتُ النفـــوس دعـــت إلى المِـــزر
ومــــبرءٍ مــــن كـــــل ســـيئةٍ　　عـــف الهـــوى ذا مـــرةٍ شـــزر
والمصـــــطلى بـــــالحرب يوقـــــدها　　بحســـــــامه في فتيـــــــة زهـــــــر
يختاضـــــها بأفـــــل ذي شَـــــطب　　غضـــب المضـــارب ظـــاهر الأشـــر
لا شـــــيء يلقـــــاه أســـــرٌّ لـــــه　　مـــن طعنـــه في ثغـــرة النحـــر
مســـــهارة منـــــه تجـــــيش بمـــــا　　كانـــت عواصـــم جوفـــه تجـــري
لخليلـــــك المختـــــار اذك بـــــه　　مـــن مغتـــد في اللّه أو مســـري
خـــــواض غمـــــرة كـــــل متلفـــــةٍ　　في اللّه تحـــت القيســـيَ الكـــدر
نـــــزال ذي النجـــــوات مختضـــــباً　　بنجيعـــــة بالطعنـــــة الشـــــزر
وابـــن الحصـــين وهـــل لـــه شـــبه　　في العـــرف أنـــى كـــان والنكـــر

بشـــــهامة لم تحســـــنِ أضـــــلعه ... لـــــذوي أحزتـــــه علـــــى غـــــدر
طلـــق اللســـان بكـــل محكمـــة ... رآب صـــدع العظـــم ذي الكســـر
لم ينفكـــك في جوفـــه حزنـــي ... تغلـــي حرارتـــه وتستشـــري
ترقـــى وآونـــة يخفضـــها ... يتـــنفس الصـــعداء والزفـــر
ومخـــالطي بلـــج وخالصـــتي ... ســـهم العـــدو وجـــابر الكســـر
نكـــل الخصـــوم إذا هـــمُ شـــغبوا ... وســـداد ثملـــة عـــورة الثغـــر
والخـــائض الفجـــرات يخطرنـــي ... وســـط الأعـــادي أيمـــا خطـــر
بمشـــطب أو غـــير ذي شُـــطب ... هـــام العـــدى بذبابـــة يغـــري
وأخيـــك أبرهـــة الهجـــان أخـــي ... الحـــرب العـــوان وموقـــد الجســـر
والضـــارب الأخـــدود لـــيس لهـــا ... حـــد ينهنههـــا عـــن الســـحر
وولـــي حكمهـــم فُجعـــت بـــه ... عمـــرو، فواكبـــدي علـــى عمـــرو!
قـــوال محكمـــة وذو فَهـــمٍ ... عـــف الهـــوى متثبـــت الأمـــر
ومســـيبٍ فـــاذكر وصـــيته ... لا تـــنس أمـــا كنـــت ذا ذُكـــر
فكلاهمـــا قـــد كـــان مختشـــعاً ... للّه ذا تقـــوى وذا بـــر
في مخبـــتين ولم أسمهـــمُ ... كـــانوا نـــدى وهـــمُ أولـــو نصـــر
وهـــمُ مســـاعر في الـــوغى حُجـــجٌ ... وخيـــار مـــن يمشـــي علـــى العفـــر
حتـــى وفـــوا للّه حيـــث لقـــوا ... لعهـــود لا كـــذب ولا غـــدر
فتخـــالفوا مهجـــات أنفســـهم ... وعـــداتهم بقواضـــب بـــتر

وأســـــنة أثـــــبتن في لــــــدنٍ　　خطيــــــة بــــــأكفهم زُهــــــر
تحــت العجـــاج وفـــوقهم طــرق　　يخفقـــن مـــن ســـود ومـــن حمـــر
فتوقـــدت نـــيران حـــربهم　　مـــا بـــين أعلـــى البيـــت والحجـــر
وتصـــرعت عـــنهم فوارســـهم　　لم يغمضـــوا عينـــاً علـــى وتـــر
صـــرعى فخاويـــة بيـــوتهمُ　　وخوامـــع بجســـومهم تغـــري

ورثى الشاعر مصعب بن عكاشة بن مصعب بن الزبير يوم قُدَيد في حرب الخوارج فقال (١٥/٢٥٠):

قمـــن فأنـــدبن رجـــالاً قتلـــوا　　بقديـــد ولنقصـــان العـــدد
ثـــم لا تعـــدلن فيهـــا مصـــعباً　　حـــين يبكـــي مـــن قتيـــل بأُحـــد
أنـــه قـــد كـــان فيهـــا باســـلاً　　صـــارماً يقـــدم أقـــدام الأســـد

ولقوله عليه السلام:

ألا وإن معاوية قاد لُمَّةً من الغواة، وعمس عليهم الخبر، حتى جعلو نحورهم أغراض المنية (٣/٢٤٤):

استشهد بقول أيوب بن خولي يرثي هدبة اليشكري (٣/٢٦٧):

فيـا هـدب للـهيجا ويـا هـدب للنـدى　　ويـا هـدب للخصـم الألـد يحاربـه
وياهـدب كـم مـن ملحـم قـد أصبته　　وقـــد أســـلمته للرمـــاح كتائبـــه
تـــزودت مـــن دنيـــاك درعـــاً ومغفـــراً　　وعضـــباً حســـاماً لم تخنـــك مضـــاربه
وأجـــرد محبـــوك الســـراة كأنـــه　　إذا أنقـض وافي الـريش حجـن مخالبـه

وقول أحد الخوارج (٣/٢٧٤):

ومـــن يخشـــى أظفـــار المنايـــا فأننـــا ... لبســـنا لهـــن الســـابغات مـــن الصـــبر
وان كريـــه المـــوت عـــذب مذاقـــه ... إذا مـــا مزجنـــاه بطيـــب مـــن الـــذكر

وقول أحد الخوارج يصف أصحابه (٣/٢٩٨):

وهـــمُ الأســـود لـــدى العـــرين بســـالة ... ومـــــن الخشـــــوع كـــــأنهم أحبـــــار
يمضون قد كسروا الجفون إلى الدعا ... متبســـــــمين وفـــــــيهم أستبشـــــــار
فكأنمـــــا أعـــــداؤهم أحبـــــابهم ... فرحـــــاً إذا خطـــــر القنـــــا الخطـــــار
يـــردون حومـــات الحمـــام وإنهـــا ... تـــــاللّه عنـــــد نفوســـــهم لصـــــغار
ولقـــد مضـــوا وأنـــا الحبيـــب إلـــيهم ... وهـــــم لـــــديَّ أحبـــــة أبـــــرار
قـــدر يخلفـــني ويحضـــيهم بـــه ... يـــا لهـــف كيـــف يفـــوتني المقـــدار

وقول الطرماح بن حكيم، وكان يرى رأي الخوارج (٣/٣٠٠):

وأنـــي لمقتـــاد جـــوادي فقـــاذف ... بـــه وبنفســـي اليـــوم إحـــدى المتـــالف
لأكســـب مـــالاً أو أأوب إلى غنـــى ... مـــن اللّه يكفـــيني عـــداة الخلائـــف
فيـــا رب أن حانـــت وفـــاتي فـــلا تكـــن ... علـــى شـــرجع يعلـــى بخضـــر المطـــارف
ولكـــن قـــبري بطـــن نســـر مقيلـــه ... بجـــوف الســـماء في نســـور عواكـــف
وأمســـى شـــهيداً ثاويـــاً في عصـــابة ... يصـــابون في قـــبح مـــن الأرض خـــائف
فـــوارس أشـــتات يؤلـــف بيـــنهم ... هـــدى اللّه نزالـــون عنـــد المواقـــف

المحتويات

ترجمة الشريف الرضي (رحمه الله) ٥
ترجمة ابن أبي الحديد ٨
مؤلفاته ٩
منهج الأضواء ١٠
الهدف من الأضواء ١٤
الضوء الأول: بدايات الدعوة الاسلامية ١٧
الضوء الثاني: بيعة السقيفة ٣٩
الضوء الثالث: الحروب الاسلامية ٥٧
١ - غزوة بدر ٥٩
٢ - غزوة أُحد ٦٩
٣ - غزوة الخندق ٨٢
٤ - غزوة مؤته ٨٩
٥ - وقعة الجمل - مقتل عثمان ٩٥
مقتل عثمان ٩٥
٦ - وقعة الجمل ١٠٠
٧ - وقعة صفين ١٢٣

الضوء الثالث: الحروب الإسلامية ٣١٥

٨ - الخوارج... ٢٥٩

المحتويات ٣١٤